السيد عبد الحسين دستغيب

قلب القرآن

دار البلاغ

بيروت–لبنان

السيد عبد الحسين دستغيب

قلب القرآن

دار البلاغ
بيروت–لبنان

الطبعة الأولى

١٤١١هـ - ١٩٩١م

طبع بإذن من الدار الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

إنّ لكل شيء قلباً وقلب القرآن « يسٓ »

جاء في الرواية الشريفة التي نقلها جميع المفسّرين عن كتب الأخبار المعتبرة :

« إنّ لكل شيء قلباً وقلب القرآن سورة يسٓ » .

عندما ننظر إلى أعضاء الجسم كمجموعة واحدة ، نجد أن القلب يشكل مركز تلك المجموعة ومنه تُدار مملكة الجسد ، فبخفقانه يبقى الجسم حياً ويواصل عيشه ، وبتوقّفه يموت .

قلب القرآن سورة « يسٓ »

إن التشبيه الذي وَرَد في هذه الرواية الشهيرة ووصفت فيها سورة «يس» بأنها قلب القرآن، يوضح مدى أهمية هذه السُّورة المباركة، هذا مع العِلْم أن القرآن كلّه معجزة ووحي إلهيّان ، إلّا أنّ سورة « يسٓ » خاصّة ، تتمتّع بمزايا أكثر ، تظهر بوضوح من خلال الرجوع إلى الرِّوايات الواردة في فضل هذه السُّورة ، وفضل قراءتها والعَمَلِ بها .

ويبدو أنّ هناك سببين لهذا التشبيه نذكرهما بشكل مُجمل :

محمَّد (ص) هو قلب عالم الوجود

من البديهي لدى المسلمين أنَّ أفضل المخلوقات هو الإنسان الذي مَنَّ الله سبحانه وتعالى عليه بالعقل ، ووهبه قابلية الإيمان به وتوحيده ، حتى يعترف بوحدانية خالقه وخالق الكُل ، وحتى لا يعبد غيره[1] . وطبقاً لما نصَّ عليه القرآن المجيد ، فإن إيجاد عالم الخلق ، هو مقدِّمةٌ لهذه الغاية حيث يقول تعالى :

﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ﴾[2] .

إن ذلك الدين المقدَّس الذي يقوم في الأساس على العلم ، ويعتبر أنَّ معيار القرب إلى الله هو في معرفة الحق تعالى ، إنَّ ذلك الدين هو الإسلام الذي يُعتبر المبعوث به نفسُه أوَّل عارفٍ بالله ، وأوَّل عبدٍ يترقَّى في مدارج المعرفة والعبودية ، والقرآن الذي نزل على قلبه المقدَّس[3] يشهد على هذه الحقيقة .

يمكن مما تقدَّم الإيقان جيداً ، بأنَّ محمَّداً (ص) هو قلب عالم الوجود إذ : « لولاك لما خلقت الأفلاك » . فالموجودات كلُّها إذاً إنّما وُجدت بِعَرَضِ وجود محمَّد (ص) .

« يس » هو سيِّد الأنبياء محمَّد (ص)

بناءً على ذلك فإن السُّورة التي تكون ، خاصة بمحمَّد (ص) ، تصبح بالتالي قلباً للقرآن جميعه ، طالما أنَّ محمداً نفسَه هو قلب عالم الوجود . والله عز وجل يخاطب ابتداءً من الآية الأولى سيِّد الأنبياء محمَّداً (ص) ويُقسم بالقرآن الحكيم : إنه [أي محمَّداً (ص)] لَمِنْ مُرْسَلي الله بالحق .

---

(1) ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلّا ليعبدون ﴾ سورة الذاريات : الآية ٥٦ .

(2) سورة البقرة : الآية ٢٩ .

(3) ﴿ نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسانٍ عربي مبين ﴾ سورة الشعراء : الآيات ١٩٣ ـ ١٩٥ .

وبعد آياتٍ عدَّة يُصرِّح تعالى بانه : قد وضع وأحصى جميع الأشياء في الإمام الهادي ، ويتحدَّث عن سَعَةِ الروح المحمَّدية التي فيها امتزجَت ورُكزت جميع عوالم الوجود . . . إنّ محمداً (ص) هو قلب الكون ومركز الوجود .

المباحث القرآنية في سورة « يس »

ونرى ـ من ناحية ثانية ـ أنّ سورة «يس» تشتمل بشكل كامل على المباحث القرآنية الأساسية ، فالقرآن يقوم في الأساس على التعريف بالمبدأ والمعاد ثم إنَّ لازمة الإيمان بالله ، الإيمان بأنبيائه . ويلي هذه الأهداف ، مجادلة الكفّار والمشركين ومقاتلتهم ، والاستدلال على صِحَّة نهجٍ الإلهيين وبطلان نهجٍ غيرهم ، ثم الاستدلال أخيراً على واقعية قصّة الجنّة وأهلها وأنعمها وجهنّم وأهلها وعذابها، وفي نظرةٍ مجملة نصل إلى هذه الحقيقة وهي أنَّ المباحث القرآنية الأساسية التي تتعلّق بالمبدأ والمعاد والدعوة إليه قد وَرَدَت في هذه السُّورة ، أمّا بقيَّة القضايا فهي فرعية ، ولهذا فإنَّ قلب القرآن إنّما هو آيات الإيمان بالله حيث المبدأ والمرجع هو الله سبحانه وتعالى ، وسورة « يس » تشتمل على شرح الموضوع :

الاستدلال على عبادة الواحد الأحد

﴿ ومالي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون ﴾[1] .

في هذه الآية الشريفة يذكُرُ سبحانه وتعالى على لسان مؤمن آل « يس » لماذا ينبغي عبادة الله تعالى ، ذلك لأن الموجِدَ هو الله وحده والذي إليه أيضاً مَرْجع الجميع ، فالمبدأ واحد والمرجع واحد ، فلماذا إذاً نحني الرأس إجلالاً لغيره ، وهو الذي أوجدنا من العدم ومَنّ علينا بمختلف أنواع النعم .

---

(١) سورة يس : الآية ٢٢ .

الأطعمة المتنوّعة من آيات الله

﴿ وآيةٌ لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون ۞ وجعلنا فيها جنّاتٍ من نخيل وأعناب وفجّرنا فيها من العيون ۞ ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون ﴾ ؟[١] .

إن من آيات الله للمؤمنين أنه بثّ الحياة في الأرض الميتة ، وأخرج الحبّ منها ، الذي منه يُهيءُ طعام الدوابّ[٢] ، وأوجد جنّات النخيل والأعناب والعيون الجارية لكي ينتفعوا من ثمارها الطبيعية ، وما يستحلص منها من خلّ وعصير وسائر الأطعمة الحلال كي يَحْمِدوا خالقهم على تلك النعم ويكونوا له من الشاكرين .

خلق الأزواج والنهار واللّيل

﴿ سبحان الذي خلق الأزواج كلّها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ۞ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ۞ والشمس تجري لمستقرٍّ لها ذلك تقدير العزيز العليم ۞ والقمر قدّرناه منازل حتى عاد كالعُرجُونِ القديم ۞ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكُلٌّ في فَلَكٍ يسبحون ﴾[٣] .

منزّهٌ عن كلّ عيبٍ ونقص ذلك الإله الذي خلق الأزواج كلّها ، سواء أكانت من نباتات الأرض أو من الأب والأم (الذكر والأنثى أو المادّة والشكل أو الوجود والماهية) وممّا هو خافٍ على الناس ، فبالتعرف على خَلْقِ الأزواج نتعرَّف إلى خالقها الذي هو منزّه عن كل عيب ونقص ، ومالِك لكل حُسْنٍ .

إنّ من جملة آياتِ الحق تعالى ، النهار والليل ، وطلوع الشمس

---

(١) المصدر السابق ، الآيات ٣٣ ـ ٣٥ .

(٢) ومنها الإنسان أيضاً لأنه هو الآخر يدبّ على الأرض (المترجم) .

(٣) سورة يس : الآيات ٣٦ ـ ٤٠ .

والقمر وغروبهما ، لقد جعل الله الليل سَكَناً وسبيلاً للراحة والسكينة ، والنهار ضياءً يتناسب وإعمال القدرات الإنسانية ، والسّعي وراء الرزق ، وأجرى الشمس ، كما سائر الكواكب ، لمستقرّها ، مع منظومتها نحو نجم النّسْر الواقع (Vega) في الفضاء المترامي الأطراف وجعل القمرَ يتخذ أشكالاً من هلال وبدر ومحاق ، وِفْق نظام محدَّد ومعيَّن ، حتى يُعْرَف منها حساب الشهر القمري ، كما يعرف وقت الليل والنهار مِنْ طريقة الشروق والغروب ﴿ وقدّره منازل لتعلموا عددَ السنين والحساب ﴾[1] .

ومن جملتها أيضاً ﴿ ولا الليل سابقُ النهار ﴾[2] . وهذه إشارة إلى آية أخرى ، إذ الليل والنهار مسخران لإرادته تعالى ، ولا يمكن لأحدهما أن يسبق الآخر إلاّ بالشكل الذي قدَّره الله ، وفق نظام محدَّد ، فيلج الليل في النهار، والنهار في الليل ؛ وفي بداية الربيع والخريف ، يتساوى الليل والنهار ، فابتداءً من أول الربيع وحتى أول الصيف يأخذ النهار بالطول ، والليل بالقصر تدريجياً . ثم بعد ذلك يؤخذ من طول النهار ، ويُزاد على الليل تدريجياً ، حتى يتساوى الليل والنهار للمرّة الثانية، في أول الخريف، ثم بعد ذلك يقصُر النهار ويطول الليل، حتى ليلة الميلاد بداية الشتاء ، حينها يطول النهار ويقصُر الليل حتى آخر الشتاء وأوّل الربيع وهكذا ؛ إنّ هذا النظام المحدَّد الناتج عن حركة الأرض شمالاً وجنوباً وبالعكس ، هي بِحَقّ آية كبرى على عِلْم الخالق وقدرته وحكمته .

السفينة وسيلة نقل وآية من آيات الله

﴿ وآيةٌ لهم أنّا حملنا ذرّيتهم في الفلك المشحون * وخلقنا لهم من مثله ما يركبون * وإن نشأ نغرقْهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون *

(١) سورة يونس : الآية ٥ .

(٢) سورة يس : الآية ٤٠ .

إلاّ رحمةً منا ومتاعاً إلى حين ﴾[1] .

إنّ من آيات الله، السُّفن التي تجري بالرُّكّاب فوق سطح الماء، فسبحانه تعالى كيف جعل طبيعة الخشب والمعدن بحيث يقهران الماء؟! وكيف مَنّ على الإنسان بالذكاء والقابليّة لإدراك خصائص المواد، بحيث يمكنه أن يُركّبها فيصنع منها سفينة تطفو على سطح الماء، وسيّارة تسير على الأرض، وطائرة تحلّق في الجوّ، حتى بلغ به الأمر أن صَنَع صاروخاً يجوز الفضاء بين الكواكب ﴿ وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ﴾ .

وفي سياق ذلك، وحتى يدرك الناس أنّ الفاعل هو الله وليس أحداً غيره، فإنه تعالى يقدّر أحياناً أن تَغرق السفينة وتَسقط الطائرة، وذلك حتى يدركوا أنه ما من مغيث إلاّ الله، فذلك الإله الذي جعل السفينة والطائرة والسيارة تتحرّك، هو الإله نفسُه القادر على أن يُعطّل الأسباب، وحينها لا يبقى من عاصم من الهلاك إلاّ رحمة الله، إلى أن يأتي الوقت المقرّر والأجل المقدّر ﴿ ومتاعاً إلى حين ﴾ .

الحيوانات آيات للناس

﴿ أولم يروا أنّا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً، فهم لها مالكون * وذلّلناها لهم فمنها رَكوبهم ومنها يأكلون * ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون ﴾؟ [2] .

إنّ خَلْقَ الأنعام التي جعلها الله في تصرُّف النّاس آية أخرى من آيات الله للمؤمنين به، الموحدين له . فهو سبحانه قد جعلها لهم ليأكلوا لحومها، ويشربوا حليبها، ويستخدموها في الركوب والزراعة والسّفر . أمّا النُّكتة الدقيقة المثيرة فهي قوله تعالى : ﴿ ذلّلناها لهم ﴾

(١) سورة يس : الآيات ٤١ ـ ٤٤ .

(٢) سورة يس : الآيات ٧١ ـ ٧٣ .

أي جعلناها ذليلة مستكينة في تصرُّف الإنسان ، فالحيوان الذي تفوق قوته قوة الإنسان ، ذلّلناه له ، كي يستخدمه على هذا النّحوْ فلا يتمنّع ، أفلا ينبغي شكر هذا الإله ؟!.

المعاد ، الأصل الثاني من أصول العقيدة الإسلامية

يتعلق القسم الثاني من مباحث القرآن الأساسية بالمعاد ، وهو ما يأتي التذكير به والاستدلال عليه بطرقٍ متعدّدة في هذه السورة الشريفة ، منها الاستدلال على الخالق بإحياء الأرض الميتة ، وهو ما يمكن الاستدلال به على المعاد أيضاً . وبعبارة أخرى : فإن إحياء الأرض الميتة كما يدل على المُحيي ، هو كذلك دلالة على القدرة على الإحياء .

أما الاستدلال المثير الآخر على القيامة ، فموجود في الآيات الأخيرة من هذه السُّورة الشريفة ، يقول تعالى :

﴿ وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه ! قال من يحيي العظام وهي رميم * قل يحييها الذي أنشأها أوّل مرّة وهو بكل خلقٍ عليم * الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون * أوليس الذي خلق السمٰوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ بلى وهو الخلّاق العليم * إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن ، فيكون ﴾[1] .

إنه تعالى يروي قصة ذلك المشرك الذي فتّت العظم النَّخِر في حضور خاتم الأنبياء (ص) ثم قال مستنكراً : مَن يحيي هذا وقد بَلِيَ ونَخُرْ ؟! يقول تعالى : هذا الرجل يضرب لنا مثلاً باستحالة إحياء هذا العظم البالي ثانيةً ؟ وقد نسي خلقه هو .

فقل يا محمد : إن من خلقه في البداية ، قادر على إحيائه مرة

---

(١) سورة يس : الآيات ٧٨ ـ ٨٢ .

أخرى ﴿ وهو بكل خلقٍ عليم ﴾ . إنه نفسه الذي جعل لكم النار في الشجر الأخضر كي تستخدموه في وقودكم إنه الذي خلق السمٰوات والأرض، أفليس قادراً على خلق مثلها؟ بلى إنه لقادر على ذلك، وهو الخالق لكل شيء ، وهو العليم بما خلق ، وقدرته البالغة تجعل كل شيء أراده ، مرهوناً بكلمة « كن » فيكون ما أراد .

إنه تعالى ، وكما تلاحظون ، يستدل على قيام الساعة باستدلال محسوس ومفهوم لدى الجميع ، بالخلق الأوّل للإنسان وبإيجاد النار من الشجر الأخضر وكذلك بخلق السمٰوات والأرض ، وذلك على نحوٍ لا يقبل اعتراضاً ، ولا إشكال فيه .

قيام الساعة ، والجنة والنار

وكذلك تحدَّث تعالى في هذه السُّورة الشريفة عن مقدّمات قيام القيامة وعن نفخة الإحياء وذكّر بتنعُّم أهل الجنّة وعذاب أهل النّار .

يقول جل من قائل :

﴿ ويقولون متى هذا الوعد (القيامة) إن كنتم صادقين * ما ينظرون إلّا صيحةً واحدةً تأخذهم وهم يخِصّمون * فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون * ونفخ في الصّور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون * قالوا : يا ويلنا منْ بعثنا من مرقدنا ؟ هذا ما وعد الرحمن ، (ذلك الوعد ذاتُه الذي كانوا يتصوّرونه كذباً ولا يصدقونه) وصدق المرسلون * إن كانت إلّا صيحة واحدة فإذا هم جميعٌ لدينا محضرون * فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تُجزونَ إلّا ما كنتم تعملون * إنّ أصحاب الجنّة اليوم في شغل فاكهون * هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متّكئون * لهم فيها فاكهة ولهم ما يدّعون * سلامٌ قولاً من ربٍ رحيم * (تحيّة الله لأصحاب الجنّة) وامتازوا اليوم أيها

المجرمون * ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان ، إنـه لكم عدوٌ مبين . . . ؟ ﴾[1] .

وقد تحدّث تعالى كذلك عن جنّة البرزخ في سياق قصّة حبيب النّجار (مؤمن آل « يس ») .

الدعوة إلى الحقّ والوقوف إلى جانب الرُّسُل

في قصة حبيب النجّار وحواره مع الكفّار ومخالفي الرُّسُل ، يذكُرُ تعالى مجموعةً استدلالات على حقانيّة الأنبياء وعدم انتظارهم للثواب ، أو الأجر على دعوتهم ، ويُعطي درساً في المقاومة ، ونصرة الأنبياء إلى حدّ بذل الروح ، كما فعل مؤمن آل يس ، وصدقه في الدعوة إلى الله ونُصرة الداعين إليه تعالى . وما أنْ فارَقَتْ روحُه جَسَدَهُ حتى دَخَل جنّة البرزخ ، وبعد أن رأى ما رآه من نعيم قال :

﴿ يا لَيْت قومي يعلمون * بما غفر لي ربّي وجعلني من المكرمين ﴾[2] .

كذلك يذكر تعالى العقاب الذي يَحلُّ بمُكَذّبي الأنبياء بعد إتمام الحُجّة عليهم :

﴿ وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء ﴾[3] .

وكيف حَلَّ الموت بالجميع بصيحة واحدة فخسروا الدنيا والآخرة . إنه كذلك ، درسٌ فيه عبرة للمكذّبين بالحق .

بناءً على ذلك فإنه قد تمّ التذكير في هذه الفقرة من الآيات

---

(١) سورة يس : الآيات ٤٨ ـ ٦٠ .

(٢) سورة يس : الآيتان ٢٦ و ٢٧ .

(٣) سورة يس : الآية ٢٨ .

الشريفة ، بقيمة الجهاد حتى حَدّ الشهادة ، وبحرمان المكـذّبين بالحق ، وبجزاء الله لِكُلٍّ من المجموعتين .

الإمامة منصب إلهي رفيع

هذه السُّورة الشريفة تحتـوي ـ كما تقـدّم قولـه ـ على كل مبـاحث القـرآن المجيد الأسـاسية وبشكـل كامـل ، و « الإمامـة » هي واحـدة من هذه المباحث القرآنية المهمة، فالإمـام المعصوم، الـذي هو نـائب الله، واسمُه التكوينيُّ الأعـظم ، الذي يجمـع كلّ الأسمـاء ويضمّ كلّ صفـات الحق الجمالية والجلالية ، قد بيّن الله تعالى ، وفي آيـة شريفـة واحـدة ، مـدى إحاطـة الإمـام العلمية ومـدى قدرتـه ، والتي هي مظهـر للإحـاطـة العلمية ومدى القدرة الإلهية، يقول تعالى :

﴿ إنّـا نحن نحيي الموتى ونكتب مـا قـدّمـوا وآثـارَهم وكـلَّ شيء أحصيناه في إمام مبين ﴾(١) .

فالله عزّ وجلّ يُقدِّم الإمـام على أنه المحيط بعلم كلِّ شيء والحافظ لكـلّ شيء ، وعلى أنـه ، بكـل معنى الكلمـة ، نـائب الله . ويَعْتبـرُ أن روحه (أي روح الإمام) الشريفة تحيط بالعوالم كلّها وبالأشياء كلّها وهـو مـربّي الموجودات كلّها ، أي مـظهر لاسم الـرَّب ، كما جـاء في تفسير الآية : ﴿ وأشرقت الأرض بنور ربّها ﴾(٢) ، حيث أشيـر إلى الإمام بـأنه رَبّ الأرض .

حقـاً ، إن فهم الولايـة وفهم الوجـود بنـور الـولايـة ، اللّذين همـا أسـاس الإيمان ، لهـو نعمة مـا فوقهـا نعمة ، وقـد أوضح تعـالى بعبـارة

---

(١) سورة يس : الآية ١٢ .

(٢) سورة الزمر : الآية ٦٩ .

مقتضبة هي : ﴿ وكلَّ شيء أحصيناه في إمامٍ مبين ﴾ ، واقعَ الولاية هذا .

ملكوت كلّ شيء بيد القدرة الإلهية

﴿ فسبحان الذي بيده مَلَكوت كلِّ شيء وإليه تُرجعون ﴾[1] .

قلنا في بداية الحديث : إنَّ هذه السورة الشريفة تشتمل على العلوم الأساسية العائدة للمَبْدَأ والمعاد . والآن نقول : إنّ خلاصة مباحث هذه السّورة تختزنها الآية الأخيرة منها .

الملكوت اصطلاحاً : هو العالمُ المقابل لعالم المُلْك . أي بعبارة أخرى هو عالم الأمْر الذي يُذكَرُ في مقابل عالم الخلق ، والعالمان كلاهما مُلْكٌ لله[2] .

إنّ كل شيء في العالم ، له ذات وأمْر ، أيْ : ملكوت ، فبدون الملكوت لا يوجد المُلْك وبعبارة أخرى : لا يمكن أن يكون هناك عالم خَلْق دون عالم أمر .

يقول الشاعر « مير فندرسكي » ما معناه :

ما أجمل السماء وهذه الكواكب تزينها
وكلّ ما في الأعالي له في الأرض قرين بصورته

يشير الشاعر إلى الحقيقة الثابتة في علم المعقول والفلسفة الإلهية وهي أن لكلّ شيء (ملكوتاً) ، وكما أنّ عالم الخلق كلّه قد أوجَدَه الله ، كذلك فعالم الأمر مُلْكٌ لله . وإدارة عالم الأمر هي الأخرى بيد القدرة القادرة للواحد الأحد جلّ وعلا ، كما هو الحال بالنّسبة لعالم الخلق .

---

(١) سورة يس : الآية ٨٣ .

(٢) ﴿ الا له الخلق والأمر ﴾ (الأعراف : الآية ٥٤) .

يقول القرآن المجيد فيما يتعلّق بالدّواب : ﴿ ما من دابّة إلاّ هو آخذ بناصيتها ﴾[١] ، أي إنه تعالى مُتَكَفِّلٌ تدبير شؤونها .

مَرْجعُ الجميع ، أيضاً إلى الله

﴿ وإليه ترجعون ﴾ .

إنّ الإنسان يتّجهُ نحو الكمال . والغَرَض من المجيء إلى هذه الدنيا وتحمُّلِ الحياة الشّاقّة فيها ، ليس إلاّ لتحصيل الكمال . والذين لم يُفسِدوا ما عندهم من استعداد فطري ، فإن الله يهبهم الكمال[٢] ، عند موتهم ، حيث لقاء الله ورحمته[٣] ، والبعض الآخر يتمّ جبران نواقصهم في مواقف البرزخ والبعض الآخر يوم القيامة . وأخيراً فإذا لم يكن المسلك الإنساني قد فسد فإن الإنسان سيبلغ الكمال المطلوب في نهاية حياته ، أو في البرزخ ، أو في يوم القيامة ، إلاّ أولئك الذين ماتوا كفَرَةً أو مشركين حيث يكونون قد أفسدوا مسلكهم الإنساني فَغَدَوْا كالأنعام بل أسوأ من الأنعام[٤] .

« قلب القرآن » أفضل عنوان لهذا الكتاب

إنّكم ، بملاحظتكم لما تقدّم ، توافقون وتصادقون على أنّ أفضل وأنسبَ عنوان لهذا الكتاب ، الذي هو تفسير للسُّورة الشريفة « يسٓ » ، هو بالتأكيد « قلب القرآن » وذلك عملاً بقول المعصوم (ع) .

لقد تمّ تفسير هذه السُّورة الشريفة بأسلوب سهل وبيانٍ مفهوم

---

(١) سورة هود : الآية ٥٦ .

(٢) ﴿ الله يتوفّى الأنفس حين موتها ﴾ (الزمر : الآية ٤٢) .

(٣) ﴿ من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت ﴾ (العنكبوت : الآية ٥) .

(٤) ﴿ إن شرّ الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون ﴾ (الأنفال : الآية ٥٥) . ﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ (الأعراف : الآية ١٧٩) .

للجميـع ، وذلـك من نِعَمِ الله التي شملتْ آيـة الله الحـاج السيِّـد عبد الحسين دستغيب (دامت بركاته)[1] وهـو ، كعادتـه ، يُحدِث تنوُّعاً مثيراً في أبحاثه ، وذلك عندما يُرفق شرحـه للحقائق بِـذِكْر مثال أو قصة كمؤيِّد أو كشاهد على الموضوع، وهذا ممّـا يحول دون أيِّ مَلل من قِبَـل السامع أو القارىء ، وفي الوقت نفسه يجعله أكثر معرفة بعلوم دينه .

هـذه الأبحاث قُـدِّمت في شهر رمضـان المبارك لسنوات مضت ، وربما كان ذلك سنة ٩٣ أو ٩٤ (هـ . ق) والجـزء المتبقي منها أُلْقِيَ في شهر رمضان سنة ٩٩ (هـ . ش) ثم نُقل عن شريط التسجيل باختصار .

السيِّد محمّد هاشم دستغيب
٢٣ جمادى الأولى ١٤٠٠ هـ . ق .

(١) يبدو أن هذه المقدّمة كُتبت قبل استشهاد المؤلّف رحمة الله عليه .

« ١ »

بسم الله الرحمٰن الرحيم

سيكون عنوان بحثنا في شهر رمضان المبارك لهذه السنة سورةً من القرآن المجيد ، وذلك تمسك بالقرآن ، وفي الوقت عينه تلاوة له ، واستخلاص للعلوم والحقائق منه .

إنّ سورة « يس » هي قلب القرآن كما هو مضمون الروايات : « إنّ لكل شيء قلباً ، وقلب القرآن سورة « يس » .

لقد ذكرت أقسام التوحيد في هذه السورة المباركة ، وكذلك ما يتعلّق بالمعاد والبرهان عليه ، وخصوصيّاته ، والأمر نفسه بالنسبة للنبوّة ، والرسالة ، والصراط المستقيم ، وسبيل السعادة ، فقد نُبّه إليها كلها في هذه السّورة المباركة . رجاؤنا أن يمُنّ الله علينا بنورانية القرآن ، بنور نحمله معنا إلى القبر .

« يس » ، تعني : يا سيّد الرُّسُل

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم * يس والقرآن الحكيم ﴾ .

إن الحروف المقطّعة في مطالع بعض سُوَر القرآن والتي يبلغ مجموعها أربعة عشر حرفاً هي : الم ، حم ، المر ، طه ، حمعسق ،

يس ، كهيعص ، ق ، ن ، والتي تجمعها هذه العبارة : « صراط عليٍّ حقٌّ نمسكه » ترى ما هو القصد منها ؟ لقد نُقِلَتْ أقوالٌ مختلفة أفضلها هو أنَّ هذه الحروف هي رمْزٌ بين الله وحبيبه . . . هي حروف خاصّة ليس الغَرَضُ منها إفهام الغير وتفهيمُهُم ، بل هي رمزٌ بين القائل والسامع أي محمَّد (ص) ، أما غيرُ هذه الحروف فهي كي يفهمها الجميع .

وقد ذُكِرَت أيضاً وجوه أخرى . فقد جاء عن ابن عبّاس ، فيما يختصُّ بـ « يسٓ » ، أنها تعني : يا إنسان ، وذلك استناداً إلى لُغة طَيّ . وقد عُلّل هذا التفسير أيضاً فقيل إن المقصود به : يا أيها الإنسان الكامل ، أيّ : يا محمَّد (ص) . وهناك وجه آخر وهو أنَّ حرف « يا » هو حرف نداء ، وحرف « س » هو إشارة إلى الحرف الأوَّل من الاسم : سيِّد المرسلين أو سيِّد البشر . والشاهد على أنَّ « يسٓ » تعني : يا محمَّد (ص) هو أنه تعالى يقول بعدها : ﴿ إنّك لمن المرسلين ﴾ .

بناءً على ذلك ، فلنشرع بما يعود إلينا ، وإلاّ فإنّ « يسٓ » هي من الحروف المقطّعة وفواتح السُّور ، وعلمها الحقيقي عند الله .

القرآن : حاكم بالحق ، ومُحْكَم ، ومُعَلِّم حكمه

« والقرآن الحكيم » : الواو للقَسَم و« القرآن » هو مجموع هذا الكتاب المقدّس المئة والأربعة عشر سورة المباركة من « الفاتحة » حتى « الناس » .

« الحكيم » : إن للقرآن المجيد ألقاباً عديدة ذُكِرَت فيه نفسُه من جملتها « الحكيم » : إمّا أولاً : بمعنى الحاكم بين حقّ كلّ حديث وباطله ، فإذا أردت أن تعرف أن موضوعاً أو عقيدة ما صحيحة أم لا ، فارجع إلى القرآن ، يتضح لك ذلك .

وإمّا ثانياً : « الحكيم » : بمعنى المُحكَم ، فلا سبيل للباطل إليه

ولو بمقدار رأس إبرة[1] .

هو الحصن الإلهي الحصين ، وهو القرآن الذي حارسُه الله ذاتُه[2] ، إذا ما أراد أحدٌ التصرُّف فيه فإن الموت يأخذ قلبه[3] ، لذا فإن أربعة عشر قرناً قد انصرمت على نزوله ، ولا يزال هو نفسُه ، قرآن الأربعة عشر قرناً الخالية ، إنه لم يتبدّل طوال الأربعة عشر قرناً هذه . فمصاحف القرون الماضية لا تزال موجوده : المصحف الذي كتبه علي (ع) ، المصحف الذي كُتب بخط ابن مسعود في القرن الأوّل ، وبعده المصحف الذي كُتب بخط الإمام السجّاد (ع) وهكذا . . . وفي هذا المسجد الجامع بالذات ، المصحف الذي عثروا عليه بين أساسات المسجد وأعطونا إيّاه ، وهو لا يزال موجوداً حتى الآن ثلاثة أسْطُرٍ منه مكتُوبةٌ بالحِبْر وسطرٌ واحد منه مُذَهَّب . تاريخه يعود إلى سنة ٨٠٠ (هـ . ق) أي إنه يعود لأكثر من سبعمئة سنة خَلَتْ ، وسائر المصاحف إذا ما راجعتموها وجدتم أنها جميعها واحدة .

هذا القرآن هو غير التوراة والإنجيل ، فاليهود والنصارى لا يمكنهم أن يدّعوا أنّ هذه الكتب سماوية أو أنها وحي من الله . فهم بعد مُضِيّ مئة عام أو مئة وخمسين عاماً على المسيح ، جمعوا المحفوظات والمخاطبات والمكاتبات والمحادثات وأسموها الإنجيل ؛ إنه إنشاء أفراد وُجدوا بعد مُضِيّ قرن أو قرون على المسيح .

يقولون : إن مئة وخمسين إنجيلاً جرت كتابتها ، وإنهم جمعوا بينها ثم اختاروا منها هذه الأناجيل الأربعة .

وثالثاً : هو أنّ « الحكيم » تعني : صاحب الحكمة . فأنت بقدر ما تقرأ القرآن ، بقدر ما تجد فيه المعرفة والحقيقة ، والمواعظ والمباحث

---

(١) ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾ (فصلت/٤٢) .

(٢) ﴿ إنّا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون ﴾ ، (الحجر/٩) .

(٣) ﴿ لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ ، (الحاقة/الآيتان ٤٥ و ٤٦) .

المطابقة للفطرة وأسباب الهداية ، وبالقرآن يمكن القضاء على مرض الجهل . إنه (أي القرآن) مُعَلِّمُ الحكمة ، يجعل قارئه حكيماً ، وكل من صار عالماً بمعاني القرآن أصبح حكيماً .

القَسَم ، لتأكيد الموضوع الحَقّ

الواو هنا للقَسَم، أي : أقسم بالقرآن الحكيم، أولاً: لماذا القسَم؟ وثانياً : لو شاء الله أن يُقْسِم أمام المشركين ، فأولئك لا اعتقاد لهم بالقرآن حتى يُقْسِم لهم به ، فما وجه ذلك ؟

جواب السؤال الأول : يجري عادة في الحوار ، أن يورد المتحدّث برهاناً على قوله لمن يحاوره ، فإن لم يقتنع ، وأراد أن يؤكّد له ما يقول ، فإنه يُقسِمْ ، علّ محاوره يقتنع بقوله . إنّ المتحدِّث هُنا رحيم ، يريد أنْ يقتنع مخاطَبه ، لذا فهو يؤكِّد ما يريد قوله بالقَسَم .

إنّ رب العالمين ، وحتى يهدي هؤلاء البشر ، أتى ببراهين عديدة على التوحيد والمعاد والصراط المستقيم ، وعلى رسالة رسوله الكريم ، وهو هنا يُقسم بحق هذا القرآن أنّ محمداً رسول ، لا يقول شيئاً من عنده ، وإنّ القيامة حق ، حتى لا يتخلى السامع عن التمسك بأذيال محمّد (ص) ، بل لكي تلين هذه القلوب القاسية بواسطة القَسَم،ثم لكي يجعلنا ندرك عظمة المُقْسَم به ، فالقرآن عظيم إلى حدّ أنه موضع قَسَم الله عزّ وجلّ .

القسم بمقدّسات المشركين هزء وسخرية

أمّا ما هو وجه القسم بالقرآن أمام المشركين ، فجوابه : وهل يُمْكِنُ القسَمَ بمقدّسات المشركين ؟ مثلاً أن يُقسم بالصنم (هُبَل) ، إنّهم أنفسَهم يدركون أن ذلك استهزاء بهم ، فلا شأن للصنم هنا حتى يتمّ القسم به ، في الوقت الذي يكون الغرض من قسمك تأكيد ما

نقول ، فأنت الذي لا اعتقادَ لك بالصنم كيف تـذهب إلى عابـد الأصنام وتقول : قسماً بهـذا الصّنم ؟ فهو إضـافة إلى عـدم تصديقـك ، سيحمل قسمك على مَحْمَـل السُّخريـة والاستهـزاء أيضـاً ، فكيف إذاً ، يمكن القسم بمقـدسات عبـدة الأصنام ؟ حتّى لـو كـان الغـرض جلب الانتباه فقط ، فهو لن يحقّق المطلوب .

إنّ القرآن ، كلام رب العـالمين ، وهو أعـظم من كل شيء ، لـذا فهو يقسم به .

ولهذا فعلى المؤمنين أن يحافظوا على احترامهم للقـرآن ما وَسِعَهم ذلـك ، فيدعـوا الكلام إذا قـرىء القرآن وينصتـوا[1] ، فـإذا قـرأت أنت القـرآن فكن مؤدبـاً ، ولا تَمُـدّنَّ رجليك بـاتجـاهــه ، لأنـه كـلامُ ربّ العالمين .

إن للقـرآن أعدالاً أيضـاً ، فعترة محمَّـد (ص) هـم الثقـل الأصغـر المقابل للقـرآن وهو الثقـل الأكبر ، وهـم علي (ع) وأبناؤه الأحَـدَ عشر ، كمـا تنصّ الروايـة الشـريفـة : « إني تـارك ، وفي روايـة : مخلّف فيكم الثقلين كتـاب الله وعترتي ، كهـاتين لا كهاتين » . وقـرن سبـابَتي يـديـه المباركتين إلى بعضهما وأردف : « لن تضلّوا مـا تمسّكتم بهما ، وإنّهمـا لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض »[2] .

❊ ❊ ❊

---

(1) ﴿ وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلّكم ترحمون ﴾ (الأعراف / ٢٠٤) .
(2) سفينة البحار/ج : ١ /ص : ١٣٢ .

« ٢ »

بسم الله الرحمٰن الرحيم

﴿ يسٓ * والقرآن الحكيم * إنّك لمن المرسلين * على صراط مستقيم ﴾ .

أسماء رسول الإسلام في القرآن المجيد

رُوِي عن كشّاف الحقائق جعفر بن محمَّد الصادق (ع) أنه قال : لقد أتى الرَّبُّ جلَّ جلاله على ذكر جدي رسول الله (ص) في القرآن المجيد . ذكره أوَّلاً باسم محمَّد في الآية الشريفة : ﴿ ما كان محمَّد أبا أحدٍ من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾[1] . وثانياً باسم أحمد إذ يقول : ﴿ ومبشّراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴾[2] ، ثالثاً : باسم عبد الله حيث يقول : ﴿ وأنّه لمّا قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً ﴾[3] . والاسمان الرابع والخامس من أسماء رسول الله (ص) : « طه » و « يسٓ » .

لماذا يكون المراد بـ « طه » محمداً ؟ لعلّ وجه الشّبه : يا طالب الشفاعة والهداية ، فـ (يسٓ) مثلاً ، تتناسب و « يا سيِّد المرسلين » . . .

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٤٠ .

(٢) سورة الصف : الآية ٦ .

(٣) سورة الجن : الآية ١٩ .

« يا سيد البشر » . أو أنّ « يسٓ » نفسُها تعني الإنسانَ الكامل ، ويقصد به محمَّد (ص) .

على كُلّ حال : يسٓ ، قَسَماً بالقرآن الذي يضمّ الحكمة ، أي : الأمور الجديرة بالمعرفة كافّة ، موجودة في هذا القرآن : الحقائق والمعارف ، والمواعظ والنصائح موجودة في هذا القرآن . ويجوز أن تكون « الحكيم » صفة باعتبار صاحب القرآن . أي : القرآن الذي هو من عند الله الحكيم .

بطرفة عين صار معلّماً لمئة معلّم

﴿ والقرآن الحكيم إنّك (يا محمَّد) لمن المرسلين ﴾ .

المشركون كانوا ينكرون رسالة خاتم الأنبياء ، وربُّ العالمين في هذه الآية المباركة يُقْسم بالقرآن ، في الوقت الذي يكون فيه القرآنُ نفسه شاهد صدق ، على رسالة محمد (ص) ؛ وهذا غاية اللُّطف في هذه الآية الشريفة إذ لو دقّقتم لوجدتم أنه تعالى أقْسَم ، وفي الوقت عينه أقام الدليل والبرهان ، فالقرآن نفسه شاهد على نبوّة محمد (ص) .

ذلك أنّه بنص القرآن المجيد ، وباتفّاق المؤرخين ، ومن الضروريّات عند المسلمين ، أنّ محمداً (ص) لم يذهب إلى مدرسة ، ولم يقرأ كتاباً ، ولما يأخذ بيده قلماً ، ولم يلقَ أستاذاً[1] ، ثم إذا به يأتي بهذا الكتاب الحافل بعلوم الأوّلين والآخرين ، مما يحتاج إليه البشر من العلوم على أنواعها . فهل يبقى هناك موضع شكٍّ في أن القرآن من عند الله ؟ لقد شهدنا أنه عاش في مكة المعظمة أربعين سنة لم يبارحها ، ولم يأت من مكانٍ آخر ، فهل يستطيع احدٌ أن يدّعي أنه لقي استاذاً ، أنه ذهب إلى مدرسة ؟ إذاً فهذه العلوم ليست منه قطعاً ، ولا بُدّ أنها من

(١) ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطّه بيمينك ﴾ (العنكبوت/٤٨) .

الله ، وكم أجاد الشاعر حين قال في هذا المعنى :

نفسي لمن لم يقرأ العلم الفدى
لكنّه فاق الأنام وأرشدا

لم يدخل « الكُتّاب » يوماً ، حينما
اضحى المعلّم للألوف على المدى

لا ليس مِا اجترح الرسول بسحره
ربّ السما أوحى إليه وسدّدا

فيا أسياد البلاغة ، يا من تلقيتم العلوم وأنواع الفلسفة ، هل بمقدوركم ـ ولو تضافرتم جميعاً ـ أن تأتوا بسورة من مثل هذا القرآن ؟ ![1] .

المعجزة الخالدة للدين الخالد

كان كلّ رسول يأتي معه بمعجزة ، فإذا ما مات راحت معجزته معه ، فموسى (ع) مثلاً ، كان يلقي العصا فتتحوّل إلى أفعى ، أو يضربها بالحجر فتنبجسُ منه اثنتا عشرة عيناً ؛ وعيسى (ع) كان يُحيي الموتى ، وبعد صعوده إلى السماء ، ذهبت معجزته معه . أما محمَّد (ص) فمعجزته باقية على حالها حتى يوم القيامة ، وتلك هي القرآن ، ولأنّ دينه باقٍ حتى يوم القيامة ، فيجب أن يبقى الشاهد على صدقه معه ، لقد كان من أتى بالقرآن مبعوثاً من قِبَل الله ، إذ يستحيل على إنسان أمّي أن ينشىء آية واحدةً بهذا القدر من الفصاحة والبلاغة ، فكل آية فيه إنّما هي معجزة تدل على حقّانيّة خاتم الأنبياء (ص) .

مَنْ هو المُرْسَل ؟ هناك فرقٌ بين النبيِّ والمرسَل . المرسل أخصُّ

---

(١) ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ (الإسراء/٨٨) .

من النبيِّ ، فالنبيُّ بمعنى المعطي والمقدِّم للنبأ ، والرسولُ والمرسَلُ بمعنى المبعوث .

في رواية أن الإمام الباقر (ع) سئل عن الفرق بين الرسول والنبي ، فقال (ع) ما مؤدّاه : النبيُّ هو الذي يسمع الصوت ولكنه لا يرى المَلَك ، فهو يتلقّى الوحي من الغيب . والرسول هو ذاك الذي يرى المَلَك واسطةَ الوحي ، فهو يَسْمع وَحْيَ الله ويؤمَرُ بأن يهدي الناس ويدعوهم إلى الله ، هو مبعوث ، هو رسول الله . فالنّبيُّ أي المتلقي للوحي وهو أعَمّ من أن يكون معه أمرٌ بالدعوة أو لا يكون .

عن أبي ذرّ (ره) قال : قلت يا رسول الله ، كم النبيّون ؟ قال :

« مئة ألف وأربعة وعشرون ألف نبي » .

قلت : كم المرسلون منهم ؟ قال :

« ثلاثمئة وثلاثة عشر ، جمّاً غفيراً »[1] .

﴿ على صراطٍ مستقيم ﴾ : أي : خبراً بعد خبر باستمرار ، حقاً إنّك لَمِنَ المرسلين من جانب الله لهداية ودعوة الخلق . إضافة إلى ذلك ، فأنت على الصراط المستقيم ، وكذلك من اتّبعك فهو أيضاً على الصراط المستقيم .

الصراط المستقيم في الدنيا والآخرة

بمناسبة هذه الآية لا بُدّ أن يُعقَدَ بَحْثٌ عن الصِّراط . إنَّ الصراط في الدنيا ويوم القيامة موضوع نُجريه على ألْسِنتنا كلّ يوم عدّة مرّات : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ .

ما الفرق بين الصراط في الدنيا الذي نتحدث عنه لقولنا : ﴿ اهدنا

---

(١) سفينة البحار ج ٢ ص ٥٦٥ .

الصراط المستقيم ﴾ ، والصراط في الأخرة الذي يجب الاعتقاد به ؟

أوّلاً : الصراط : تعني الطريق ، وكذلك إذا ما بلغنا أيَّ شيء ، فما كان الوسيلة لبلوغه يُسمُّونه طريق ذلك الشيء وصراطه ، وذلك الشيء الذي يُتوسَّل بلوغه ، هو الهَدَف . والهَدَف مرَّة يكون أمراً مكانياً . . . تريدون أن تذهبوا إلى مكَّة المعظَّمة ، يقولون صراط مكَّة من هذا الطريق . وإذا كان الهدَفُ أمراً معنوياً فطريقه ـ قطعاً ـ يتناسب معه . مثلاً : الشخص المريض طريق شفائه هو الطبيب وتناوُل الدواء . أمّا الحِمْيَة فهي صراط صِحَّة البدن أو لنأخذ التجارة مثلاً ، فواسطها السوق والدّكَّان والبضاعة والبيع والشراء ، أو أنّ أحدهم يريد أن يُصبح طبيباً ، فسبيله إلى ذلك الدَّرْس والتعلُّم في كُلِّية الطِّب . وهكذا .

التوحيد ، الصراط المستقيم للقرب من الله

إذا كان هدفك الأساسي القرب من الله والسعادة الخالدة، وبلوغ الجنّة والنجاة والدرجات ، فما هو السبيل إلى ذلك ؟ ما هو الطريق الذي يتوجَّب عليك سلوكه حتى تصل إلى الجنّة وقرب ربِّ العالمين ؟ لا شك أنّ لذلك طريقاً ، إذ لا بدّ من وجود طريق تؤدّي إليه ، فلكل شيء طريقٌ وواسطة .

فيا من هدفه قرب ربِّ العالمين ، والمعارف ، ودرجات آل محمَّد (ص) ، إليك الطريق ، فقد دلَّنا الله على الصِّراط المستقيم في هذه السُّورة المباركة بالذات ، سورة « يسْ » إذ قال : ﴿ وأن اعبدوني هذا صراطٌ مستقيم ﴾[1] ، إن التوحيد هو الصراط المستقيم . أن يُعبد الله فقط ، وليس غيره مهما كان هذا الغير .

فالذي يمشي على طريق معوجّة لن يبلغ مقصَده ، تماماً كمن

---

(١) سورة يس : الآية ٦١ .

يقترف الذنوب أو يتجبّر ، فهو قد انحرف عن صراط العبوديّة ، وأعطى ظهره لمقصَدِهِ ، حينَ ابتعَدَ عن الصراط المستقيم . المرائي أيضاً يُسقطه رياؤه في طريق جهنم ، فمحالٌ أن يسلك أحدُ سبيل المَشْرق ثم يصبح قريباً من المغرب ، أن يُذنب أحداً ثم يُصبح قريباً من الحسين (ع) ، أن يزرع أحدُ بطّيخاً ثم يحصد حنظلاً ، أو أن يزرع حنظلاً فيحصد بطيخاً[1] .

في أيِّ صراطٍ أنت ؟ في صراط ذاتك ؟ في صراط النفس والهوى والشيطان ؟ أم في الصراط الذي يوصلك إلى محمَّد والجنَّة وقرب رب العالمين ؟ ﴿ **أن اعبدوني هذا صراطٌ مستقيم** ﴾ . الصدق والإخلاص لله ، هذا هو الصراط المستقيم .

وفي الصلاة حيث عليك أن تقرأ ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم** ﴾ عشر مرّات يوميّاً على الأقل .

إلهي أعوذ بك أن أكون مصداق قولك الكريم : ﴿ **الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً** ﴾[2] .

فمن ابتلي بالجهل المركَّب يتصوَّر أنّه مسرعُ إلى الجنَّة لكنه يجهل أنه يرجع القهقرى وينحدر إلى الهاوية .

الذنب هو السقوط عن صراط العبوديَّة

ما أكثر ما يكون الشخص في انحدار دائم على أثر ذنبٍ متواصل كالغضب مثلاً ، حيث تلاحقه آهة المظلوم على الدَّوام ، لا سبيل له إلاّ أن يلتمس ويقول : إلهي ، أرجعني إلى خط العبودية ، التوبة التوبة ، ما أكثر ما جاء في الأخبار وما قاله القرآن : التوبة . . . توبوا فوراً . صحيح أنّ لكلّ منّا زلّته ، إلاّ من عصمه الله ، غير أن عليه أن يعود فوراً دون

---

(١) ﴿ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ (البقرة/ ٢٨٥) .

(٢) سورة الكهف : الآية ١٠٤ .

إبطاء . عُدْ إلى خط العبوديَة ، انحرف لسانك على حين غرّة فَقُلْتَ فحشاً ، أسرع واصلح ما أفسدته ، استرض الذي وقع عليه الفحش ، اطلب منه أن يصفح عنك ، حتى يعفُوَ الله عنك ، أَسْتغفرُ الله ربي وأتوب إليه .

إن الإنسان ينحدر عن الصراط الحق مع كل ذَنْب ، وسيكون الأمر غداً يوم القيامة كذلك ، فالسُّقطات على أنواعها عن طريق العبوديَّة في الدنيا سوف تؤدي إلى السقوط في النار في الآخرة .

تماماً كالفراشة المخوّمة حول المصباح ، تحسب أنّ نار المصباح هي باب النجاة[1] . كذلك الإنسان إذ يتصوّر الشهوات كالطعام واللباس والشهوة الجنسية وسائل للسّعادة وكما تنتهي الفراشة المحوّمة إلى السقوط ، سينتهي الإنسان الذي شَغل نفسه بالشهوات كذلك[2] .

كيف ينال الغم هذه الأمة وأنتم حُماتُها ؟

غير أنّ هذا الحديث النبوي الشريف يتضمّن بشارة تقول بلسان النبي (ص) [3] :

لذا ، وكي تتمكّنوا من زيادة توسُّلكم بالرسول الأكرم ، عليكم بالمواظبة على الصلاة على محمَّد وآله (ص) ، خاصة في هذا الشهر المبارك ، شهر رمضان ، فإنه يضعكم في هذه الدنيا على الصراط المستقيم .

---

(١) « وانكم تتهافتون في النار كتهافت الفراش ، وأنا آخذ بحجزتكم » (سفينة البحار/ج :٢ / ص : ٢٨) .

(٢) ﴿ زُيِّنَ للنّاس حبُّ الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضّة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسنُ المآب ﴾ (آل عمران / ١٤) .

(٣) الحديث غير مذكور بحرفيته (المترجم) .

فيا من ذرفت الدموع من أجل الحسين ، إنّك ببركة الحسين تُوَفّق للتوبة ، وتخرج من ظلمات الذنب إلى نور التوبة[1] ، وكم من أناس اعرفهم أصلحوا زلّاتهم ببركة التوسُّل بأهل البيت (ع) ووفّقوا للتوبة .

والصراط يعني ظاهرياً ذلك الجسر الذي ينصب يوم القيامة فوق جهنّم ، ويختلف وصفه باختلاف الأفراد ،ويكون بالنسبة لبعضهم أدقّ من الشعرة وأحدّ من السيف .

علي (ع) قسيم الجنة والنار

جاء في رواية عن رسول الله (ص) حول المقام المحمود [المقام المحمود الذي نطلب الوصول إليه في زيارة عاشوراء[2] ، وهو جانبٌ من المحشر حيث يجتمع الأنبياء والأولياء والصالحون ، وحيث سيِّد الجميع محمَّد (ص)] أنَّ منبراً من نور له ألف درجة ، على الدرجة الأولى منه خاتم الأنبياء محمَّد (ص) وعلى الدَّرجة الثانية أسد الله الغالب علي بن أبي طالب (ع) وعلى سائر الدرجات سائر الأنبياء بحسب مراتبهم ، وعند قاعدته جميع المؤمنين الذين وفّقوا للوصول إلى ذلك المكان . في هذا المقام المحمود حيث يحمد رسول الله (ص) ربّه ويثني عليه بنحوٍ لا سابق له ، يأتي مَلَك في أفضل صورة ويقف مقابل الرسول (ص) ويقول : أنا رضوان خازن الجنّة . ويبرز مفتاح الجنّة ويقول : أنا خازن الجنّة ، وإنّي لمأمورٌ أن أقدِّم مفتاح الجنّة لكم . ثم يأتي مَلَك في صورة بالغة المهابة ويقول : أنا مالكُ جَهَنّم ، وأنا مأمور أن أقدِّم لكم مفتاح جهنّم ، ويذهب بدوره فيقول رسول الله (ص) : يا علي (ع) خُذ المفتاحين فأنت « قسيم الجنّة والنار »[3] .

---

(١) « الله ولي الذين آمنوا ، يخرجهم من ظلمات الذنوب إلى نور التوبة » .

(٢) « واسأل الله أن يبلّغني المقام المحمود » . (زيارة عاشوراء) .

(٣) بحار الأنوار / ج : ٣ .

يقول رسول الله (ص) : وأنا بدوري أقف على أوَّل الصراط وكل من كانت معه براءة من علي (ع) جاز الصراط بسعادة وهناء .

ورد في الحديث الصحيح :

« ما خلق الله عبداً من عباد الله ، ملكاً ولا نبيّاً ، إلاّ ينادي : ربِّ نفسي نفسي ؛ وأنت يا نبيّ الله تنادي : أمّتي أمّتي »[1] .

وفي خبر عن (خصائص الشيخ) : أن رسول الله (ص) يروي للزهراء (ع) ما يجري على الحسين (ع) حتى يصل إلى الحديث عن قبر الحسين (ع) ، فيقول : إنّي لأشفع غداة يوم القيامة لِمَن زاروا قبر الحسين ، والجملة التي تبعث على الأمَل - كما يقول الشيخ - هي أنه (ص) يقول : إنّي لأبحث عنه بنفسي فأجده فأتبعه وأنجيه[2] ، وإنه لَينجو ولو كان واقعاً في هُوَّة .

فيُسأل : أوَله علامة ؟ يقول : نعم ، مكتوب على جبهته بقلم النُور : هذا زائر قبر الحسين (ع) .

(١) سفينة البحار / ج : ٢ / ص : ٢٨ .
(٢) الخصائص الحسينية ، الشيخ جعفر الشوشتري .

« ٣ »

بسم الله الرحمن الرحيم

العزّة المطلقة لله

﴿ تنزيلَ العزيز الرحيم ﴾ تنزيـلَ منصوبـةٌ على المفعوليّـة (عامـل نصبهـا من مادَّة مَـدَحَ) أي : إن القرآن الـذي أُنزل إنمـا أنزلـه إله عـزيز وحكيم ، لقد ورد هنا اسمان من الأسماء الحسنى : العـزيز من العـزّة ، بمعنى الغَلَبة من الغالبيّة والقاهريّة ، الله الغالب على الكُلّ .

والرحيم من الرَّحمة والرأفـة ـ والتفسير المنـاسب هو : لتعلمـوا أنّ إلهكم ليس لـديه أيُّ شكـل من أشكـال الحـاجـة إليكم وإلى عبـاداتكم وهدايتكم على الإطلاق .

« لـو أنّ الكـائنـات بـأجمعهـا كفـرت ، لمـا مسّ ذلـك حـاشيـة كبريائه » .

العزيز المطلق هو الله ، فلا وجود للحـاجة في هـذا المحضر على الإطلاق ، فلو آمن الجميع وأطاعوا ، لمـا أضافـوا شيئاً إلى ملكـه ؛ ولو كفر الجميع وعصوا ، لما أنقصوا شيئاً من ملكه ؛ وكلّ ما يدعـو إليه عـزّ وجلّ إنما هو من باب رحمته ، لأنه لـطيف بعباده ولأنـه رحيم بهم ، فقد أنزل لهم القرآن بـرحمته ورأفتـه كي يجنّبهم الهلكة ، وكي لا يغفلوا عن سعادة أنفسهم .

وإلاّ فلو شاء أن يعاملهم باسم (العزيز) لكان مقتضى عزّته عدم الاهتمام بهم ، ولكن ، لأنه رحيم ، لم يَكِلْهم - وطبقاً لرحمته - إلى أنفسهم ، بل وهبهم توفيقه . هذا القرآن الحكيم المُنْزَلُ هو تنزيل إلٰهٍ عزيز ورحيم أيضاً ، بعث برحمته محمّداً (ص)[1] .

لقد أرسَل تعالى رحمةً عامَّةً باسم محمّد (ص) لتشمل الجميع ، لكنّ البعض أبوا الاستفادة من هذه الرحمة ، فظلموا أنفسهم وأصيبوا بالحرمان .

لتنذر بما لم يُنذروا

﴿ لتنذر قوماً ما أُنذر آباؤهم فهم غافلون ﴾ اللام لام العلّة (السبب) أي : إنّ الله العزيز الحكيم أنزل القرآن لتنذر به هؤلاء الناس ، هؤلاء القوم ، أهل مكة وجزيرة العرب .

« ما أنذر » لها وجهان : الوجه الأوّل أن تكون « ما » ما النافية لا الموصولة فيكون المعنى : ليتمّ إنذار هؤلاء الذين لم يتمّ إنذار آبائهم ، (لعلّها إشارة إلى زمان (الفترة) إذ إن الزمان الممتد من بعد عيسى بن مريم إلى عهد رسول الله (ص) يُسمونه (زمان الفترة) حيث لم يبعث رسول خلاله ، طبعاً كان هناك نوّاب وأوصياء المسيح ولم تكن الأرض خالية من حُجّة إلاّ أنّه لم يكن هناك من نبي مرسل يوحى إليه يأتي برسالة من قبل الله ، وذلك لفترة تقرب من ستّمئة عام) ، فأرسلناك لتنذرهم إذ لم يُنذر أباؤهم في زمان (الفترة) .

الوجه الثاني أن تكون « ما » موصولة ويكون المقصود الآباء ما قبل عيسى ، ويكون المعنى : لتنذرهم بما أنذر به آباؤهم ، آباؤهم البعيدون وأجدادهم السابقون الذين أنذرهم السلف من الرسل .

---

(١) ﴿ وما أرسلناك إلاّ رحمةً للعالمين ﴾ (الأنبياء / ١٠٧) .

مَحَلُّ الكلام ، جُملة « لتنذر » . لقد ذكر الله تعالى تكراراً في القرآن المجيد الغاية من بعثة الأنبياء ، خصوصاً خاتمهم ، والغاية من نبوّة وبعثة الأنبياء يتضمّنها قوله تعالى : ﴿ رسلاً مبشرين ومنذرين ﴾ و ﴿ بشيراً ونذيراً ﴾ ، أي : إن الأنبياء كانوا مبشرين ومنذرين ، يبشرون ـ من جانب الله ، أهلَ الإيمان والتقوى والعمل الصالح ، وكلَّ إنسانٍ أطاع الله ـ بالسعادة الأبدية ، والنِّعم الإلهية .

لقد جاء محمَّدٌ (ص) ليبشّر كلَّ مؤمنٍ يعمل الأعمال الصالحةَ أنَّ أجراً عظيماً في انتظاره[1] : بُشراكَ إذ تهبط عليك الملائكةُ وقتَ الاحتضار فتبشّركَ ألّا تخاف ولا تحزن ؛ بشراكَ بالجنّة التي وُعدت بها[2] .

إنَّ مَلَك الموت أرأف بك مِن أمك ، فأبشر أيُّها الصائم بالمغفرة الإلهية ولكَ الفرحة .

الفرحة عند الإفطار فرحتان : هي أولاً لذّة روحيّة ، فلو أنَّ إنساناً أفطر وهو حاضر القلب لاستشعر بنفسه اللذّة الروحيّة ، والثانية عند الله أثناء حضور الموت[3] ، لقد أطعت أمر الله فامتنعت عن الطعام والشراب[4] ، وإنَّ إلهك لشكور ، وهو لا يَغُضّ طرفاً عن أصغر عملٍ تعمله .

بشارة أخرى أقدّمها للشباب الأعزاء : كلُّ من وقعت عينه على امرأةٍ أجنبية فلم يعاود النظر إليها ، بل رفع رأسه أو خفضه ، فإن الله

---

(١) ﴿ وبشّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أنّ لهم أجراً حسناً ﴾ (الكهف/٢) .

(٢) ﴿ تتنزّل عليهم الملائكة ألّا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنّة التي كنتم توعدون ﴾ (فصلت/٣٠) .

(٣) « للصائم فرحتان : فرحة عند الإفطار ، وفرحة عند لقاء الله » (سفينة البحار / م : ٢ /ص : ٦٤) .

(٤) ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية ﴾ (الحاقة / ٢٤) .

يمنحه على الفور شيئين : يذوق أولاً « برد الإيمـان » أي إنه يحسّ اللّذة الروحيّة لعمله ، والثاني الفرح ساعة المـوت ، إذ تصحبه إحـدى الحور العين في القبر والبرزخ ، إنّها نفسها تلك الحـوريّة وقـد ادُّخِرَت لـه ذلك اليوم[١] .

وجـاء محمد (ص) نـذيـراً ، فحـذار يـا تـارك الصـلاة ، لأنّ مَلَك الموت سيكون عدوُّك عند الاحتضار ، وتموت على غير الإيمان ، فـأنت والكافر سيّان ، وخمسة عشر بلاءً في انتظارك[٢] .

وحذار يا آكل الرِّبا ، فسترد المحشـر ببطنٍ مَـلأى بالنـار وحذار يا آكـل مال اليتيم[٣] فـأنت إنّما تـأكل نـاراً ، أنتَ لا تحسّ طعم النار التي تأكلها الآن ، غير أن طعمها الحقيقي سيتضح لك بعد الموت .

حذارِ أيها الظالم ، فالحقـوق التي هضمتها ستسـتردُّ منك ذرّة إثـر ذرّة ، فإن كان لديك حسنـات أخذت منـك وأعطيت للمـظلوم ، وإن لم يكن لديك حسنات ، أخذوا من ذنوب المظلوم وأضـافوهـا إلى أوزارك ، وزاد بها وبالك ، حتى يظهر العدل الإلهي[٤] .

بالمناسـبة فالرسول (ص) لا ينذر العرب فحسب ، فهو (ص) نذير للنـاس كـافـة إلى قيـام يـوم الـدين[٥] ، وعليكم أن تبلغـوا قمّـة الشـوق لبشاراته وأن تخافوا إنذاراته .

---

(١) « من نظر إلى امرأة فرفع بصره إلى السماء أو أغمض عينيه ، لم يرتـد إليه بصـره حتى يزوجه الله من الحور العين ويُعقبه الله إيماناً يجد طعمه » . (مرآة الكمال / المامقاني) .

(٢) حـديث شريف وقـد ذكر شـرحه بنحـو مفصّل في المجلّد ٢ من الـذنوب الكبيـرة في ذنب ترك الصلاة فليرجع إلى هناك .

(٣) ﴿ إنّ الـذين يأكلون أمـوال اليتامى ظلمـاً إنّمـا يـأكلون في بـطونهم نـاراً وسيصلون سعيراً ﴾ (النساء / ١٠) .

(٤) (بحار الأنوار ، المجلد الثالث) .

(٥) ﴿ وما أرسلناك إلّا كافة للناس ﴾ (سبأ / ٢٨) .

معنى قبول الإسلام هو أن تدفعك بشارات محمّد (ص) إلى العمل كما تدفعك إنذاراته إلى ترك الذنوب ، وإلاّ فمن يقول : (الإسلام ديني ، القرآن كتابي) إنما يقول الكذب ! فاعرف موقعك ، وانظر هل أنت من أهل الإسلام حقاً ؟!

من بشارات رسول الإسلام القيام في السّحر ، فَقُمْ قبل ربع ساعة أو قبل نصف ساعة من تناول السحور ، ولا تترك الركعات الإحدى عشرة لصلاة الليل ، لا تترك الاستغفار وقول العفو[1] .

الترهيب كثير والخائفون قليل

هنا يقول تعالى « لتنذر » . البعض يقولون من خلف ظهري : ما يفتأ يتحدث عن الموت ، ما يفتأ يخيفنا ! حسناً ، سأجيب بما أجاب به الشيخ الشوشتري ، يقولون : الشيخ يُخوِّف الناس كثيراً ، فكان يقول : نعم الشيخ يخوِّف ، ولكن ، مَن منكم الذي خاف ؟ هل تعرفون أحداً لم ينم الليل من الخوف ؟ هل سالت دموعكم واحترقت قلوبكم من غصص الآخرة وعالم البرزخ فتركتم كل ذنبٍ أذنبتموه ؟!

لقد قست القلوب ، وأخذتها الغفلة ، وإلاّ فالقلب لو سَمِعَ لكان اهتز ، ولكنكم غالباً ما تجلسون تحت المنبر لتقطيع الوقت أو طلباً للثواب ، أمّا من يريد حقاً أن يتّعظ ؟ من يريد أن يجد سبيل النجاة ، فقليل .

عُتْبة يرتجف لسماعه القرآن

اسمعوا هذه الرواية : تضايق مشركو مكّة من رسول الله ، فشكوا أمرهم إلى أحد كبارهم ويدعى عتبة ، وكان أستاذاً في الفصاحة ،

(1) ﴿ والمستغفرين بالأسحار ﴾ (آل عمران / ١٧) ﴿ وبالأسحار هم يستغفرون ﴾ (الذاريات / ١٨) .

وأجمعوا أمرهمْ على أن يبعثوا به إلى الرسول (ص) كي يجد لهم سبيلاً لمناجزة الرسول وإسكاته .

قال عتبة : أنا أذهب إليه وحدي فأرى ماذا يكون ، ثم جاء إلى الرسول (ص) وقال له :

هلا قرأت لي بعضاً من أشعارك ؟!

فقال رسول الله (ص) : أنا لست من أهل الشعر !

قال عتبة : اقرأ كلامَك الذي ما تفتأ تردده !

قال رسول الله (ص) : إنّه ليس كلامي ، بل هو كلام رب العالمين .

قال : حسناً . . . أسمعنيه .

شرع القارىء في قراءته ، وما أدراكم من القارىء ! إنّه رسول الله (ص) ، أما عتبة ، فراح بكل غلظته يصغي إليه مأخوذاً ، تلا عليه رسول الله (ص) سورة (حم الدخان) ، وما أن بلغ في تلاوته هذه الآية ﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عادٍ وثمود ﴾[1] ، حتى راح عتبة مع كل جبروته يرتجف ، ثم ما كان منه إلاّ أن رفع يده أمام فم الرسول (ص) قائلاً : أسألك بحق الرحم التي بيننا إلاّ ما كففت !!

كافر متجبّر كهذا يهزُّه القرآن إذ ينقل خبراً مخيفاً ، وعندما عاد إلى قومه من المشركين شمِتَ به أبو جهل والآخرون قائلين : وهل آمنت بمحمَّد ؟! قال : لا ، ولكن كلامه ليس شعراً ولا خطابة ، ولا هو من كلام البشر . إنّه يضرم النار في الأحشاء !

---

(١) الآية هي الثالثة عشرة من سورة (حم السجدة) او (فصّلت) ، وليست في سورة (حم الدخان) فاقتضى التنويه .

أردت بهذه الرواية أن أصل إلى (الإنذار) فمحمّد (ص) قد رفع النذير إلى يوم القيامة ، فهل من مستمع ؟[1] ، ما أكثر ما أتى به من آيات الإنذار ! آيات تتحدث عن عذاب جهنم[2] ، وآيات تتحدث عن خزنة جهنّم الغلاظ الشداد[3] .

ولكن ، فواعجباً لقلوب تزداد قسوة ! فإذا قرأ أحدنا القرآن لا يقرأه بغرض التأثر ، اقرأوا القرآن بتدبّر وتفكّر لا لغرض القراءة فحسب ، فهذا ـ بالطبع ـ ليس سيئاً ، ولكنه قليل النفع .

الويل لمن كانت الأخرة عندهم مجرد حكاية تحكى ! كما يقول الإمام علي (ع) :

« كأنّ الذي مات منّا سَفَرَة ، عن قليل إلينا راجعون »[4] .

أي : لكأننا إذا مات أحدنا نودع جثمانه القبر ، ثم نلتفت إلى ما خلّفه لنا من ميراث ، وهذا جلّ اهتمامنا ، وكأنّ شيئاً لم يكن ، بل لعلّه يعود إلينا عمّا قليل ! أمّا أن نفكر ونعتبر ، ونتذكر أن أمامنا خمسين موقفاً من العقبات ، كل موقف طوله ألف عام[5] ، فهذا أمر لا يستحق الذكر !![6] .

إنّما الميزان للمسلمين

البعض يقول : إن الميزان والعقبات والعذاب إنّما أعدّت للكافرين وليست لنا ! في حين أن الإمام زين العابدين (ع) يقول ـ كما ورد في

---

(١) ﴿ ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدكّر ﴾ (القمر / ١٧) .
(٢) ﴿ إنّ لدينا أنكالاً وجحيماً * وطعاماً ذا غصّة وعذاباً أليماً ﴾ (المزّمّل / ١٢ و ١٣) .
(٣) ﴿ عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ (التحريم / ٦) .
(٤) نهج البلاغة .
(٥) ﴿ في يوم كان مقداره ألف سنة ممّا تعدّون ﴾ (السجدة / ٥) .
(٦) ﴿ لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ (الدهر / ١) .

المجلد الثالث من (بحار الأنوار) - ما مؤدّاه :

الميزان والعقبات يوم الحساب يختصان بالمسلمين سواء منهم من كانت أعمالهم حسنة أو سيئة[١] ، أمّا الكافر فلا حساب له لأنه لا يملك من الحسنات شيئاً حتى توزن بسيّئاته[٢] .

وردت في (تفسير النيشابوري) قصّة ذلك الفتى الذي ذهب إلى (الكُتّاب) سالماً معافى ، غير أنه عاد وقد أصيب بالحمى وارتفعت درجة حرارته ، ثم ارتمى في الفراش ، فسأله أبوه عمّا جرى له ؟ فقال :

لقد شرح المعلم لنا اليوم هذه الآية ﴿ **فكيف تتّقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً** ﴾ وإنّي خائف من هذا اليوم .

وأخيراً يموت الفتى ، فيجلس الأب على قبر ولده وينتحب ويقول : أي ولدي العزيز ، إنّك بفطرتك الطاهرة وقلبك الرقيق قد تأثّرت بالقرآن إلى هذه الدرجة ، فكيف بأبيك ذي القلب الأسود ، أليس عليه أن يموت من الخوف ؟!

يُروى أن حالة من الحيرة تستمّر أربعين سنة قبل موقف الحساب[٣] .

تُرى ، ما الذي سينزل بنا عند حافة القبر ؟! هل سنصاب بالبهت والذهول ؟

فيا أيها الحريصون على صون كراماتكم وحياءكم ، هلّا فعلتم شيئاً ليوم قيامتكم غداً ؟ ألا تخجلون من النبيّ (ص) ومن عليّ وفاطمة (ع) ؟!

---

(١) ﴿ خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ﴾ (التوبة / ١٠٢) .

(٢) ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾ (الكهف / ١٠٥) .

(٣) كفاية الموحدين .

« ٤ »

بسم الله الرحمٰن الرحيم

﴿ تنزيل العزيز الرحيم * لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون * لقد حقَّ القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون * إنّا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون * وجعلنا من بين أيديهم سدّاً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾ .

الحقّ يعرِّف النبيَّ (ص) بالسُّبل كلِّها وبالملكوت

هذا القرآن الحكيم الذي هو كلام ربِّ العالمين ، أنزله إلٰه عزيز لا حاجة له إطلاقاً بإقبال عباده عليه ، إلاّ أنّه رحيم بعباده ، فأرشدهم ـ برحمة منه ـ إلى الصراط المستقيم ، ليحذروا السقوط عنه ، ثم أنذرهم في هذا القرآن محذّراً إيّاهم من الزلل : « لتنذر قوماً » حتى يتمّ بواسطة هذا القرآن إنذار قوم لم يُنذَر آباؤهم فظلّوا دون علم بحقائق الأمور .

سبق وقُلْت : إنّ في هذا إشارة إلى زمان (الفترة) الممتدة قبل عهد رسول الله (ص) لعدّة مئاتٍ من السنين ، دون أن يُبعث فيها نبيٌّ مُرسل يُنذرهم : « فهم غافلون » . ولكنّ الله تعالى ، مَنَّ على أهل هذا الزمان فبعث نوره محمّداً (ص) ، ودلّه على السُّبُل كلّها : الدنيا

والآخرة ، المُلْكُ والمكلوت ، الجنّة وجهنّم ، ليُنذِرَ هذا الخلق ، فأطْلَعه ليلة المعراج على ملكوت الأشياء ليُبلغ الخلق ويقوم بإنذارهم .

كون مشركي مكّة من أهل جهنّم ، خبر غيبي

﴿ لق حقّ القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ﴾ .

حقَّ أي ثَبت ، تحقَّق ، صار من المسلّمات ! ما المراد بـ « القَوْل » ؟ في بداية الخلقة خاطب تعالى الشيطان قائلاً له : ﴿ لأملأنَّ جهنَّم منك ومِمَّن تبعك منهم أجمعين ﴾[1] . قول الله هذا أضحى من المسلّمات فيما يتعلّق بأكثرهم (أي أكثر أهل مكّة) إذ إنهم سيكونون من أهل جهنّم . هذه الآية هي من أخبار القرآن الغيبيّة التي تفيد أنَّ هؤلاء المشركين لن يؤمنوا حتى آخر عُمْرِهم ، لن يؤمنوا بمحمَّد : « فهم لا يؤمنون » لماذا ؟ هذا ما سيتّضح في الآيات التالية .

الأغلال في الأعناق والسّدُّ من الأمام ومن الخلف

﴿ إنّا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون ﴾ .

إنَّ الذي طُوِّق عنقه بالغِلِّ حتى الذَّقن ، لا يرى شيئاً إذ تكون رأسه مشدودة إلى أعلى ، فلا يشاهد ما يجري على الأرض .

﴿ وجعلنا من بين أيديهم سدّاً ومن خلفهم سدّاً فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾ .

ونحن لم نكتف بهذا أيضاً بل جعلنا أمامهم حاجباً وسدّاً ، وخلفهم كذلك حاجباً وسدّاً ، وألقينا على أعينهم غشاوة فهم لا يبصرون .

---

(١) سورة ص : الآية ٨٥ .

هل الآيات تتعلّق بيوم القيامة أم هي مثال يضرب ؟

« لقد بالغنا في تحذيرهم فلم يرعووا ، فجزيناهم هذا الجزاء » .

هـذا هو ظاهر الآيتين الشريفتين . غيـر أنّـه ينبغي تحـرّي الـدِّقّـة الزائدة ، فقد ذكر العديد من المفسّرين وجوهاً ثلاثة في تفسيرهما .

أحدهما : إنَّ هاتين الآيتين ﴿ جعلنا في أعنـاقهم ـ وجعلنا من بين أيديهم ﴾ تتعلقان بالآخرة ، وأن هذا ما يحدث يوم القيامة .

الـوجه الآخـر هو أنهمـا على سبيـل المثـال ، فقـد ضـرب تعـالى مثالاً ، فشبههم بحالـة من وضعت الأغلال في عنقـه حتى ذقنه ، ورأسـه مرفوعـة في الهواء فهـو لا يدرك شيئاً ؛ وأن هذا إنمـا خطر في رؤوسهم ولم يجر في الخارج .

أمّا الوجه الثالث ، وهـو الأفضل ، فهـو أنّهما تقـرران حقيقتين من الحقائق الفعليّة ، فالآن ، وفي هذا الـوقت ، وبهذا الجسـد الفعلي ، لو ظهر لأحدهم ملكوته لتبيَّن أن هنـاك أغلالاً قـد لُفَّت حـول نفسه وهـو لا يدرك ذلك ، وأن أمامه حجاباً وخلفه حجاباً يمنعان عنه الإبصار .

لقد شرحوا هذا المعنى ببيانٍ آخر ، فمـا هي الأغلال ؟ لـو فُهمت الأغلال فأن كل واحدٍ يستطيع ، بنسبـة من النّسب ، أن يطبِّق المـوضوع على نفسه .

الشهوات والآمال تُعمي وتُصِم

« عندنا غِلّ حديدي للأعناق المكتنزة ، لا تعود بعده ترى ما تحت قدميك » .

هـذا هو الظاهر . إلاّ أنَّ هـذه الآية الشـريفـة تعـود إلى حقيقتـك وروحك اللتان ترشفان في هـذه الأغلال . . . الأغـلال التي رفعت رأس إدراكك نحو الأعلى فلم تعد بعدها ترى أيّ مكان . . . الأغلال التي في

عالم المعنى اتقمح رأس قلبك وروحك بهذا النحو الذي يشدّ الرأس في الهواء ، وأقولها صريحة دون مواربة : هذه الأغلال إنّما هي الآمال والأماني : حبُّ الشهوات ، وحبُّ الدنيا ، والمال ، والرئاسة ، والطمع ، فهي أينما وُجددت تُعمي وتُصمّ .

كلُّ مَن أغمَت الآمال والأماني والحرص والطمعُ بصيرته وأصمّت سمعه لا يعود بمقدوره أن يرى ما أمامه ، في حين أنه ليس أمامه سوى منزل قبره ، إنّه يرى كلَّ شيء ما عدا قبره .

« من بين أيديهم » : فلو رجع كلُّ واحدٍ إلى ذاته وأنصف لرأى أنَّ فيه أيضاً نسبةً من هذه الحالة . فهو يفكّر في كلِّ شيء ما عدا الموت ، ويحذر من كلِّ شيء إلاّ من الموت على غير الإيمان .

صحيح أنَّ الله ينسب الفعل إلى نفسه ويقول : « جعلنا » ، لكنه يقول كذلك « نولِّه ما تولّى » . فأنت بالذات من أراد ، والله تعالى بدوره يعطيك ما أردت ؛ وأنت بالذات من أبرم الصفقة ، فبعت آخرتك بدنياك .

ولفرعون يُجري الماء أيضاً

هناك رواية في (حياة القلوب) للمجلسي حول فرعون : قالوا له : منذ زمن وأنت تدّعي الألوهية ، وها قد جَفَّ نهرُ النِّيل ، وأنت الذي تقول : أنا الله ، أجْرِه إذاً . قال : حسناً . . سأُجْريه .

خرج بجيشه من المدينة ، ولما بلغوا الصحراء ، قال للجنود : لتظلّوا في أماكنكم ريثما أذهب وأُجري لكم الماء ، ثم ابتعد عنهم حتى بلغ مكاناً غاب فيه عن انظارهم بشكل كامل ، ولما اطمأنّ إلى أنّ أحداً لا يراه ، ترجل عن الحصان وألقى بتاجه على الأرض ثم ارتمى فوق الرمال وقال :

هل الآيات تتعلّق بيوم القيامة أم هي مثال يضرب ؟

« لقد بالغنا في تحذيرهم فلم يرعووا ، فجزيناهم هذا الجزاء » .

هـذا هو ظاهر الآيتين الشريفتين . غيـر أنّـه ينبغي تحـرّي الـدِّقّـة الزائدة ، فقد ذكر العديد من المفسّرين وجوهاً ثلاثة في تفسيرهما .

أحدهما : إنَّ هاتين الآيتين ﴿ جعلنا في أعنـاقهم ـ وجعلنا من بين أيديهم ﴾ تتعلقان بالآخرة ، وأن هذا ما يحدث يوم القيامة .

الـوجه الآخـر هو أنهمـا على سبيـل المثـال ، فقـد ضـرب تعـالى مثالاً ، فشبههم بحالـة من وضعت الأغلال في عنقـه حتى ذقنه ، ورأسـه مرفوعـة في الهواء فهـو لا يدرك شيئـاً ؛ وأن هذا إنمـا خطر في رؤوسهم ولم يجر في الخارج .

أمّا الوجه الثالث ، وهـو الأفضل ، فهـو أنّهما تقـرران حقيقتين من الحقائق الفعليّة ، فالآن ، وفي هذا الـوقت ، وبهذا الجسـد الفعلي ، لو ظهر لأحدهم ملكوته لتبيَّن أن هنـاك أغلالاً قـد لُفَّت حـول نفسه وهـو لا يدرك ذلك ، وأن أمامه حجاباً وخلفه حجاباً يمنعان عنه الإبصار .

لقد شرحوا هذا المعنى ببيانٍ آخر ، فمـا هي الأغلال ؟ لـو فُهمت الأغلال فأن كل واحدٍ يستطيع ، بنسبـة من النِّسب ، أن يطبِّق المـوضوع على نفسه .

الشهوات والأمال تُعمي وتُصِم

« عندنا غِلٌ حديدي للأعناق المكتنزة ، لا تعود بعده ترى ما تحت قدميك » .

هـذا هو الـظاهر . إلاّ أنَّ هـذه الآية الشـريفة تعـود إلى حقيقتـك وروحك اللتان ترشفان في هـذه الأغلال . . . الأغـلال التي رفعت رأس إدراكك نحو الأعلى فلم تعد بعدها ترى أيَّ مكان . . . الأغلال التي في

عالم المعنى اتقمح رأس قلبك وروحك بهذا النحو الذي يشدّ الرأس في الهواء ، وأقولها صريحة دون مواربة : هذه الأغلال إنّما هي الآمال والأماني : حبُّ الشهوات ، وحبُّ الدنيا ، والمال ، والرئاسة ، والطمع ، فهي أينما وُجددت تُعمي وتُصمّ .

كلُّ مَن أغمَت الآمال والأماني والحرص والطمعُ بصيرته وأصمّت سمعه لا يعود بمقدوره أن يرى ما أمامه ، في حين أنه ليس أمامه سوى منزل قبره ، إنّه يرى كلُّ شيء ما عدا قبره .

« من بين أيديهم » : فلو رجع كلُّ واحدٍ إلى ذاته وأنصف لرأى أنَّ فيه أيضاً نسبةً من هذه الحالة . فهو يفكّر في كلِّ شيء ما عدا الموت ، ويحذر من كلِّ شيء إلاّ من الموت على غير الإيمان .

صحيح أنّ الله ينسب الفعل إلى نفسه ويقول : « جعلنا » ، لكنه يقول كذلك « نولّه ما تولّى » . فأنت بالذات من أراد ، والله تعالى بدوره يعطيك ما أردت ؛ وأنت بالذات من أبرم الصفقة ، فبعت آخرتك بدنياك .

ولفرعون يُجري الماء أيضاً

هناك رواية في (حياة القلوب) للمجلسي حول فرعون : قالوا له : منذ زمن وأنت تدّعي الألوهية ، وها قد جَفَّ نهرُ النِّيل ، وأنت الذي تقول : أنا الله ، أجْرِه إذاً . قال : حسناً . . سأُجْريه .

خرج بجيشه من المدينة ، ولما بلغوا الصحراء ، قال للجنود : لتظلّوا في أماكنكم ريثما اذهب وأجري لكم الماء ، ثم ابتعد عنهم حتى بلغ مكاناً غاب فيه عن أنظارهم بشكل كامل ، ولما اطمأنَّ إلى أنَّ أحداً لا يراه ، ترجل عن الحصان وألقى بتاجه على الأرض ثم ارتمى فوق الرمال وقال :

يا إله العالمين أنا أعرف أنني أقول الكذب، وأنا لا أريد الآخرة، بل أطلب سلطان الدنيا ، فلا تفضحني ؛ إلهي ، أعرفُ أن الأمور بيدك تصرّفها كيف تشاء ، وحاجتي إليك هي أن يجري هذا الماء ، وجرى الماء في النيل !!

ليس في ذلك من عجب ، فالله عز وجل يهب أيّاً كان ما أراد ، وها هو فرعون يقول بلسانه : أنا لا أريد الآخرة بل أريد الدنيا ، ومثله مثل الشيطان الذي لم يطلب الآخرة ، بل سأل البقاء في الدنيا إلى يوم القيامة ، فكان له ما سأل .

لا يُحرم أحد في محضره سبحانه

بالمناسبة ، لا يقولنّ أحدٌ : إن جريان الماء يتسبب في إضلال الناس ، لا ، فالأمر ليس كذلك ، فكل من كان ذا شعور يُدرك أن ما جرى لم يكن من عمل البشر ، إنّه الله العطوف الرحيم ! وهو لن يحرم حتّى عدوّه ، وإنّ أحداً لا يحرم في محضره سبحانه ، قولوا فقط : يا الله ! هذا فرعون يرتمي عند أعتابك ذليلاً ، وهو الشقيُّ الذي ادّعى الألوهيّة ، فلم تحرمه ، ونحن اليوم ضيوفك ، نحن صائمون كما نحسب ، في هذا المسجد ، في بيتك ، فماذا يجري لو فككت الأغلال التي تحيط بقلوبنا ؟ « وقعدت بي أغلالي » فلم تدعُني أفكّر في آخرتي فالشهوات والأماني لا تدعُني ، إلاّ أنْ يشملني لطفك .

كيف الفقير إلى حنانك يُحرمُ   وينال عطفك ذو الشقاوة مجرمُ ؟!

« ٥ »

بسم الله الرحمٰن الرحيم

﴿ وسواءٌ عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * إنّما تنذر من اتّبع الذّكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرةٍ وأجرٍ كريم ﴾ .

وصل الحديث بنا في الجلسة السابقة إلى أنّ الإنسان لا يُساق بالإجبار ودون اختيار منه إلى الجنّة أو جهنّم ، بل إن ما يكون ، إنّما هو كائنٌ باختياره نفسِه ، وأما قول الله تعالى : ﴿ إنّا جعلنا في أعناقهم أغلالاً ، وجعلنا من بين أيديهم سداً ﴾ فالمراد به : تلك الأغلال نفسها التي صنعتَها بنفسك ، يُطوِّق الله بها عنُقك فتحرمك من الإدراك ، فلا تقولنّ : هذا ما فعله بي ربّي ! بل قل : هذا ما أردته لنفسي ! لقد أردتَ الشهواتِ وحبُّ الدنيا ، فأعمتك وأصمّتك ، وانتصب أمامَك سدٌّ وخلفَك سدٌّ ، فلم تعد ترى عاقبة عملك ، فالأماني إذا ما استفحلت ، وصلت بصاحبها إلى حدٍّ لا يلتفت معه حتى إلى شيخوخته ، فالشّيخ كذلك تجعلُه الآمال والأماني غافلاً لا يلتفت إلى الموت ، كما يغفل عن ذنوبه السابقة من ناحية أخرى .

إنّه يقول : لا بأس من العيش مع تلك الآمال لبضع سنوات فقط ، في حين أنه لا يضمن بقاءه حياً حتى الغدُ ! أتُصبح هذه الأماني أغلالاً تغلّ الإدراك ؟ أم أنّه يَنْشغل بها حتى يخسر رأس مال العمر ، ويغفل عن

فناء الدنيا وبقاء الآخرة رغم بداهة هذه الحقيقة ؟! إن الذي يأخذ بالسقوط يبلغ حدّاً يغدوا معه ممّن قيل فيهم : ﴿ وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ !

علامة موت القلب ، عدم التأثُّر

سواء أأنذرته أم لم تنذره لا فرق ، فلن يترك هذا في قلبه أثراً ولو بمقدار ذرّة ، فقد بلغ حدَّ الموت الحقيقي ، ولن يؤثر فيه شيء .

إذا فقدت القدم الإحساس ، وخزوها بالإبرة ، ليروا إن كانت ستتحرك أو تنتفض أم لا ؟ فإن لم تتأثَّر يُعْلَم أنَّها قد تعطَّلت . فمن كان بلا قلب سواء عليه أأنذرته أم لم تنذره(١) .

لقد فسدت الفطرة الإنسانيّة ، فالإنسان لا يُدْرك شيئاً غير المادّة والمادِّيات . نعم ، هو يخاف أن يَقِلَّ ماله ، أن يذهب ماءُ وجهه ، أن يخسر مقامه ؛ أمّا إن قلت له : إنّ هذا الذنب الذي فعلت سوف يؤخّرك في موقف الحساب ، فلا يخشى ذلك .

ورد في المجلَّد العاشر من بحار الأنوار أنّه : عندما قرأ رسول الله (ص) على المسلمين قوله تعالى : ﴿ وإنَّ جهنَّم لموعدهم أجمعين ❁ لها سبعة أبواب بكل بابٍ منهم جزءٌ مقسوم ﴾(٢) .

راح علي لدى سماعه هذا القول ينتفض كما ينتفض العصفور الذي أصابه البلل في الشتاء .

الحياة إن وجدت في جسم حيّ ظهرت آثارها ، فالقلب الحيّ له علامة ، وآثار حياة القلب تظهر عند تلقّيه بشارة أو إنذاراً ، أمّا لو كان ميتاً ، فلو قرأت عليه القرآن كلَّه ، لن يؤثّر فيه ، بينما لو كان فيه قليلٌ

---

(١) ﴿ أموات غير أحياء وما يشعرون أيّان يُبعثون ﴾ (النحل / ٢١) .

(٢) سورة الحجر : الآيات ٤٣ و ٤٤ .

من الجنة ، فلا [illegible] من [illegible] الأمر

﴿ لينذر من كان حياً ﴾ القرآن [illegible] الإنسان [illegible] [illegible] به حية ، [illegible] لا [illegible] به [illegible]

﴿ إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب ﴾

ما لم يمتلك قلب الإنسان الحياة ، فمن المحال أن [illegible] [illegible] [illegible] (1) . ولكن ما دام يمتلك الحياة ، فهناك [illegible] [illegible] [illegible] بالموعظة ، [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] إلى القرآن [illegible] لهذه الفطرة

أكثر أهل مكة ماتت قلوبهم ، [illegible] ، إنهم [illegible] حتى من اسم الآخرة . أما من كانت فطرته [illegible] ، فهو [illegible] «وخشي الرحمن» .

علامة أقل درجات الإيمان

ربما يفكر الإنسان : أمؤمن أنا أم لا ؟ إذا [illegible] [illegible] ، هل أكون على إيمان أم لا ؟

إن رواية الإمام الباقر (ع) في الكافي [illegible] درجات الإيمان يقول (ع) :

« من سرته حسنته وساءته سيئته ، فهو مؤمن » .

يتضح من هذه الرواية أنه مؤمن لأنه [illegible] بالخير ويغضب حينما [illegible] المنكر ، أي : إن المنكرات [illegible] [illegible] حسنة [illegible] [illegible] . فهو إذاً حي القلب

لقد ضرب أمثلة على [illegible] الإنسان مع حسرات [illegible] . [illegible]

(1) ﴿ إنك لا تسمع الموتى ﴾ ([illegible] : [illegible]) .

هـذه الأمثلة ذاك الذي ذكـره الشيخ الصـدوق عليـه رحمـة الله نقـلاً عن الحكماء ، وسأذكره هنا وليطبّقه كلّ منّا على نفسه .

هاوية الطبيعة والانشغال بالشهد رغم آلاف اللسعات

كان شخص يجتاز الصحراء ، فهوى في بئر هناك ؛ وكانت تتوسط البئر قطعة خشبيّة ، فتمسَّك بها تفادياً للسقـوط إلى قعر البئـر ، وكان في القعر ثعبان كبير ، وقد فغر فاه ينتظر سقوطه ليبتلعه ، أما القطعة الخشبية فكـان في أحد طـرفيها فـأر أبيض ، وفي طرفهـا الآخر فـأرٌ أسـود وهمـا يقضمانها من الجهتين ، والقطعة ترقّ وتضعف ، فغمره رعب قاتل ، وإذ ذاك وقـع نـظره في ركن من أركـان البئـر على مقـدار من العسـل ، وقـد اختلط بالتراب ، والزنابير تحوّم فوقه .

نسي صـاحبنـا الثعبـان والفـأرين ، وراح يلعق العســل سعيـداً ، متحملاً لسع الزنابير ، مسروراً لحسن سعده أن وفقّ إلى العسـل ، غـافلاً عن الخطر المحدق به من كل جانب .

نستخلص من هذا المثال أن البئر تمثّل الطبيعة والدنيا بـالهاويـة ، وتمثـل الموت بـالثعبان ، وتمثّـل عمر الإنسـان بقطعـة الخشب ، والليل والنهار بالفـأرين الأبيض والأسود اللّذَيْن يقضمـان العمر شيئـاً فشيئاً حتى ينتهي إلى المـوت . أمّـا العسـل ، فهـو شهـوات الـدنيـا وملذّاتهـا التي يصحب كل لعقة منه ألف لسعةٍ وغصّة .

إنُ الشّهـد الصـافي والسـرور المحض ، لا وجـود لهمـا في هـذه الحيـاة الـدنيـا ، لا في مـأكـل ولا في ملبس ولا في إشبـاع الـرُّغبـات الجنسيُة .

إنّ السعـادة المطلقـة ، هي في العالم الآخـر ، حيث الشُهـدُ دون لسعـات الإبر ، شـرط أن يترك الإنسـان هـذه الـدنيـا ومعـه نـورٌ التقـوى والولاية .

« ٦ »

بسم الله الرحمٰن الرحيم

﴿ إنّما تنذر من اتّبع الذِّكر وخشي الرحمٰن بالغيب ، فبشّره بمغفرةٍ وأجرٍ كريم * إنّا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدّموا وآثارهم ، وكلّ شيءٍ أحصيناه في إمامٍ مبين ﴾ .

الدنيا حجاب والبرزخ والآخرة شهود

﴿ سواء عليهم أأنذرتهم ﴾أكثر أهل مكة ماتت روح الإنسان فيهم : ﴿ إنّك لا تسمع الموتى ﴾ سورة النّحل الآية ٨٠ ، فمهما تحدّثت أو لم تتحدّث عن الآخرة فلا فرق بالنسبة إليهم ، إنهم لا يؤمنون . هكذا الحال في كلّ الأعصار ، ففي كل مدينة عددٌ كبير من الناس ، ممّن تُنذرهم العذابَ فلا يتركون المعصية ، فمن الذي يخشى إذاً ؟

﴿ إنّما تنذر من اتبع الذّكر ﴾الذي يخشى هو الذي يتّبع الذّكر ، هو الذي إذا قرئت عليه آية من القرآن تركت أثراً لديه ، هو الذي ما أن يُذكر الله تعالى أمامه حتى يخشى « بالغيب » . يقول البعض : الغيب هو الخفاء . أي إنه يخشى الله في الخفاء حيث لا أحد غير الله . إلاّ أنّ أكثر المفسّرين قالوا : هو (أي الغيب) بمعنى الحجاب . فالموت ما دام لم ينزل بساحة الإنسان بعد ، كان في خفاء ، في حجاب وفي

غيبة ، في حجابٍ يحجبه عن الله والملائكة والبرزخ والملكوت . فإذا نزل الموت ، كان الشهود ، وظهر كلُّ شيء على حقيقته .

يتّضح أنّ الخشية مهمّة في هذا الحال ، في الوقت حيث الشهود غير ممكن . أمّا في المآل ، أمّا إذا مات الإنسان ووقع بصره على الملكوت وغير الملكوت حينئذٍ تفقد الخشية قيمتها .

يوسف يخشى الله في السّرّ

فيما يتعلّق بالنبي يوسف (ع) عندما حاصرته (زليخا) في غرفة مغلقة الأبواب ، ألقت شالها على صنم كان هناك قائلة : يقبح أن أقوم أمام الصنم بعملٍ لا يليق ! فقال يوسف (ع) : أنت تخجلين من صنمٍ غير ذي شعور ، فحريّ بي أن أخجل أنا من الله العليم الخبير ؟!

يا من تختزن أموال الناس وليس لدى صاحبها ما يثبت به حقّه ، غير أن الله يَعْلم أنها عندك ، والله قادر على استردادها منك إذ لا يقدر صاحبها على ذلك . إنّ الذي يضمّ قلبه على الخشية ، إنما هو إنسان حيٌّ ، يفيد معه التحذير ، وأولئك هم المصلّون والصائمون ، فالصيام عملٌ خالص لله :

﴿ فبشّره بمغفرةٍ وأجرٍ كريم ﴾ .

التنوينُ في « مغفرةٍ » ، هو تنوينُ تنكيرٍ بهدف التفخيم ، فيكون المعنى : مغفرة عظيمة لا توصف ـ وأجر كريم عظيم لا يوصف . والله عزّ وجلّ صادق الوعد إذ يقول واعداً :

﴿ إنّي لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ﴾[1] .

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٩٥ .

عند الاحتضار يتذوّق الكوثر ، ثم يموت

أنتم أيّها الصائمون ، لقد أقبلتم على الله تعالى ، وهو أيضاً لن يدعكم ، وعلى الأخصّ الشباب الأعزاء ، الذين هم في ربيع العمر .

« أجرٌ كريم » . . . أي إن الله عزّ وجلّ سيسقيه من حوض الكوثر ساعة الموت[١] . يا أيها الذين صمتم شهراً من الزمن كنتم خلاله تشتهون الطعام والشراب لكنّكم امتنعتم عنهما قربةً إلى الله . . . فكلوا واشربوا الآن[٢] ، هنيئاً من يد سيِّد الهداية ، قمر الهداية ، أسد الله الغالب علي بن أبي طالب (ع) .

يروى أنّ البعض من أهل الإيمان ممن لا زال فيهم رمق يسقون من ماء الكوثر ، ففي رواية عن الإمام الباقر (ع) ، يقسم عليه السلام ، وفقاً لما جاء في « معاني الأخبار » ، أنه أقسم أن المؤمن لن يموت حتى يذوق ماء الكوثر .

ساعة الاحتضار ، وهي الشديدة حقاً ، ما أروع ما يقْطف المحتضر فيها من لذّة عندما يسقيه ساقي الكوثر ، وبأيّ مُتعة يُسْلم الروح !!

أعرف محتَضَراً داعبت رائحة مسك عجيبة مشامّ الحاضرين أثناء موته ، ثم راح هذا المؤمن يقول : اخرجو ، افسحوا المجال لدخول الإمام ! . .

تُرى ، هل ذلك الذي كان مال اليتيم في عهدته ، فأدّاه لصاحبه دون أن ينقص درهماً خوفاً من الله ، تُرى ، هل يستوي مع ذلك الذي يأكل مالَ اليتيم دون تردد ؟![٣] ، « ما هكذا الظن بك ـ ساء ما يحكمون » .

---

(١) ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية ﴾ (الحاقة / ٢٤) .

(٢) « ريّاً ريّاً هنيئاً لا ظمأ بعده أبداً » ، (دعاء الندبة) .

(٣) ﴿ أم نجعلُ الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ؟ أم نجعلُ المتقين كالفجّار ﴾ (ص / ٢٨) .

المعاد بشارة للمحسنين وإنذار للمسيئين

أحد براهين المعاد هو أنّ عالم الجزاء لا بُدّ من وجوده يقيناً ، وإلّا كان الله الحكيم فاقداً للحكمة على الإطلاق ، إن الذي ينكر عالم الجزاء ، ينكر الله تعالى . إن هذا الكون العظيم كلّه ، حاصله بروز فضل الله العظيم يوم القيامة ، إنّ الحياة الفعلية هي مقدّمة وزرع لما بعد الموت .

﴿ إنّا نحن نحيي الموتى ﴾ : بشراكُم أيها المسلمون والويل لكم أيها الكافرون فمن مات سنعيده للحياة ، وما أن يموت الشخص حتى يتبدّل إهابه ، ويحظى بحياة أكثر جدّة فالجسم المادي وآلامه يتحوّل إلى جسداً مثالي لطيف لا يعيبه نقص مادّي فالنوم نتيجة لعجز الجسم المادي ، والآلام المختلفة هي من شأن الجسم المادي ، بينما الجسد البرزخي ليس بحاجة إلى نوم أو دواء أو طبيب .

جاءت عجوزٌ إلى رسول الله (ص) وقالت له في سياق كلام لها : « ادع لي بالجنة » فأراد صلوات الله وسلامه عليه أن يمازحها فقال لها : « إن الجنّة لا يدخلها العجزة »[1] .

فأخذت العجوز المسكينة تبكي ، فطيّب لها قلبها ، وشرح لها ما أراده من مزحته ، بأن العجزة من أهل الجنة ينقلبون شباباً .

« إنّا نحن نحيي الموتى » : بعد الموت تتصل الروح مباشرة بالجسد المثالي ، الجسد الذي يشبه هذا الجسد تماماً . فالجسد المادي الذي يمكن إمساكه باليد ، زال وحلّ محلّه جسدٌ لطيف لا ظل له .

﴿ ونكتب ما قدّموا وآثارهم في إمام مبين » : عملك موضع عناية ربّ العالمين ، وكل عمل قمت به لله ، فهو عظيم ونحن نثبته لك ،

---

(١) (سفينة البحار/ج : ٢/ص : ٥٣٨) .

ليس فقط في صحيفة أعمالك بل بي اللّوح المحفوظ أيضاً ذلك هو الإمام المبين ؛ كلّ ما قدّمته من أعمال الخير . وكذلك كل سرّ أخفيته يثبتان لك ، خيراً كانا أم شراً .

الأولاد والخير الباقي ، آثار ما بعد الموت

« وآثارهم » : قال أكثر المفسِّرين : « ما قدّموا » أي ما بعثه ما قبل الموت . و « آثار » : أي الأمور التي تبلغك ما بعد الموت . هناك العديد من الروايات التي تصرّح أن الإنسان إذا مات انقطع إلاّ من عدة أشياء :

الأوّل : الأولاد : فإن استطعت أن تربّي أولاداً صالحين وأن تقدّمهم إلى المجتمع أولاداً من أهل اليقين والتقوى ، فإنّ كل عمل خيرٍ يقومون به ، تكون نتائجه وآثاره لوالديهم أيضاً .

الثاني : الخير الثابت : مثلاً نشر أو ألف كتاباً دينياً ينتفع به الناس بعده ، أو وقف وقفاً ، فالأوقاف هي من الخيرات الباقية ، كأن يوقف قدراً من ماله بعد الموت في سبيل الله ، إن كان ذا سعة بحيث لا يجحف بالورثة .

• • •

مردود منجم الملح وعزاء الحسين (ع)

عن المرحوم الحاج الشيخ عبد الحسين الطهراني ، وهو أستاذ الشيخ النوري ، قال وهو على المنبر :

في الليلة الماضية رأيت في المنام أحد أعيان دولة ناصر الدين شاه ، وكان ذا جاه عظيم ، رأيته وهو يرفل في رَوْح وريحان . فقلت له : أنا أعرفك مذ كنت في طهران ، وأرى ممّا أعرفه عنك أن هذا المقام الذي أنت فيه الآن لا يتناسب مع الحال التي كنت عليها ! فقال لي :

صحيح ، ولكن هذا كلّه صار من نصيبي بعد الموت ، فقد كان لي منجم ملح في (طالقان) وكنت قد أوصيت وأنا على قيد الحياة بأن يبعثوا بمردوده إلى النجف الأشرف ، لتقام به مآتم عزاء الإمام الحسين (ع) .

قال الشيخ هذا وهو على المنبر ، وكان المرحوم الحاج الشيخ نظر علي الطالقاني جالساً تحت المنبر فقال : أنا من أهل طالقان ، وهذه الرؤيا صادقة ، وإن منجم الملح هذا موجود ووصيّة الشخص المذكور كانت كذلك[1] .

يروى أنه في آخر الزمان لا ينتفع الأموات من الأحياء. إنكم ترَوْن ماذا يُعمل بالموقوفات ، وترون كيف يتصرّف بها (أكلة الجيف) في وجوهٍ كلّها غصب واحتيال ، إنهم يظلمون الأموات[2] ، هذا المسكين الذي يحدّدُ وقتاً لإقامة مآتم للحسين (ع) ويوصي بتوزيع الطعام بعد موته أملاً بالانتفاع ببركتها ، أو ذاك الذي يفرز ثلث ماله لهذه الأغراض ، ترى لماذا يرتكبون الظلم بحقّه ؟!

إنّ من الآثار والخيرات الباقيات ، عيون الماء ، والأشجار ، فهي ـ طالما بقيت ـ مصدر نفع لصاحبها : ﴿ **والباقيات الصالحات خير عند ربّك ثواباً** ﴾[3] .

ساعات عمر الإنسان بعد الموت

جاءت بشائر عن رسول الله (ص) ، يقول صلوات الله وسلامه عليه ما مؤدّاه : بعد الموت ، هناك ساعة بعدد ساعات عمرك ، وعندما تُفتح

---

(١) دار السلام / تأليف الشيخ النوري .

(٢) هذا الكلام يرجع إلى خمس سنوات مضت وكلّنا أمل الآن بأن يعاد العمل بالموقوفات وفق الأسس الصحيحة .

(٣) سورة الكهف : الآية ٤٦ .

الخـزينـة يصيبـك منهـا من الفـرح مـا لـو وُزّع على أهـل النـار جميعهم لفرحوا ، وتلك هي الساعة التي قضيتها في ذكر الله تعالى . وتأتي ساعة أيضـاً يسيطر عليـك فيها من الغمّ والحـزن مـا لـو وُزّع على أهـل الجنّـة جميعهم لحزنوا ، وتلك هي الساعة التي قضيتهـا بالمعصيـة ؛ ولا تظنّنّ أنها ستُمحى ، لا فالأمر ليس كذلك ، فهذه الساعات غير قابلة للمَحْو !

وتـأتي سـاعـة ليست من هـذا ولا ذاك ، وتلك هي السـاعـة التي قضيتهـا في العمل المبـاح (وهذه السـاعة ـ بـالطبـع ـ تكـون سببـاً للغمّ والحزن ، ذلك أنـك تتمنى لو قضيت هـذا المقطع من عمـرك في سبيل الله) .

« ٧ »

بسم الله الرحمٰن الرحيم

﴿ واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون * إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذّبوهما ، فعزّزنا بثالثٍ ، فقالوا : إنّا إليكم مرسلون * قالوا : ما أنتم إلاّ بشر مثلنا ، وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلاّ تكذبون * قالوا ربّنا يعلم إنّا إليكم لمرسلون * وما علينا إلاّ البلاغ المبين[1] ﴾ .

الجدال والتذرُّع بالأعذار مع الأنبياء

إنّها آيات مباركات تتحدّث عن قصّة (أنطاكية) ومجيء ثلاثة من الرسل إليها ـ مباشرة من قبل الله أو بالواسطة من قبل غيره ـ وقد سبق لنا القول : إن المشهور أنّ عيسى بن مريم (ع) أرسل اثنين وأنّهم ضربوهما وحبسوهما ، فأرسل ثالثاً ويدعى (شمعون) فأخرجهما من السِّجن ، ثم راحوا ثلاثتهم يدعون الناس في الأسواق والطرقات ، إلى دين التوحيد ، إلى قول « لا إله إلاّ الله » ، إلى نبذ الأصنام ومعابدها ، إلى الإيمان بالله والخوف من الآخرة .

وآمن معهم ـ بناء على ما قاله البعض ـ أربعون شخصاً . إلاّ أنّ الباقين راحوا يجادلون ويخاصمون ، الأمر الذي جرّ إلى الحرب .

كان جدالهم الأوّل أنْ قالوا ﴿ ما أنتم إلاّ بشرٌ مثلنا ﴾ لا تمتازون عنّا بشيء ، فكيف ، والحال هذه ، يوحي الله إليكم ! ﴿ وما أنزل الرحمن من شيء ﴾ .

هذا قول طائفة من الوثنيين . يقولون : إنّ الناس كلّهم سواء ، لا إمتياز لأحدهم على الآخر ، فلو كانت دعوة الأنبياء صادقة، لكان على الله أن يبعث مَلَكاً . وهذا الأمر ذُكر في القرآن الكريم وذُكر جوابه معه أيضاً .

يقول تعالى في سورة الأنعام :

﴿ وما قدروا الله حقّ قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشرٍ من شيء ﴾[1] .

يقود هذا الكلام إلى أن الله تعالى أهْمَل البشر فلم يُطلعهم على الحياة بعد الموت ! فهل تليق تهمة كهذه بربِّ العالمين ؟! فإهمال الله سبحانه للبشر إنما هو ظلم لهم ، وهم سوف يحتجون عليه تعالى أن : يا ربّ ، لماذا لم تبعث لنا رسلاً كي نتّبعهم ؟![2] وبهذا لن تتم الحجّة عليهم .

هل حاجة البشر إلى المرشد أقلُّ من حاجتهم إلى كون الحاجبين مقوّسين ؟

إنّ للشيخ الرئيس أبو علي ابن سينا تعبيراً جيِّداً فيما يتعلّق بالحاجة إلى الرسول .

يقول : إن حاجة البشر إلى الرسول ، أكبر من حاجتهم إلى كون الحاجبين مقوّسين ، فهل تجدون شخصاً واحداً ذا حاجبين غير

---

(١) سورة الأنعام : الآية ٩١ .

(٢) ﴿ ربّنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتّبع آياتك ﴾ (طه / ١٣٤) .

مقوّسين ؟! إنّ الحاجبيْن ، بالإضافة إلى الجمال الذي يُسْبُغه عليهما شكلهما المقوّس ، هما بمثابة ميزاب لعرق الجبهة يدفعانه عن العين ، وهما - بإحاطتهما - بالعين ، يجمعان النور ، وهنا يُمكن القول : هل يمكن لله الذي لم يُهمل حاجةً كهذه ، أن يقصّر - سبحانه - في إرسال الرُّسُل ؟!

أمّا قولهم : لولا أرسل الله ملكاً رسولاً ، إذاً لاتبّعناه طالما هو ليس من جنس البشر وتكون الحُجّة بذلك قد تمّت . . . فيقول القرآن في الجواب عن ذلك :

﴿ ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللَبسنا عليه ما يلبسون ﴾[1] .

إن الرسول يجب أن يكون من جنس البشر ، وذلك حتى يمكنهم مجالسته ومخاطبته ، ولو كان من جنس آخر ، لما ناسب جنس البشر . لذا يقول تعالى : ﴿ ولو جعلناه ملكاً لجعلناه بشراً . . ﴾ .

أن تشتري ما لم تره ، أمر مهمّ للغاية

ويقول تعالى في موضع آخر : ﴿ ولو أنزلناه ملكاً لَقُضِيَ الأمر ثم لا يُنظرون ﴾[2] ، إنها غلبة عالم الغيب على عالم المُلك ، فهو (أي المَلك) من عالم آخر ، فكيف يمكن للمَلَك الذي هو من عالم المجرّدات ، أن يُبْعث إليك أيها الإنسان ؟! فهو لو أتى إلى الدنيا مع صفة التجرّد التي لديه لزالت الدنيا من الوجود ! ثم إنه لو حضر إلى الدنيا لكرّس بمجيئه عالم الشّهود ، والحالُ أن على الإنسان الإيمان بالغيب ، ذلك أن التصديق بالغيب والإيمان به - مع واقع كونه غيباً غير مشهود - أمر مهمّ للغاية ، فهو أساس الإيمان .

(1) سورة الأنعام : الآية ٩ .

(2) سورة الأنعام : الآية ٨ .

طبعاً ، فمن الضرورة بمكان أن يمنح الله رسول ميزة عن غيره من أفراد البشر ، وذلك كي لا يقولوا : إنه (أي الرسول) يماثلنا ولا يمتاز عنا بشيء ، فلا يصدقونه ، لذلك يجب أن يكون متميزاً بالعلم والقدرة (يوحي إليَّ) أي ، بكلمة أخرى يجب أن يأتي بمعجزة كما هو الحال مع الرسولين أو الرسل الثلاثة المشار إليهم في القصة ، إذ امتلكوا معجزة الإحياء .

نعود إلى حيث وصلنا من القصة : قال الرُّسُل الثلاثة : ﴿ ربُّنا يَعْلم إنّا إليكم لمرسَلون ﴾ . رَبُّنا يَعْلم ، وهو شاهدنا أنّا إليكم مرسلون . فتكذيبكم لنا أو تصديقكم ـ والحال هذه ـ لا أثر له في واقع الأمر ، أي نبوَّتنا .

﴿ وما علينا إلاّ البلاغ المبين ﴾ .

إنّ تكليفنا هو أنْ ننقل إليكم دعوة الله واضحة ، وسواءً أقبلتم أم لم تقبلوا ﴿ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ فإننا قد أبلغناكم بالتوحيد والمعاد ، دون أدنى شكّ أو ريب .

ارتدَّ أهل القرية ، وراحوا يقولون لغواً : ﴿ قالوا : إنّا تطيَّرنا بكم ﴾ ، إننا نتشاءم منكم ، ونتوجّس شراً ، ولن يأتينا منكم سوى المتاعب !

و ﴿ لئن لم تنتهوا لنرجمنّكم ، وليمسّنّكم منّا عذابٌ أليم ﴾ .

الدّبّاغ يُغمى عليه في سوق العطّارين

نَقَل صاحب تفسير « روح البيان » ضمن تفسير هذه الآية الشريفة ، قصةً منظومة شعراً ، تندرج في سياق هذا الحديث :

يروى أن دبّاغاً وزبّالاً قصدا السوق يوماً ، وكلاهما معتادان على القذارة والرائحة الكريهة ، واتّفق أن مرّ الدباغ بمكان لبيع العطور في

سوق العطّارين ، فَبَلَغَتْ رائحة العطر مشامّه ، فصاح صيحة سقط بعدها على الأرض مغمياً عليه ، سارع العطّارون لمساعدته وراحوا يرشون عليه العطر وماء الورد ، غير أنّ حاله ازدادت سوءاً ، وبينما هم على هذه الحال ، يحيطون به من كلّ ناحية ، وصل زميله الزُبال في الوقت المناسب ، ورأى ما جرى لزميله ، فأدرك على الفور ما يشكو منه ، فذهب وأتى بقليل من النجاسة وضعها تحت أنفِ الدّباغ ، فعاد إليه وعيه وثاب إلى رشده .

فتحلّقوا حوله ، يسألون هذا الطبيب الحاذق ، عن الدواء العجيب الذي أعاد المغشيّ عليه إلى وعيه !

فقال : أنا لست (أفلاطون) ولا (أرسطوا) وكلُّ ما في الأمر هو أنّ شغلنا في القذارة والنجاسة ، مما لنا ولرائحة العطر وماء الوَرْد ؟!

تفيد هذه القصّة أن كلّاً يأنس بعالمه ، فليكن أنسك بالعالم الأعلى ، وأن تكون من أهل الجنة ، فإذا ذكر الموت استبشرت بالموطن الدائم ، وليكن إحساسك عند ذكر الموت كمن يلقى مواطناً له وهو في سفر ، فيروح يدور حوله ، ويسأله عن أخبار الوطن ، وكلُّ أُنْسِه هو أن يسأل عن الوطن .

يا من تريد أن يكون وطنُك وموقِفك ومرقدُك الأبَدِيّ الجنة ، وأن تكون بعد هذا العالم إلى جوار الله ، يا من أنت فوق تراب دارِ الغُربة هذه ، تقرأ في الليل دعاء أبي حمزة ، قُل صادقاً : « ارحم في هذه الدنيا غربتي » . إلهي ، أنا في هذه الدنيا غريب ، فارحمني . ولتكن محطتك الأخيرة التي لا تفارقها « مقعد صدق » ، أي الجنة .

ثلاث أنْعُم في الجنّة ، أسمى من الجنّة ذاتها

في الجنّة ثلاث نِعَمٍ هي بالنّسبة لأهل الجنّة أحلى وأكثر نوراً من الجنة نفسها : الأولى : رضوانُ الله ، وهي نعمةٌ معنويّة . الثانية : جوار

محمّدٍ وعليٍّ وآلهما . الثالثة : منادٍ ينادي : يا أهل الجنّة : « خلود لا خروج » ، لستم بتاركي هذا المكان بعد الآن ، فالموت لا وجود له هنا ، والفناء لا وجود له كذلك . فيكون فرح المؤمنين بنعمة الخلود هذه ، أكثر من فرحهم بالجنة نفسها .

الدنيا ، دارُ الغربة ، وآية السعادة هي أن تأْنَس عند ذكر وطنك ، لا أن تستوحش وتَتَطَيَّرَ من ذكر الموت وعالم الآخرة ، إنّكم لم تشاهدوا كيف يتشاءم البعض من الموت ، حتى أنهم لا يذْكرون اسمه . فإذا اضطرّوا للحديث عنه اكتفوا بمجرد الإشارة إليه ، لماذا ؟ لأنّهم ليسوا من أهل ذلك العالم . فلو أنّ أحداً صار من أهل الآخرة لاشتاق إلى الموت[1] ، لتمنّى لقاء الله[2] .

وهل يكره أحدٌ نعمة باقية ؟! أبداً ، ومن يفعل يتّضح أنّه لم يُصبح من أهل ذلك العالم بعد ، وإلاّ ، لكان سرّه ذكره .

لا أدري أفكّرتُم في مستقبل أنفسكم أم لا ؟ أفكّرتم كيف نُسْلِمُ الروح ؟ فالقرآن المجيد يُعَرِّف الموتى على نَوْعين ، نوع يَسْمون عند الموت مع ملائكة العالم الأعلى وهم في غاية الفرح والسّرور والبشر[3] ، ونوع تُقبض أرواحهم بسياط العذاب ، تنزل على وجوههم وأدبارهم[4] .

---

(١) ﴿ قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنّوا الموت إن كنتم صادقين ﴾ (الجمعة/٦) .

(٢) ﴿ من كان يرجو لقاء الله فإنّ أجل الله لآت ﴾ (العنكبوت/٥) .

(٣) ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طيّبين يقولون سلام عليكم ﴾ (النحل / ٣٢) .

(٤) ﴿ فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ (محمّد/٢٧) .

« ٨ »

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قالوا إنّا تطيّرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنّكم وليمسّنّكم منّا عذابٌ أليم * قالوا : طائركم معكم أإنْ ذكّرتم ، بل أنتم قومٌ مسرفون * وجاء من أقصى المدينة رَجلٌ يسعى ، قال : يا قوم اتّبعوا المرسلين * اتّبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون ﴾ .

التشاؤم يصيب المتشائم

بَدَل أنْ يعتبر أهالي (أنطاكية) مَقْدَم المرسلين والمبعوثين الإلهيين مَقْدَماً مباركاً تشاءموا وقالوا : إنْ لم تمتنعوا عن قولكم هذا رجمناكم وعذّبناكم أليم العذاب ، فلا تذكروا اسم الله والآخرة في هذه المدينة ، واخرجوا من هنا .

فأجاب الرُّسُل إنّ : ﴿ طائركم معكم ﴾ وتشاؤمكم يرتدّ عليكم ، ﴿ أإن ذكّرتم ﴾ بأنّ الأصنام عاجزة لا يمكنها فعل شيء ، فهل في هذا التذكير ما يدعو لتشاؤمكم ؟ وإن قيل لكم أعدّوا العُدَّة لعالم ما بعد موتكم ، هل في هذا الكلام تشاؤم ؟ .

لقد أسرفتم فتجاوزتم الحد في فسادكم ، وشقاؤكم هو هذه العقيدة الخرافيّة إذ تتصوّرون أنّ الخشب فاعِل ذو قدرة ! . . هذا هو

البـلاء الذي تصبُّـونه على رؤوسكم ذلـك أن من تطيّـر من شيء ، ارتـدّ تطيّره عليه ، فالتطيّر منه وإليه ، ولا شيء يأتيه من خارج نفسه .

وبالمناسبـة نقول : إن أنـواع التطيُّـر والتشاؤم التي تعـرض لبعض الناس ، ثم تتحقّق إنما هي من أنفسهم . مثلا يخرج أحـدهم من بيته ، فيكـون أوّل شخص يصادفـه أعمى البصـر مثـلاً ، أو يـرى ميْتـاً أو يقـع بصره على مريض فيتشاءم ويتوجّس خيفةً مما قد يحدث لـه في يومـه ، ويرجع من حيث أتى ، متخلياً عما عزم على القيام به من عمل .

وكان الناس قديماً يعدلون عن سفر عزموا عليه إذا رأوا طائراً يـطير عن شمـائلهم ! كما أن النـاس كانـوا ولا يزالـوا يعتبرون طـائر البـوم فألاً سيّئاً ، مؤذناً بـالمصائب ، كـذلك يتشـاءمون من نعيب الغـراب ، وعيادة المـريض ليلتـي الاثنين والأربعاء ، مع أن هذين اليـومين يومـان عـاديّـان كباقي الأيام ، فلا خصوصيّة لهما ، فلا وجه للتشـاؤم بهما ، أو لـلاعتقاد بأن عيادة المريض فيهما تتسبب في اشتـداد مرضـه ، فالأمـر كله لا يعدو الخرافة الجوفاء .

وبشكل عام ، فإنّ هذه التشاؤمات لا أثر لها من الخارج ، بل هي تنبعث من داخـل المتشائم ، وتفكيـره هذا يسبب لـه الإرتباك والفشـل ، فينسبهمـا إلى مـا يعتقـده ـ خـطأ ـ مصـدراً للتشـاؤم ، فـالشؤم هـو من التفكير ، وليـس من ذلك المصدر المتوهَّم .

محمّد (ص) يتفاءل ولا يتشاءم

عـليكـم أن تتـأدبـوا بـأدب خـاتـم الأنبيـاء محمَّـد (ص) ، فرسول الله (ص) لم يتطيّر أو يتشـاءم عمره أبـداً ، وكان ينفـر من ذلك ، بل على العكس كان يستحسن التفاؤل والفأْل الحسن ، وأنتم أيضاً كونوا كذلك . فإذا صادف أحـدكم عند خـروجه من البيت آغـا ميرزا نصـر الله مثـلاً ، فليقل : يـا لحسن حظنـا . . . نصر الله وعـونه معنـا ، فإنّ ذلـك يقوي رجاء الشخص بربّه .

يذكر في أحوال رسول الله (ص) أنه عندما كان مهاجراً التقى بأحدهم في الطريق فسأله (ص) : ما اسمك ؟ قال : أبو بردة . فقال (ص) : « بَرُدَ أمرنا » ، أي استقام ، ثم سأله (ص) : من أيّ قبيلة أنت ؟ قال : من قبيلة بني أسلم . فقال (ص) : « سلِمْنا » أي : تجاوزنا مرحلة الخطر . هذا يقال له التفاؤل ، وهو سُنة الرسول (ص) .

فعليكم ـ في هذه الأمور التي تعرض لكم ـ أن يقوى أملكم بالله تعالى ، فتفاءلوا . . . اتّكلوا على فضل الله تعالى تفلحوا ، وبالمقابل ، إذا ضعف اعتمادكم على فضل الله وتشاءمتم وسيطر عليكم الشؤم في تفكيركم والانقطاع عن الأمل بالله فذلك نابع من انفسكم وما طويتموها عليه ، ذلك أن من رأى ما يتشاءم منه فهو إنما رأى مخلوقاً ، ولم ير الله ، فإذا ما تطيّر منه فقد اقترب من الكفر والشرك ، ويئس من فضل الله .

﴿ أإن ذكّرتم ﴾ ، جواب إنْ الشرطيّة محذوف بقرينة القول بعده ، أي : لئن ذكّرناكم ونصحناكم شتمتمونا ، فهل يكون الضّرب بالعِصِيّ والرمي بالحجارة رداً على نصيحتنا لكم ؟! نحن إنّما نريد الخير لكم . . . وندلُّكم على سبيل النجاة ونداوي أمراضكم الباطنيّة .

﴿ بل أنتم قومٌ مسرفون ﴾ . . . أي : إنكم أسرفتم وتجاوزتم الحد ، فكلّ من تجاوز حدّ الاعتدال ، وتصرَّف خلاف العقل الصريح ، فهو مسرف ، إن في تعامله مع الله أو الخَلق أو مع نفسه وزوجه وأولاده وأقاربه . الإفراط والتفريط ، إسراف .

شَتْم الناصح ، إسراف . كثيرون هم الذين يغتاظون إذا ما تحدثت إليهم بما فيه صلاحهم .

قتلوا أنصار الرُّسل

﴿ وجاء من أقصى المدينة رجلٌ يسعى ﴾ .

هؤلاء العظماء الثلاثة ، في هذه المدينة المكتظّة بالسُكّان والتي كان طولها يبلغ اثني عشر ميلاً لم يتركوا - خلال هذه الفترة - موقعاً في هذه المدينة إلاّ ونشروا فيها الدعوة إلى التوحيد والمعاد ، وطبقاً لبعض الرِّوايات الواردة ، لم يستجب لدعوتهم أكثر من أربعين شخصاً انتهوا إلى التعليق على أعواد المشانق بصورة تقشعرّ لها الأبدان ، فقد كانوا يأتون بأحد أولئك المساكين فيثقبون عنقه ، ثم يدخلون حبلاً في الثقب ، ومن ثم يعلقونه ، ويتركونه حتى يموت بهذه الطريقة البشعة !!

انتشر ما كان يفعله القوم بأتباع الرُّسل ، فبلغ مسامع (حبيب النجَّار) وهو في أقصى نقاط المدينة منزوياً في صومعته .

حبيب النَّجار ينهظ في نُصرة الرُّسُل

﴿ وقال رَجُل مؤمنٌ من آل فرعون يكتم إيمانه ﴾[1] .

كان حبيب النّجار مؤمناً يُخفي إيمانه ، وكان - حسب ما هو ظاهر - يتصدّق بنصف مدخوله من عمله في النجارة ، وينفق النِّصف الباقي ، انطلق هذا العظيم من صومعته بعد أن شعر أنّ حياة رُسُل الله في خطر ، فأسرع (يسعى) متفانياً كي يُخلّص الرُّسُل من جور القوم . والله تعالى يمدح في هذه الآيات نصير الرُّسُل هذا .

الثلاثة السابقون في الإيمان

وفي رواية عن خاتم الأنبياء (ص) وردت في تفسير الدُّرُّ المنثور قال : « سبّاق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين : علي بن أبي طالب ، وصاحب ياسين ، ومؤمن آل فرعون ؛ فهم الصدّيقون ، وعليّ أفضلهم »[2] .

---

(١) سورة غافر : الآية ٢٨ .

(٢) تفسير نور الثقلين / ج : ٤/ص ٣٨٤ .

فالأول : سيِّد الولاية ، أسد الله الغالب علي بن أبي طالب (ع) ، الذي لم يسبقه إلى الإيمان أحد من المسلمين .

والثاني : مؤمن ياسين ، وهو نفسه حبيب النَّجار ، الذي يصفه القرآن بأنّه « رجل » وبالفعل فهو قد تقدّم برجولة ، وقدّم نفسه في سبيل الله .

والثالث : مؤمن آل فرعون ، الذي حال بين فرعون وبين قتله لموسى (ع) ، وقد تعرّضت لذلك سورة « فصّلت » .

ثم أن حبيب النجار هذا كان قد شَهِد برسالة خاتم الأنبياء قبل بعثته (ص) بستّمئة عام ، فقد جاء في كتب التواريخ أنّ رجالاً كانوا قد علموا من الكتب السماوية برسالة رسول الإسلام وشهدوا بذلك ومنهم حبيب النجّار ، الذي كان قد قرأ وصف محمّد (ص) وآمن به .

العالم المشفق القانع الصادق ، أهلٌ للاتّباع

سارع هذا الرَّجل الشريف الموحِّد المؤمن ، وصاح : ﴿ يا قوم اتَّبعوا المرسلين ، اتَّبعوا من لا يسألكم أجراً . . . ﴾ ، وهذا هو برهان النُّبوَّة .

أيُّها العاقل : إذا توفّر في امرىء ثلاث صفات : العلم والصدق والقناعة ، فاتباعه واجب بحكم العقل .

فمن كان عالماً مطّلعاً صادقاً ، منزّهاً عن الأطماع ، فمن الواجب الاستجابة لإرشاداته ، فلو أنّ طبيباً مثلاً ، ممّن لا شكّ في خبرته ، ونعلم أنّه لا طمع له بالمال ، كما لو كان يعالج ابنه مثلاً ، فإنّ العقل يَحكم بوجوب العمل بإرشاداته وتوجيهاته ، على النقيض مما لو كان غير ذلك ، كأن يكون عالماً ، غير أن الطمع مستحكم به ، فالعقل هنا يحكم بالحذر منه .

هذا العظيم قال : ﴿ اتّبعوا من لا يسألكم أجراً ﴾ . . . أيُّها الناس

اتّبعوا الرُسُل الذين لا يسـألونكم شيئـاً من مال أو سلطان أو شهـرة ، ولا يتطلعون إلى هدف ماديّ من دعـوتهم . هذا هـو برهـان النبُوّة ، ﴿ وهم مهتدون ﴾ فالرُسل أنفسهم مهتدون ، ولا شكَ في ذلك .

ما هو المال ؟ إنّه لخـداع الأطفال ، فمحمّـد الذي يعْلم أنّ هنالك حوراً ، أنّى له أن يصرف النظر عن دعوته لأجل امرأة أو رئاسة أو سلطان لا يعقبه سوى النكبات ؟!

لقد تَقَبَّل صلوات الله وسلامه عليه أعباء الرسالـة ومشقّاتهـا وتحمّل أذى النّاس .

الرسول لا يسأل أجراً على دعوته

فهو لم يطلب أجراً من أحد ﴿ إن أجري إلاّ على الله ﴾ .

في أواخر عمره (ص) ، تداول المسلمون في كـون الرسـول (ص) يستقبـل الكثيـر من الضيـوف ، الأمـر الـذي يترتّب عليـه الكثيـر من المصاريف ، واتفقوا على جمع مبلغ من المال يقدمونه إليه ، لما له عليه من حقّ كبير ، فنزلت الآيـة الشريفـة ﴿ قـل لا أسـألكم عليـه أجـراً إلاّ المودّة في القربى ﴾[1] .

أتريدون أن تعطوا محمّداً أجراً ؟! وهل يُعطيه أجْره أحدٌ غير الله تعالى ؟! إن كنتم فاعلين ولا بُدّ ، وتـودّون القيـام بعمـل كـأجرٍ على الرّسالة ، فأحبّوا أهلَ بيته وأحسنوا إليهم ، وهذا إنما يعود إليكم ولنفعكم أنتم ، كما يصرح القرآن المجيد بقوله :

﴿ قـل مـا سـألتكم من أجـرٍ (المـودّة والخمس) فهـو لـكم (ولنفعكم) ﴾[2] .

---

(١) سورة الشورى : الآية ٢٣ .

(٢) سورة سبأ : الآية ٤٧ .

« ٩ »

بسم الله الرحمٰن الرحيم

﴿ وجاء من أقصى المدينة رجلٌ يسعى ، قال يا قوم اتّبعوا المرسلين * اتّبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون ﴾ .

اتّباع الجاهل مخالفٌ لحكم العقل

سبق أن قلنا : حين عزم القوم على قتل الرُّسُل ، سارع الرَّجُل المدعو حبيب النجّار ، لنصرة دين الله ورُسله . قال : ﴿ يا قوم اتبعوا المرسلين ، اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون ﴾ ، وكما قلنا إنه قدّم برهانين على صدق النبوّة ، وإن الحقيق بالاتباع هو من سار في طريق الهداية ، وكان من أهل العلم والمعرفة ، والصلاح ، وهذا شرط أول .

﴿ أفمن يهدي إلى الحقّ أحقُّ أن يتَّبع أم من لا يَهِدّي إلاّ أن يُهدى ، فما لكم كيف تحكمون ﴾؟[1] .

فمن كان ضالاً وغير ذي علم فإنّه إذا ما تحدّث ، تحدّث بما لا يعلم ، واتّباع الضالّ ومن لا عِلْم له غير صَحيح ، فعلى الإنسان أن لا

---

(١) سورة يونس : الآية ٣٥ .

يجري وراء كلّ صوت ، أن لا يَتْبَعَ أيَّ حزبٍ أو جماعة ، بل عليه أن يدخل القانون الإلهي العام في منهج حياته ، وعلى من أراد من الناس أن يتّبعوه ، أن يرى إن كان هو نفسه تابعاً للحقّ أم لا ، فلعلّ ما يتّبعه هو الباطل !

المحتالون يتحدّثون عن الإصلاح بكلام خادع

أمّا الشرط الثاني : فهو أن لا تكون له من دعوته مصلحة خاصّة ، بل من باب التألم للناس والدعوة إلى الحق ، فالمحتالون ، كذلك ، يتكلّمون بكلام خادع تحت عناوين مختلفة ! يتكلّمون عن الإصلاح ويرفعون شعار مساعدة العمّال والبائسين بينما هم في الواقع يحبّون الجاه ويحلمون بالرّئاسة أو هم يطمعون بالمال ﴿ كلمة حقٍّ يراد بها باطل ﴾ .

انظروا ما هو الغرض من كلمة الحقِّ هذه ؟ فرق الباطل كلُّها ، عملُها هو هذا سواء كانت شيوعية أم تبشيريّة ، مثلاً جهاز البابا الدعائي الذي يشيِّد المستشفيات في المدن المختلفة يقومون من خلالها بالدعوة إلى المسيحيَّة ، ما هو هدفهم من هذه المستشفيات ؟ لماذا يريدون من الناس أن يعتنقوا المسيحية ؟ وهل إذا ارتدّوا عن التوحيد « لا إله إلاّ الله » إلى التثليث ، يهتدون ؟ لا ، بل يريدون أن تزداد أعدادهم وقدراتهم على استنزاف الأموال .

ارجعوا إلى كتاب « أنيس الأعلام » للمرحوم فخر الإسلام فهو قد أوضح هذه الحقائق فهم لا شأن لهم بالدين والإصلاح والأخلاق ، وهم إن أتوا على ذكر ذلك ، فبهدف الاستنزاف ، إن أهدافهم مادية وغير إلهيّة !.

داود كان يتعيّش من بيع الدروع

في كتاب (من لا يحضره الفقيه) يروى عن الإمام الصادق (ع)

أنه قال (مؤدّى الرواية الشريفة) : أُوْحِيَ إلى داود أَنْ : يا داود كُلُّ ما فيك حسن ، سوى أنّك لا تكسب ، وتأكل من بيت المال[1] .

فسأل داود ربّه أَنْ : يا ربِّ ، أرشدني إلى عمل أعمله ، فلا أطمع ببيت المال ، فألان الله له الحديد[2] ، فراح يصنع الدروع بيديه ويبيع واحدها بثلاثمئة درهم ، ينفق نصفها ويتصدق بالنصف الباقي ، وذلك حتى يعرف الناس أنه لا طمع له بأموالهم ، فإذا قال : اسمعوا كلامي . سَمعوا ، بعد أن عرفوا أن لا هدف ماديّاً له .

عليٌّ (ع) كان يَعمل في السِّقاية ، حتى يعرف الناس أنّه لا يطمع بمال أو جاه . كان يحمل بنفسه نوى التمر على ظهره ثم يزرعه بيده ويرعاه ، حتى إذا وافى المحصول باعه باثني عشر ألف درهم ، فيوزِّعها جميعها على الفقراء دون أن يحمل درهماً واحداً منها إلى البيت .

حتى إذا صاح من فوق المنبر : « أيُّها الناس تجهّزوا » . . . أعدُّوا العُدّة لسفر الآخرة خافوا من عذاب الله . . . علموا أنّ علياً (ع) يقول صدقاً ، فهو لا مطمع له ، إن في مالنا أو في الإمرة علينا .

أمور مُلفتة في حياة النبي محمَّد (ص)

في كُتب الرِّوايات ذكروا كلَّ خصوصيَّات النبيِّ (ص) من مأكل وملبس ومسكن وعِشْرة ، من جملة هذه الكتب كتاب (مكارم الأخلاق) للطبرسي ، فقد أوردها جميعها . في باب مطعمه يقول أَنَس : كنت طوال تسع سنوات أُحضِر للنبيِّ عشاءه وغداءه ، وأحلب شاة كانت في بيته (ص) ، وكانت نساؤه تخبزن له خبز الشعير ، يتناول معه تمراً و ملحاً إن وجدا .

---

(١) « نعم العبد أنت غير أنّك تأكل من بيت المال » . (من لا يحضره الفقيه) .

(٢) ﴿ وألنّا له الحديد ﴾ (سبأ / ١٠) .

تقول عائشة : كنا في حياة النبي لا نطبخ طعاماً إلّا في فترات يفصل بين كلّ منها أربعون يوماً ، وتوسّعنا بعده .

ورد في بحار الأنوار في باب ملبسه (ص) أنهم كانوا يطوون للنبي (ص) قطعة قماش طولها أربعة عشر متراً فيجعلها فراشاً له ، فإذا قام للصلاة وضعها على كتفه كعباءة .

كان بدنه الشريف قد نَحُفَ في السنتين أو الثلاث الأخيرة من عمره ، فكان يقول « شيّبتني سورة هود » .

وجاء بعض الروايات أن سورتي هود والنبأ شيّبتا النبي .

قالت إحدى زوجاته : طوينا فراشه ثلاث طيّات لضعف بدنه الشريف ، فنام تلك الليلة أكثر من عادته بقليل ، وقام عند السحر متأخراً ، فانتبه للين فراشه فقال : من الذي ظلمني وفَعل هذا ؟ دعوه كما كان فهو أفضل !

بيت النبي (ص) وردُّ الأمانة عند الاحتضار

يقوم بيت النبي (ص) في مكان قبره الشريف نفسه ، وما يحيط به إنما هو بيوت النبي : تسع حجرات ، وحجرة للزهراء (ع) ، ولكن ما أعجبه من بيت ! إنه في الحقيقة مجرد كوخ بسيط جدرانه من الطين وسقفه من القصب !

كتب الغزالي نقلاً عن لسان أحد التجّار أنّه : كان من الأفضل لو تركوا بيوت النبي (ص) على حالها من البساطة ، حتى تعرف الأجيال التالية زُهد محمَّد (ص) ، وهو لو شاء أن يشيد بناءَ أحجاره من الذهب والفضة لكان له ذلك ، لكنه كان يقول : أحبُّ أن أحيا كأفقر أفراد امتي .

تلك كانت حالُ نبيِّنا عندما فارق الحياة .

ورد في (ناسخ التواريخ) أنه حين مرض مرض الموت ، دعا علياً (ع) وأعطاه كيساً فيه بضعة دراهم وقال له : يا علي ، وزّع هذه على الفقراء ، ثم خاطب نفسه قائلاً : يا محمّد ، ماذا كنت تفعل لو أنّك مِتَّ وهذا المال في ذمّتك ؟!

تلك هي طريقة ومسلك من ﴿ لا يسألكم أجراً ﴾ ، هو لا يريد من الناس أجراً ، وليس له من غرض ، فهو مهتدٍ بنفسه ، ومثله يكون الهداة الإلهيّون .

المرجعُ هو من جانَبَ الهوى ولم يسأل عن عمله أجراً

لهذا ، فنائب الإمام ومرجع التقليد عند الشيعة ، يجب أن لا يكون ممن يتبعون هوى أنفسهم ، وأن يكون من أهل اليقين ، ولا يكون له من عمله غرض مادي ، ولا يأبه لكثرة المريدين والمقلّدين من حوله .

لهذا ، فالإرشاد لقاء أجرٍ باطلٌ ؛ ويرى البعض في أخذ المال على اعتلاء المنبر إشكالاً ، إلاّ أن يكون بعنوان غير عنوان الإرشاد ، وغير عنوان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كأن يبنى على سبيل نقل الحديث أو الإبكاء أو غير ذلك ، مثلاً : مجلس يقام ، والناس يأتون ويذهبون ، ولا بُد من شخصٍ يتصدّى لإشغال الناس في هذا المجلس ؛ هذا هو تبرير بعض أهل المنابر في هذا العصر .

ابن زياد أيضاً ، كان يخادع في كلامه

ابن زياد هو الآخر ، عندما أراد أن يطرح مسألة كربلاء ، دخَل عن طريق المحراب والمنبر والكلام الخادع . . . كان يصلّي ، كان يصعد المنبر ويخطب ويقول : أوَليست الفتنة شراً ؟ طبعاً هي شرّ ، حسناً . . . فالحسين أثار فتنة ، فتوجب القضاء عليه وأداً للشرّ والفتنة !!.

لم يقم أحدٌ ليقول : بل أنت من أثار الفتنة ، فأفسدت الكوفة

الهادئة المسالمة ، بما سفكته من دماء !!

لو كان الحسين (ع) يريد متاع الدنيا أو الرئاسة والسلطان ، لكان سارع إلى مسالمة يزيد بعد موت معاوية ، غير أنَّ الحسين (ع) هو ابن عليٍّ (ع) ، ابن من كان يقول : « يا دنيا غرّي غيري » فما أنا بشاريك ، أي : إن شاريكِ غيري ، يقصد معاوية .

حَسَناً . . . فمن عَرَفَ الحسين (ع) ، هل يراوده بعد هذا شكٌّ في أنه ، وأنّ دعوته (ع) كانا على الحق ؟

« ١٠ »

بسم الله الرحمٰن الرحيم

﴿ وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون * أأتّخذ من دونه آلهةً ؟ إن يُرِدْنِ الرحمٰن بضرّ لا تُغنِ عنّي شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون * إنّي إذاً لفي ضلال مبين * إنّي آمنت بربّكم فاسمعونِ ﴾ .

الموجِدْ هو من يستحق العبادة

المؤمن الجليل حبيب النّجار يقيم البرهان في مواجهة قومه المشركين : ﴿ وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه تُرجعون ﴾ ؟ يقول الرُّسُل : عليكم أن تعبدوا الذي أوجدكم من العدم ، إذ لم تكونوا شيئاً من قبل[١] ، ثم من قطرة نُطفة ، أوجَد هذا الجسد العجيب وبناءه الغريب .

﴿ فطرني ﴾ بُرهانٌ على استحقاق الله للعبادة ، فهو الذي خلق ، وهو المالك وأنت المملوك ، أنت عبده ، أنت مُلْك ربِّ العالمين ، فلماذا تعبد الأصنام على أنواعها وأقسامها ، من نبات وخشب وحجر وحديد ؟ لماذا تخضع للآخرين من إنس أو جان ؟ فالخضوع لكلّ هؤلاء

(١) ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ (الدهر/١) .

خطأ ، لأنَّ من فطرك هو الله ، وليس أحد من هؤلاء[1] !

الخوف والرجاء بالله هما مَرْجِعُ الكُلّ

﴿ وإليه ترجعون ﴾ ، قال المفسرون : هي إشارة إلى مرتبة الخوف والرُّجاء .

أيُّها الغافل ، أعلم أنك إذا مِتَّ فمرجعك إلى الله . لذا ، فعليك - إن كنت تأمل بالوصول إلى ثوابه - أن تتعبَّد له ، وأنت يا من تعبد الأصنام ، هل مرجعك بعد الموت يكون إلى الصنم ؟ ﴿ إنّا لله وإنّا إليه راجعون ﴾ افعل شيئاً ترضي به المرجع ، وليس مخلوقاً عاجزاً مثلك !

أمّا بالنِّسبة للخوف ، فَمَرجِعُك هو خالقك ، فاخْشَهُ كي لا تقع موقع غضبه وسخطه ، احذر عند موتك ، أن تكون كالعبد الهارب ، إذ يساق صاغراً مدحوراً :

وإليكم الآن برهاناً آخر :

كيف أعبد من لا يجعلني في غنىً عن غيره ؟

﴿ أأتّخذ من دونه آلهة ﴾ ؟ كان أهل (أنطاكية) من الصائبة يعبدون النجوم والملائكة ، بعد أن صنعوا أصناماً على أشكالها وراحوا يعبدونها .

يقول : كيف أدعُ الله الرحمن ، وأتّخذ إلهاً غيره ؟! وكيف أعبد النجوم والملائكة ، أو أعبد البقر كما يفعل بعض الحمقى ؟!

﴿ إن يُردنِ الرحمن بضرٍ ﴾ فليس باستطاعة تلك الألهة رفع ذلك الضرّ مهما تضافرت ، و ﴿ لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون ﴾ .

---

(١) ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق ﴾ ؟ (النحل/١٧)

أود أن أعيد على مسامعكم قصة سبق لي روايتها :

سأل المرحوم الشيخ أحمد البحريني أحد الزرادشتيين بقوله : لماذا تسجدون للنار ؟ قال : حتى لا تحرقنا غداً يوم القيامة . قال : حسناً . . . أنا الذي لم أعِر النار أي اهتمام طوال عمري سأدخل الآن يدي فيها ، وأنت أيضاً تفعل ذلك ، فنرى إن كانت يد أيّنا ستبقى سالمة ! إن النار لا شعور لها ولا إدراك حتّى تميِّز بين من عبدها ومن لم يعبدها ، وكذلك كل شيء غير النار أيضاً . حتى الحيوان والإنسان والملَك ، فلا قدرة لأحدهم على أيّ عمل أمام الله !

﴿ إنّي إذاً لفي ضلال مبين ﴾ ، إن أنا عبدت أيّاً منهم ، مع علمي أنهم لا يستطيعون عمل شيء ، فلا هم يدفعون ضرّاً ، ولا يدفعون عذاباً !

أقول : فالذين يعبدون البشر ، الذين يعبدون السلاطين ، ضلالهم بيّن كذلك !

أستودع الله بناتي

أيها المسلمون ، لا تقولوا : نحن بحمد الله لا نعبد الأصنام ! إنّك حين تعتبر أنّ غير الله ذو تأثير وحين تتصور قدرة العمل لدى غير الله ، فما الفرق بينك وبينهم ؟!

ورد في كتاب (لآلىء الأخبار) أنّ عالماً جليلاً موحِّداً كان يحتضر ، فجاء سلطان ذلك الوقت لعيادته ، وسأله عن أحواله فقال : إنّ رحيلي لوشيك .

قال السلطان : سلني حاجتك فأقضيها لك .

قال : ليس بوسعك عمل ما أنا بحاجة إليه !

قال السلطان : سمعتُ أنّ وراءك بناتٍ صغيرات فاستودعني أيّاهُنّ أجْعلهُنّ في حرمي .

قال : وكيف أستودعك إيّاهنّ وخالقهنّ موجود ؟! وهب أنّك متّ قبلهنّ فماذا يَسَعك أن تفعل ؟!

﴿ أأتّخذ من دونه آلهة ﴾ أمَعَ وجود الله أتّخذ غيره معتمداً لي ، ومعقّد أمل ورجاءٍ ؟

حين ودع الحسين (ع) نساءه وأطفاله قال : « الله خليفتي فيكم » !

فمن عقد رجاءه وأمله على أيِّ شيء غير الله . . . على المال أو الجاه أو الصاحب ، فهو في ضلال مبين .

حبيب النّجار يُقتل تعذيباً

قدّم حبيب النجّار معونته للرُّسُل قدر استطاعته ، غير أنّ قومه أحدقوا به ـ كما يروى ـ وراحوا يركلونه بأرجلهم ، وبما وصلت إليه أيديهم حتى خرجت أحشاؤه من بطنه ، ثم خنقوه وألقوه في بئر وسدُّوا بابه .

وفي رواية أخرى أنهم رجموه بالحجارة ، حتى الموت ؛ وفي ثالثة أنهم أحدثوا ثقباً في كتفه وأدخلوا حبلاً فيه ، ثم علّقوه مشنوقاً على حائط البئر ليموت بالتدريج .

وفي رابعة : أنهم نشروا جسده بالمنشار نصفين ، بدءاً من رأسه ! وأنهم حين هجموا عليه ، وأدرك أنّه مقتول لا محالة ، التفت إلى الرُّسُل وقال : ﴿ إنّي آمنت بربُكم فاسمعون ﴾ ، وهو ـ بناءً على الأشهر ـ كان يخاطب الرُّسُل . بقوله اشهدوا فإني آمنت بربُكم . ﴿ فاسمعونِ ﴾ ، وكان هذا التصريح بإيمانه آخر كلامه .

الإشهاد على الإيمان مستحسن

الأمر المستخلص من هذه الآية وَرَد الحديث عنه في عدّة روايات عن رسول الله (ص) والأئمة عليهم السلام ، فقد أوصوا أنَّ على المؤمن إنْ مرضَ مرضه الأخير ، أن يدع باب بيته مفتوحاً للعائدين ، فإذا أحسّ بحلول الأجل ، فليُرَدِّد عقائده الحقّة أمام زواره :

شهادة أن لا إله إلاّ الله ، وأن محمّداً رسول الله وخاتم النبيين ، وأن علياً وليُّ الله ووصيُّ رسوله .

وفي الرِّواية ، أن يقول بالخصوص : «وأنَّ الحسن والحسين ابنا رسول الله ، وأنَّ التسعة من ولد الحسين أولياء الله وأئمة المؤمنين ، وأنَّ الموت حق ، وأن الجنّة والنار حق . . . » هذا معتقدي ، فاشهدوا يوم القيامة .

في سياق الآية الشريفة : ﴿ لا يملكون الشفاعة إلاّ من اتّخذ عند الرحمٰن عهداً ﴾[1] فقد جاء العديد من الروايات في أصول الكافي وتفسير علي بن إبراهيم القمّي توضح كيف يحسن المؤمن وصيّته[2] يقول الإمام (ع) : ابنِ عقائدك الحقّة بنحو صحيح أوّلاً ، وإن كان لك أولاد صغار ، فعيّن لهم قيّماً ، وإن كنت ذا مال كثير فأوصي بثلثه ليكون مصدر خير لك بعد موتك ؛ أما إن كان ما لديك قليلاً فدع ثلثه ليستفيد منه ورثتك .

أما الأقارب ، فإن كان فيهم ضعيف لا يناله الإرث ، فخصّصوا لهم شيئاً من الثُلث .

كما ورد في (العروة الوثقى) ، في باب آداب المريض ، ذكر لهذه المسألة وهي أن على المؤمن في مرض موته أن يعدد معتقداته .

---

(١) سورة مريم : الآية ٨٧ .

(٢) «من لم يُحسِن وصيَّته نقص مرُوّته» (اصول الكافي) .

روى الشيخ الطوسي في (المصباح) : فليستشهد الحاضرين في المجلس ، وليكتب شهادته على ورقة . . . فلان ابن فلان يشهد بوحدانيّة الله وبعثة محمَّد (ص) وإمامة علي (ع) وأبنائه الأحد عشر وأن الموت حق والقيامة والجنّة وجهنم . . .

فيمضون عليها ويتركوا الرسالة عند المحتضر . يضعون الورقة مع جريدتين ويدفنونهما مع الميِّت . ما هو سبب هذا العمل ؟ لا نعرف .

قصّة عجيبة عن الإشهاد على الإيمان

يقول الشيخ النوري في (دار السلام) : ذات ليلة في النجف الأشرف قدم إلي رجل يدعى السيِّد محمَّد ، وهو فقيه ، ومن أخيار العلماء ، وطلب مني أن أعيره كتاب (مصباح الفقيه) للشيخ الطوسي ، قلت له : حبّاً وكرامة ، سآتيكم به غداً ليلاً إن شاء الله . وهكذا كان . وبعد مضيّ ليلة ، قدم إلي وقال : إنّ لي إليك حاجة أرجو أن تقضيها لي ، قلت : بكلّ سرور .

قال : هلاّ حضرت غداً صباحاً إلى بيتي بصحبة العلاّمة المرجع الكبير لتناول طعام الإفطار في بيتنا ؟

نقلت رغبته للمرحوم المرجع فوافق ، ولما وافيناه في صباح اليوم التالي ، وجدنا عنده إثنين من كبار العلماء وهما المرحوم الشيخ جواد النجفي والسيِّد محمد حسين الكاظميني ، مع اثنين من تلامذتهما وهكذا ، صرنا ستة أشخاص .

بعد تناول طعام الإفطار ، ذهب صاحب البيت وأتى بكتاب (المصباح) للطوسي ، وهو كتاب في الدعاء ، ثم قال :

أيها السادة أرجوكم أن تستمعوا لي ، هذه عقائدي ، فاشهدوا .

يردف المرحوم الحاج النوري فيقول : أخذت (المصباح) منه وقرأت فيه ، ثم قُلت :

الإمامُ (ع) يقول حسب الرواية : أما أن يكون هذا القول صحيحاً وسليماً ، فليس مورد رواية . فانبرى الشيخ محمَّد التبريزي وقال بانكسار : لماذا تحول دون الخير ؟ لعلّي أكون محلاً للرِّواية !

فقلت : حسناً ، أنت وما تعرف .

ثم راح يعدد عقائده واحدةً واحدة وهو في غاية الضّعف والانكسار ، وبلهجة استدرّت دموع الحاضرين ، ثم قال :

أمّا الآن فقد جاء دوركم لتقرّوا بالشهادة . فشهد الحاضرون في المجلس بما رأوا وسمعوا .

وفي المساء لقيته في صلاة الجماعة فأعطاني (المصباح) وقال : إليك أيضاً هٰذه الرسالة وأرجو أن يوقّعها المرجع العلاّمة والآخرون .

أخذت الرسالة منه ومررت بها على السادة ، وأخذت تواقيعهم عليها . وفي الليلة التالية جاء أحدهم يخبرنا أن صاحبنا مريض لا يستطيع حضور الصلاة ، ورغب إلينا أن نعوده ؛ وفي اليوم التالي ذهبت مع المرجع العلاّمة لعيادته ولم يمض على ذلك أسبوع واحد ، حتى فارق الحياة رحمه الله .

يقول الشيخ : إنّ ما يحيّرني هو : كيف عرف بدنوّ أجله ؟!

الموت مصيبة في هذه الأيّام

يكثر في هذا الزمان موت الفجأة ، دون أن يمهل أحداً ريثما يُعدّ وصيّته ؛ موت متعدد الأشكال والصور ، من سكتة قلبية إلى حادث مفاجيء ، إلى غير ذلك فهل تعرفون أحداً عَمِل بهذه الرواية ، وفكّر بآخرته وكان ممّن ﴿ اتّخذ عند الرحمٰن عهداً ﴾ ؟! .

المجلسي عليه الرحمة كان قد عمل بالإحتياط ، فخط عقيدته - وهو في حال الصحة والسلامة - على صفحة ، واستشهد عليها أربعين شخصاً ، وكانوا من ناحيتهم يكتبون تحتها : « لا ريب في إيمانه » .

هل من أحد يعمل بهذا في عصرنا ؟ ومتى تتحقق هذه الأمور في المستشفيات ؟ وإضافة إلى تلك الوضع الموصوف في المستشفيات ، أعرض لما هو أسوأ بكثير ، فالمرضى يرون إلى حدّ ما أنّ الشفاء ، من الطبيب والدواء ، أي إنهم يموتون مشركين ! « نستجير بالله العلي العظيم » .

« ١١ »

بسم الله الرحمٰن الرحيم

﴿ قيل ادخل الجنّة ، قال يا ليت قومي يعلمون * بما غفر لي ربّي وجعلني من المكرمين ﴾ .

وصل بنا الحديث أمس إلى هنا أنَّ العبد المؤمن حبيب النجار ، ساعد الرُّسُل ونصح قومه . وابتغى وأراد لهم الخير ، وخاطبهم بقوله :

أيُّها الناس الغافلون ، إنّ الرُّسُل لا يريدون منكم شيئاً ، لا يطلبون مالاً ولا سلطاناً ، إنّهم يُعلِّمونكم الطبّ الإلهي ؛ كما أنه جاءهم ببرهان بقوله : **﴿ ما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون ﴾** . . . كيف لا أعبد الله الذي هو المبدأ وهو المرجع ؟ لكنهم بدل أن يستمعوا له ، هجموا عليه ، وفعلوا به ما فعلوا !! وكلّ ذنبه أنه أخذ جانب الحقّ ، وكان لهم ناصحاً !

ادخل جنة البرزخ أيها المنتصر للحق

﴿ قيل ادخل الجنّة ﴾ يقول عدد من المفسّرين لهذه الآية : ما أن قُتل حامي الرُّسُل حتى جاء النداء إلى روحه الشريفة : ادخلي الجنة ، جاء أمر الرحمة الإلهية بدخولك إلى الرَّوضة الإلهية ؛ المراد بالطبع جنة البرزخ ، وليس جنة الآخرة والقيامة .

جنّة البرزخ فترة تبدأ من اللحظة التي يموت فيها الإنسان حتى القيامة ، أي : منذ أن يقع الفصل بين الروح والجسد ، يكون البرزخ[1] .

يمتدّ البرزخ من لحظة الموت وحتى القيامة أي إنه حالة وسط ، فهو ليس مثل الدنيا بقذاراتها وليس مثل الآخرة بشفافيّتها ولطافتها ، بل هو حد وسط والبرزخ موجود الآن في هذا العالم ، غير أنّه في طوايا الغيب ، في منأى عن المادّة والمحسوسات ، فليس بمقدور العين الماديّة أن تراه ، يمكننا أن نلاحظ مثلاً أنّ الهواء موجود إضافة إلى أنه جسم مركّب أيضاً لكنّ العين لا تراه ، وذلك بسبب شفافيته .

فالقصور هو في عيني وعينك اللتين لا تريان سوى ما هو ماديّ ، وليس بمقدورهما فوق ذلك ، فإذا ما تحررت الروح من هذا الجسد ، تضحي الأجسام البرزخيّة - وهي غير ماديّة قابلة للرؤية ؛ إنّ ما وعد الله به في القرآن المجيد ، فيما يتعلّق بالجنّة الأخرويّة ، موجودٌ أيضاً في الجنّة البرزخيّة ، فبمجرّد انفصال الرُوح عن البدن ، ترد البشارة بدخول الجنّة ، والشهيد تُمحى ذنوبه ويدخل الجنة ، فليس من عمل أكثر برّاً من الشهادة[2] .

يا ليت قومي يرون ما أنا فيه من مقام رفيع

رأى الشهيد حبيب النّجار نِعَم ربّه فقال : ﴿ يا ليت قومي يعلمون﴾ . . . ليت قومي - في غفلتهم ، وانشغالهم بالمادة ، واستسلامهم للشهوات - يعلمون ما فزت به من فضل الله بعد الموت ، ليتهم يعلمون أيّ إكرام واحترام يناله المؤمنون ، ليتهم يعلمون كيف جعلني ربّي من المكرمين .

---

(١) ﴿ ومن ورائهم برزخٌ إلى يوم يبعثون ﴾ (المؤمنون / ١٠٠)

(٢) « فوق كلّ ذي برّ برّ ، حتى يُقتل الرجل في سبيل الله » : (سفينة البحار/ج ٢/ص : ٦٨٧).

قال هذا المؤمن قولاً نقله الله عزّ وجلّ عنه ، هذا القول يتضمّن تشويقاً لي ولكم كي نتبّع سبيل المكرمين .

إنّ لله عباداً مكرمين يدخلهم جُنّته البرزخيّة بكلّ إعزاز وإجلال ، بل يُروى أنّه بعد انفصال روح المؤمن عن جسده فإنّ عدداً من ملائكة العالم الأعلى يحملونه ويصعدون به مزيّناً بالورود إلى عتبات العرش .

ذلك الذي يرى الموت تهلكة

ليس الموت حالة عدميّة ! فلماذا تستوحشون من الموت وتتصورون فيه العدم المناقض للوجود ؟! ألستم مسلمين ومن أهل القرآن؟فمن يخاف من الموت إنما هو من يكفر بالقرآن،لأنه يعتبر الموت فناءً . . . يعتبره عدماً ، لذا فهو يخافه . أما المؤمنون فلماذا يخافون الموت ، لماذا ـ إذا مات قريب لكم ـ تجزعون وتفزعون إلى هذا الحدّ ، فهل وصل إلى العدم ؟ هذا كفر بالقرآن والأخبار ؛ فإن لم يكن قد بلغ العدم فما هذه الأمور التي تأتونها إذاً .

هذا الجسد كان أشبه بموكب يقوده راكبه نفسه ، ثم انطلق عنه وغدا أكثر تحرراً ، كما يمثله الإمام الصادق (ع) بأنه كان طائراً في قفص انفتح بابه فأصبح طليقاً . أو بعبارة أخرى : كان جوهرة في صندوق أخرجت منه فبان تلألؤها .

عالم الأرواح هو كذلك في هذا الجوّ اللامتناهي ، إلاّ أنه في طوايا غيب هذا العالم .

إنّ من طبع البشر والتعلّق بما حولهم ، فإذا رَحَلَ أحدهم قبل الآخرين وانفصل عنهم تأثّروا . لذا فلا مانع من التأثر ، ولا ضرر في البكاء ، ولكن الكلام هو أن لا يكون هناك جزعٌ أو فزع .

يجب التصديق بأن الموت هو أوّل الوصال ، هو أوّل التمتّع بنعم

الله ووعوده . لقد صمتم شهر رمضان المبارك عمركم ، وحـان الآن وقت الأجر ، وأزف وقت الاستمتاع بذخيرة العمر .

مكانُكم في الجنّة فمهِّدوا من هنا سبيله

ما أن يولد أحدنا حتى يتحلّق الجميع حوله ، ويروحوا يتناقلونه من يَدٍ إلى يد وهم فـرحون ، وينتهي بـه التطواف إلى المهـد ، أو إلى حجر أمّه .

بعد ذلك يَهبُك الله تعالى أنواع النِّعم المادِّيّـة ، البيت والمعاش ، المرأة والولد ، وذلك حتى آخر يومٍ من العمـر ، حيث يستعيد منـك كل شيء ، ويخلّيك عرياناً كما ولدت ، إلّا من كفن يستر عريك .

« أجيبـوا داعي الله » محمَّد (ص) داعيـة إلهي ، يقول لكم : أيهـا الناس اعملوا ما فيه ضمان لحياتكم بعد موتكم ، حتى إذا ما دعـاكم الله إليـه ، استبشرتم . أعـدّوا موقعكم البـاقي من هنا ، كيف يكـون ذلك ؟ اسمعوا محمَّداً (ص) يقول :

« يـا معاشـر النساء ، تصـدّقن وأطعن أزواجكّن ، فإنّ أكثـركنّ في النار » .

فلمـا سمعن ذلك بكين ، ثم قـامت إليه امـرأة منهن فقـالت : في النـار مع الكفّـار ؟ والله ما نحن بكفّـار فنكون من أهـل النار ! فقـال لهـا رسول الله (ص) : إنكنّ كافرات بحقّ أزواجكنّ »[1] ! !

﴿ وقدموا لأنفسكم ﴾ تصدّقوا ، وخـاصّة على أرحـامكم الفقراء ، بما تعمرون به بيوتكم الآتية .

كان لأحدهم مخزن من تمر ، فأوصى الرسول (ص) أن يوزع ما فيه

---

(١) (سفينة البحار / ج : ٢ / ص : ٥٨٨) .

على الفقراء بعد موته ، وبعد أن مات ، وبينما الرسول يوزّع التمر ، سقطت حبّة منه على الأرض ، فرفعها صلوات الله وسلامه عليه وقال :

« لو تصدّق هذا الرَّجل بيده تمرة واحدة ، لكان خيراً مما تصدقته عنه »[1] .

أنت رجائي عند مماتي

أيُّها المسلم ، أعِدَّ جنّتك البرزخية من هنا قبل أن يدعوك الله إليه ، انتفع بجسدك ومالك وقلبك ، آمِنْ بالله وقُمْ بالأعمال الصالحة بجسمك ومالك ، محبّة آل محمَّد (ص) يجب أن تُعَدَّ من هنا ، حتى إذا حلَّت لحظة الموت وجاء علي (ع) للقائك ، كان لديك بالفعل شوقٌ للقاء المحبوب ، فتسلم الروح باطمئنان وسعادة ، بعد أن تكون قد زهدت بكلِّ شيء .

لقد ذَكَر الدُّعاة الإلهيون كلَّ ما من شأنه أن يسبب الخراب والخسران ، كما تحدثوا عن آفات العمر .

فيا أيها الصائم : لقد قمت بعمل حسن ، فاحذر أن تفسده بالغيبة ؛ لقد شيَّدت بنياناً ، فاحذر أن تهدمه بالبهتان على مؤمن ، لأنك بذلك إنّما تهدم بيتاً . بنيته بصيامك في هذا الشهر المبارك .

○ ○

---

(١) (لآلىء الأخبار / ص : ٢٧٧) .

«١٢»

بسم الله الرحمٰن الرحيم

﴿ قيل ادخل الجنّة . قال : يا ليت قومي يعلمون * بما غفر لي ربّي وجعلني من المكرمين * وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين * إن كانت إلاّ صيحة واحدة فإذا هم خامدون ﴾ .

لقد قتلوا بقتلهم مؤمن آل ياسين ظهيراً للرسل ونصيراً للحق ، فقيل له : **﴿ ادخل الجنّة ﴾** ، فلمّا دخلها قال : **﴿ يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين ﴾** ، يا ليت أولئك الذين قتلوني يعلمون قيمة الغفران الإلهي ؟

إنّ الرُسُل والدُّعاة الإلهيين دعاة للخير فعلاً ، لأنّهم لا يحرّكهم سوى الإشفاق على هذا الخلق ، فهم يريدون لهم النجاة وبلوغ السعادة .

وهو ـ مع أنّهم ضربوه وقتلوه ـ لم يَلْعَنْهم ، بل أشفق عليهم ، وتمنّى لو أن أولئك الجهلة قبلوا نصيحته ، يا ليتهم كانوا يدركون .

قُلْنا إنّ المقصود بالجنة ، جنّة البرزخ ، التي تكون من نصيب المؤمن منذ لحظة موته وحتى يوم القيامة ، فإن كان هناك مؤمنٌ قد اقترف ذنوباً ، ومات دون توبة ، فسيبقى بين عذاب وثواب برزخيّين بعدد

ساعات عمره حتى يصفو في نهاية الأمر . وإذا طهر من ذنوبه وهو في البرزخ ، كما يحدث أحياناً ، ورد المحشر دون حساب .

قال بعض المفسّرين : في تفسير الاية ﴿ قيل ادخل الجنة ﴾ ، يجب أن يرد ما يفيد قتل هذا المؤمن أولاً حتى يقال بعدها : « قيل ادخل » ، فليس هناك ما ينبىء بقتله .

أقول : علة ذلك أن السياق يفيد وقوع الموت قبل هذا القول ، بقرينة الأية : ﴿ وما أنزلنا على قومه من بعده . . . ﴾ فمن عبارة « من بعده » يُعْلَم أنّ ذلك كان بعد موته ، لذا فليس من ضرورة لورود الحديث عن القتل .

الشهيد يرد الجنة لحظة استشهاده

النُكتة اللطيفة الأخرى في هذا الصدد هي أنّه تعالى لم يَقُل : « قتلوه وقيل . . . » وذلك لكي يُشْعِرَنا بشِدَّة الاتّصال بين الأمرين ، وذلك بدمج القتل والقول بدخول الجنة ، الأمر الذي يفيد معنى اتصالهما الشديد ، إذ في اللحظة التي أسلم فيها الروح بالذات كانت الجنّة مكاناً له دون أي فاصل زمنّي .

هناك رواية عن الإمام الصادق (ع) يخاطب بها بعض خواصّه بقوله ما مفاده :

ليس بينكم وبين ما ينير أبصاركم إلاّ أن تبلغ الرُوح الحلقوم ، فتلك هي بداية تحقّق وعود الله .

قول الإمام المجتبى عند الوفاة

اليوم هو منتصف شهر رمضان ، وهو يصادفُ الذكرى السعيدة لولادة الإمام المجتبى سبط النبيّ الأكرم(ص) وبهذه المناسبة أنقل رواية عن إسلامه (ع) الرُوح :

ورد في (المجالس السَّنيَّة) نقلاً عن (أمالي الطوسي) في وفاة الإمام الحسن المجتبى (ع) ، عندما كان في لحظاته الأخيرة ، كان أخوه الحسين (ع) بالقرب من فراشه ، يده في يده ، فسأله عن حاله ، فقال (ع) :

« آخر يوم من أيام الدنيا ، وأوَّل يوم من أيام الآخرة ، على كره من فراقك وفراق عترتك » .

واستناداً إلى هذه الرواية فقد بادر عليه السلام إلى القول من فوره :

« أستغفر الله مما قلت ، بل على شوق من لقاء جدّي رسول الله ، ولقاء أبي أمير المؤمنين ، ولقاء أمي فاطمة » .

فيا أيّها المؤمنون والمؤمنات ، لتكن حالكم عند الموت كما كانت حاله عليه السلام ، فإن ابتليتم بفراق الأقارب في الدنيا ، فإن في انتظاركم رحمة الله اللامحدودة ، والفوز بوصال الأخيار في عالم البرزخ ، والأرواح الشريفة التي ارتحلت قبلكم ، والأحبّة الذين ينتظرون مقدمكم ، ﴿ وحَسُنَ أولئك رفيقاً ﴾ .

إن أردت اتخاذ رفيق لك بعد الموت فليكن اختيارك لرفيقك من أهل الإيمان والصدق والصفاء والمحبة والحقيقة ، ففي الجنّة لا وجود لحسود وإلّا لما كان روّاد الجنّة من ﴿ الأخلّاء يومئذٍ ﴾ .

المحبّة تَبْرُزُ هناك ، والمؤمنون إذا ما تلاقوا ، تلاقوا « إخواناً » ، فالوضع هناك لا يُشبه الوضع في الدنيا على الإطلاق .

إن الآخرة هي دار الجمع ، ويوم الجمع ، يومٌ ورد الوعد بحلوله في موضعين من القرآن المجيد وفيه يبلغ الأنس بالمؤمن أقصاه ، إذ يجتمع فيه بأولاده في مكان واحد[1] .

---

(١) ﴿ ألحقنا بهم ذرّيّتهم ﴾ (الطور/٢١) .

بصيحة سماويّة أهلكناهم

﴿ وما أنزلنا على قومه من بعده من جندٍ من السماء وما كنّا منزلين ﴾ .

هاتان الآيتان تصوّران قهر الله ، فالمؤمن ، وعلى الأخص المؤمن المتّصف بالكمال ، عزيز على الله ، وقتله أمر في غاية الخطورة ، والله الكريم يكشف عن حمايته وانتصاره لحبيب النجار .

ففي تلك السّاعة ، بناء على رواية ؛ أو في اليوم التالي ، بناء على رواية أخرى ؛ أو بعد ثلاثة أيام ، بناء على رواية ثالثة ، تجلّت أرادة المولى عزّ وجل ، في الانتقام من القوم الضالّين .

وقد لفت عزّ وجل قبل ذلك إلى لطيفة ، قتل القوم عبداً خالصاً لله ، فبعد أن قتلوا عبدنا المخلص ، لم نرسل عليهم جيشاً من السماء ، إذ هم أحقر من ذلك ، فلا يستلزم إهلاكهم جيشاً من السماء . وليسوا على هذا القدر من الأهمية فإنما هي صيحة واحدة ، وقضي الأمر .

تقول الرواية : ورد الأمر إلى جبرائيل بأنْ يصدر عليهم صيحة واحدة ، ففعل ، وكان فيها هلاكهم ! هل في مقدور الإنسان على ضعفه أن يتحمّل صوت القهر الإلهي ؟! فلنراقب أعمالنا ، ولنلاحظ شدة ضعفنا .

ضعيف ويعصي قوياً

يقال انه اتفق لأحد المترفين الخاطئين أن مرّ يوماً على مجلس وعظ ، فسمع من الواعظ جُملةً غيَّرت مجرى حياته .

كان الواعظ يقول : « عجبتُ من ضعيف كيف يعصي قوياً » .

انتبه الرجل إلى ضعفه ، فتغيّرت حاله ، كانت تلك الجملة كالسهم وقع على قلبه ، فبادر إلى تغيير مسرى حياته ، وأقبل على الله .

قولوا له : أنّ لله يوماً يخسر فيه المبطلون »[1] .

فيا أهل الباطل ، إن الخسران الحقّ في يوم الحشر ، لقد أنذروكم بعذاب من الله شديد ، فسخرتم ، لقد غرّتكم الحياة الدنيا ، ولن يطول الأمد بكم ، فسرعان ما ستوقظكم من غفلتكم وغروركم صيحة الموت[2] .

(١) بحار الأنوار ، طبعة حديثة ، ج ٤٦ ص ٦٨ .

(٢) ﴿ وذر الذين اتّخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرّتهم الحياة الدنيا ﴾ (الأنعام/ ٧٠) .

« ١٣ »

بسم الله الرحمٰن الرحيم

﴿ يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلّا كانوا به يستهزئون * ألَم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنّهم إليهم لا يرجعون ﴾ ؟

القيامة يوم منير مقابل الدنيا المظلمة

الكلام في الآية : ﴿ يا حسرة على العباد . . . ﴾ يكشف حقيقة حال الإنسان في عالم البرزخ ويوم القيامة ، حيث تنكشف الحقائق ، ويبرز ما كان خافياً . وإذا ذاك ، سيرى الذين كانوا يهزأون بالرسل وتابعيهم ، ويسخرون من الدعاة إلى الله ، ومن دعوتهم إلى الآخرة سيرون أيّ أسفٍ وندمٍ يحلّان بهم عند انكشاف الحقيقة .

يعبّر القرآن المجيد عن القيامة دائماً بكلمة « يوم » : (يوم الآزفة ، يوم القيامة ، يوم الواقعة) . في القيامة ، لا وجود للشمس كما هو الحال في الدنيا[١] .

فلماذا التعبير بكلمة يوم إذاً ؟ اليوم أي الضياء في مقابل الليل

---

(١) إذا الشمس كوّرت ـ جمع الشمس والقمر .

الذي هو الظلام . في الدنيا ظلمة ، فالحقيقة مستورة والبواطن خافية ، الحقائق غير واضحة ، والموت هو بداية الفجر الحقيقي لانبلاج الحقائق . مثلاً ، مهما حاولت في هذا العالم أن تعرف علياً (ع) على حقيقته ، فليس بمقدورك ذلك ، لأنه مستور عنك ، أما بعد الموت ، حيث تنفتح عينُك البرزخية ، فبإمكانك أن تدرك علوَّ عليّ (ع) وعظمته إلى حدٍّ ما ، فهو يد الله المقتدرة ، ونعمتة على الأبرار ، ونقمته على الفجّار[1] . منذ اللحظة الأولى لولادة الإنسان وحتى موته ، لَيْل . ثُمَّ منذ اللحظة الأولى للموت فما بعد ، نهارٌ وانكشافُ للحقيقة .

دَعِ الحقيقة تنكشف ، فماذا يحدث إذا ذاك لأولئك الذين كانوا يستهزئون بالرُّسُل عندما يَرَوْن منزلتهم الرفيعة . . . عندما يرون المنزلة الرفيعة للعلماء العاملين وأولياء الله ، أولئك الذين كانوا ينظرون إليهم في الدنيا بعين الهزء والسخرية .

رفيق السلطان وانكشاف الحقيقة

أعرضُ باختصار قصة من كتاب « الفرج بعد الشدة » ، بغرض تبيان مقدار الأسف الذي يصيب الشخص بعد انكشاف الواقع له ، وبهدف التنويع في المطالب ، ودفعاً للملل .

كان في إحدى مُدن الهند سلطان قدير وعادل . مات هذا السلطان ، فخلفه ابنه وكان كأبيه في إيمانه وعدله ورحمته بالناس ، إلاّ أنَّ شخصاً طاغياً ظَهَر في هذا البلَدْ وثار عليه .

رأى الأمير أن الدِّماء تُهرَق والفساد ينتشر ، فقال في نفسه : من الأفضل أن اتنحّى وأغادر البلد .

لبس الأمير جُبَّته الملوكية ، وكان فيها الكثير من الجواهر التي

---

(١) الزيارة السادسة لأمير المؤمنين (ع) .

كانت معدّة مسبقاً لوقت الشدة ، وانطلق إلى البادية ماشياً ، دون أن يحمل معه شيئاً من طعام أو مال .

كان انطلاقه في الليل ، وفي اليوم التالي وصل إلى ساقية ماء تحيط بها الأشجار ، فجلس تحت إحداها يستريح ، فإذا به يرى شخصاً يقترب منه وهو يحمل على ظهره كيساً . قال في نفسه : لا بُد أنه مسافر مثلي ، فلماذا لا أرافقه ولعلّي أنال منه طعاماً أدفع به الجوع .

وصل المسافر الغريب أخيراً ، فجلس تحت شجرة بالقرب من ساقية الماء ، ثم أخرج طعاماً من كيسه ، وشرع يأكل دون أن يدعو السلطان لمشاركته ، والسلطان بدوره خجل أن يسأله . ثم انطلقا معاً وبعد مسيرة طويلة حلّ وقت الطعام ثانية ، فجلس الغريب وفتح كيس الزاد ، وراح يأكل دون أن يدعو السلطان أيضاً .

استمر السلطان الفار في رفقة الرجل يومين دون أن يَطعم شيئاً ، وفي اليوم الثالث ، كاد السلطان يفقد القدرة على الحركة فقرّر الإنفصال عن المسافر الغريب وتابع سفره وحيداً .

وصل السلطان إلى مكانٍ معمور ، فاقترب من ذلك المكان ، فرأى عمالاً يشتغلون في تشييد بناء ، فطلب من المشرف على البناء أن يسمح له بالعمل معهم على أن يدفع له أجر عمله ، فوافق .

شرع السلطان في العمل ، لكنه كان ضعيفاً لا يقوى على الاستمرار ، فسأل المشرف أن ينقده شيئاً من أجرته مقدّماً ، فوافق .

ذهب السلطان فابتاع طعاماً سدّ به جوعه ، واستعاد قوته ، ثم عاد إلى العمل بنشاط .

لاحظ المشرف أنّ هذا العامل ليس شخصاً عادياً إذ يبدو من تصرّفه وسلوكه أنه من النبلاء ، وأنّ حركاته تنمّ عن أصل رفيع ، فراح إلى صاحبة البناء ، وكانت سيدة محترمة ، وقص عليها ما جرى ،

فطلبت منه أن يأتي به إليها وما أن رأته حتى عرفت جلالة قدره فدعته لضيافتها فوافق بكل ترحاب ، فهو لا يعرف مكاناً يأوي إليه .

لاحظت السيّدة أدبه وحسن شمائله ، فعرضت عليه الزواج بها فرضي ، وعاش معها ثلاث سنوات يتقلب في نعمٍ وهناء عيش دون أن يفصح لها عن حقيقته .

وذات يوم التقى شخصاً من أهل مملكته ، فسأله عن أحوال الهند ، فقصّ عليه قصّة الطاغية ، وأنه ـ بعد حكم جائر امتدّ ثلاث سنوات ثار الناس عليه ، وقتلوه ، ثم أرسلوا الرسل في البلاد يبحثون عن سلطانهم ، وأنه واحد من أولئك الرسل .

فلما سمع السلطان كلام الرَّجل عرّفه بنفسه وأراه جبّته الملوكيّة ، ثم رجع إلى زوجته ، وباح لها بالحقيقة ، وطلب منها انتظاره ريثما يذهب لاستعادة ملكه .

عاد الرسول إلى قومه وأخبرهم بعثوره على السلطان ، فخرج الناس والأعيان ورجال الجيش لاستقباله ، وهكذا استعاد ملكه دون أيّ عائق .

تذكر السلطان ما عانى خلال سفره ، ورأى كم هو صعب على المسافر أن يكون وحيداً ، وخصوصاً إذا كان فقيراً ، فأمر بأن تُقام المحطات على طول الطريق ، وبأن يعطى كلّ مسافر في كلّ واحدة منها زاداً لثلاثة أيّام . كما أمر بأن يأتوه بكل غريب يقدم المدينة ، علّ له حاجة فيقضيها له .

ذات يوم ، أحضروا للسلطان رجلاً غريباً ، وما أن رآه حتى عرف به ذلك الخسيس رفيقه في السفر فسأله :

هل تعرفني ؟

قال الرَّجل : أنت السلطان .

فقال : لا ، بل أنا رفيقك في السفر !

وما أن انكشفت الحقيقة للرُّجل حتى تمنى أن تنشق الأرض وتبتلعه . فقال السلطان : لا عليك ، فلن ترى مني إلّا ما يرضيك .

ثم أمر بأن تفرد له غرفته الشخصية ليكون مقامه فيها ، وراح يشركه في طعامه ويبالغ في إكرامه .

وعندما حلّ اللّيل وجاء وقت النوم أمر بأن يرقد في سريره الخاص ، ووضع في تصرّفه أفضل جواريه .

مضى قسمٌ من الليل ، وإذا بالجارية تدخل على السلطان وتخبره أن ضيفه يغطّ في نومٍ عميق ، وهو في أتمّ راحة . فقال السلطان :

أخطأت ، فقد مات الرجل !

فذهبوا إلى حيث ينام الرَّجل فكان الأمر كما قال السلطان ، عندها قال السلطان : لقد مات هذا الرَّجل أسفاً وحسرة وندامة ، وهذا ما كنت أريده .

الحسرة عند كشف الحقيقة

أيُّها الناس ، ستكون الحسرة عاقبة للجميع ، إلّا أولئك الذين عرفوا في هذه الدنيا قدر دعوةَ الأنبياء ، فربّ العالمين يقول : ﴿ يا حسرة على العباد ﴾ . . . الذين أداروا ظهورهم للداعين إلى الله ، ولم يعبأوا بعلمائهم ! .

يا حسرة عليهم حين يعرفون حقيقة مقاماتهم ، وسموّ شأنهم .

يا حسرة عليهم حين يكتشفون كيف يجزي الله إساءاتهم بإحسانه ، بل ويزيد فيه فيا ويلتاه للإنسان حينما تتكشّف الحقيقة !!

في الموقف الأول من مواقف يوم القيامة ، تصيب الناس حالة من

الحيرة والبهت ، تلازمهم مدّة أربعين سنة ، ثم تأتيهم حالة الخجل الشديد ، فعن رسول الله (ص) أنّ العبد في هذا الموقف يتصبّب عرقاً من شدة الخجل ، فيتمنى لو يسوقوه إلى جهنّم ليتخلص من هذا الموقف[1] .

كيف أهلكنا السابقين

حينما يقول الله تعالى في مقام وعيد المستهزئين بدعوة الأنبياء : ﴿ أوَلم يرَوا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون ﴾ ... انظروا إلى الذين سخروا بأنبياء الله ماذ حلّ بهم ، إنّكم تمرُّون على مدنهم في أسفاركم فترون كيف جعلنا مدائن لوط مؤتفكات أبدناها وجعلنا عاليها سافلها[2] ، جزاء ما عملوا .

ولقد أهلكنا قبلهم العديد من القرون الماضية[3] ، فاعتبروا ! لقد حقّت عليهم كلمتنا بعد أن طَغْوا وعَصَوْا ، فمنهم من أغرقنا ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أخذته الصيحة كقوم حبيب النجّار[4] فاحذروا أن يصبكم ما أصابهم .

﴿ أنّهم إليهم لا يرجعون ﴾ فقد هلكوا وبادوا ، ولن يرجعوا إليهم ! .

« الأمة المرحومة » من اتّعظت بالماضين

يذكر أحد الأجلّاء عن « الأمّة المرحومة » التي هي أمّةُ نبيّ آخر

---

(١) (بحار الأنوار ، مجلد : ٣) .

(٢) ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين * وبالليل أفلا تعقلون ﴾ . (الصافات/١٣٧ و ١٣٨) .

(٣) ﴿ فجعلنا عاليها سافلها ﴾ (الحجر /٧٤) .

(٤) ﴿ فكلاً أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا ﴾ (العنكبوت/٤٠) .

الزمان ، يذكر وجهاً مناسباً لكلمة « المرحومة » . وهو أنّ هـذه الأُمّة هي الأُمّـة الأخيرة فمن يكن من أهـل آخر الـزمان تكن الـرحمة المؤكـدة من نصيبه ، إذ هو يَعْتَبِرْ بما حَلَ بالماضين ؛ ذلك أن من كان في المقدّمة قد لا ينتبه للهُوَّة أمـامه فيقـع فيها أمـا المتأخّـرون عنه فيشـاهدون مـا يجري أمامهم فيحاذرون السقوط .

فيا أهل « الأمة المرحومة » ، لقد رأيتم ماذا حَلّ بقوم لوط وصالـح وهـود ، وقرأتم عنهم في كتب التـاريخ ، وهـا أنتم تشاهـدون آثارهم في أسفاركم ، فلماذا لا تعتبرون ؟!

« ١٤ »

بسم الله الرحمٰن الرحيم

﴿ وإن كـلٌّ لمّا جميعٌ لدينـا محضرون * وآيـة لهم الأرض الميْتة أحييناها وأخرجنا منها حبّاً فمنـه يأكلون * وجعلنـا فيها جنـاتٍ من نخيل وأعناب وفجّرنا فيها من العيـون * ليأكلوا من ثمـره وما عملتـه أيديهم ، أفلا يشكرون ﴾ ؟ .

لا بُدَّ للجميع لهم أن يُحضروا لدى الله

قال تعالى : ﴿ أوَلَمْ يَـرَوْا كم أهلكنا . . . ﴾ ألا يـرَوْن كم أهلكنا قبلهم من الأقـوام ؟ لمـاذا لا يعتبـرون إذاً ، ولا يـرعـوون ؟! إنّ كلمـة « هـلاك » ترسم في الأذهـان معنى العدم في حين أن المـراد بها مفـارقة الدنيا والانتقـال إلى عالم الجـزاء ، وقد قلنـا إن الموت من وجهـة النظر السطحيّة للإنسان يعني العـدم ، إلاّ أنه من وجهـة نظر العقـل والشرع لا يعني العدمَ المحض ، بل يعني الإنتقال من مكانٍ إلى آخر وتبديـل ثوبٍ بآخر .

﴿ إن كلّ لمّا جميـع لدينـا محضرون ﴾ ، فـلا هروب من مـوقف الحساب ، كلّهم محضرون ، ولا نستثني أحداً .

يقول تعالى في سورة الرحمن :

﴿ يـا معشـر الجن والإنس إن استـطعتم أن تنفُـذوا من أقـطار السموات والأرض فانفُذوا ، لا تنفذون إلاّ بسلطان ﴾[1] .

يُروى في سياق تفسير هذه الآية الشريفة أنّ ملائكة السّمـاء الأولى يصطفّون حلقاتٍ حول صحراء المحشر ، ويصطفُّ ملائكة السماء الثانية خلفهم ، وهكـذا حتى يصـل الـدور إلى مـلائكـة السّمـاء السـابعـة ، فيصطفّون وراء ملائكة السماء السادسة ؛ وبذلك يُحاصَر أهل المحشـر ، وإذ ذاك يـرتفـع النـداء : ﴿ يـا معشـر الجنّ والإنس إن استـطعتـم أن . . . ﴾ .

الجميـع محضرون في محكمـة العدل الإلهي ، وبـرفقة كـلّ منهم ملكان[2] ، يلازمانه أينمـا أريد لـه أن يتوجّـه ، حتى يبلغ محل العـرض على الله .

نفسي الفـداء لمن لا يحتاج إلى سـائق وشهيد ، فهـو يحضر وقـد أعدّ للموقف المهيب عدّته ، واستوفى حسابه !

﴿ محضـرون ﴾ إلى حيث الميقات الإلهي[3] ، فـالقيامـة والمعاد اللذان تشير إليهما هذه الآية ، ورد البـرهان عليهمـا في الآيات التـالية ، فبالإضافة إلى الدليـل على المعاد يـرد الدليـل على التوحيـد الأفعالي لله تعالى .

آية القيامة إحياء الأرض الميتة

﴿ وآيـة لهم الأرض الميتة ﴾ ، الآيـة ، الدليـل والبرهـان ، فـآيـة المعاد هي الدليل على أنّ أمامـك عالمـاً آخرُ بعـد الموت ، تحصـل فيه على سعادتك التّامّة ، فما هو هذا العالم ؟

---

(١) سورة الرحمن : الآية ٣٣ .

(٢) ﴿ وجاءت كلُّ نفس معها سائق وشهيد ﴾ (ق / ٢١) .

(٣) ﴿ قل إنّ الأولين والآخرين * لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ﴾ (الواقعة / ٤٩ و ٥٠) .

يقـولون : كيف يمكن لهـذا الجسـد المهترئ أن يبعث حيّاً من جديد ؟! انظر إلى الأرض الميتة تحت قدميك ، تر كيف يُحييها الله بعـد موتها .

مـوت كـلّ شيء وحيـاتـه ، يتنـاسبـان وخصـوصيّـة هـذا الشيء ، فـالأرض لها حيـاتهـا ومـوتهـا اللذان يتنـاسبـان معهـا ، ولـذلـك مـراتب ومـراحـل ، فمن إنبـاتٍ للزرع ، إلى تـوقّف عن الإنبـات ، ففي فصلي الخريف والشتاء ، مرحلة لموت الأرض ، تعقبها مرتبـة الحياة مـع بدايـة فصل الربيع ، ويـا لها من حياة يفيضها عليها الرحمن ، فالأرض الجافة الهامدة ، يهبّ عليها نسيم الربيع فيحرّكها ، فتهتزّ وتظهر فيهـا الشقوق ، وهي الأرض الصّلدة ، فتُطِلُّ الحبّة برأسها ، وينمو النبات والزَّرع .

حياة الأرض هذه ، من الـذي قدّرهـا في هذه المـرحلة بالـذات ، ولماذا لم يكن الشتاء والخـريف موعدها ؟ أليست هذه الحياة المتجـدّدة آية ودليلاً على المعاد ؟

يضاعف حبّة القمح الواحدة سبعمئة حبّة

﴿ آيـة لهم الأرض الميتـة أحيينـاهـا وأخـرجنـا منهـا حبّاً فمنـه يأكلون ﴾ .

الحُبـوب ، الحب : ومن أهمهـا القمـح والشعيـر والعـدس والأرز وغيرها ، وحبّة القمح الواحدة تُصبـح سنبلة ، تتراكب فيهـا سبعون حبة إلى سبعمئة ، إنه عـرض للقدرة الإلهيـة ، تبيّن للإنسـان مقدرة المـدبّر اللامحدودة !

تـزرع نواة تمـر واحدة ، فتتحـوّل إلى شجرة لهـا فـروع وأوراق ، تحمـل المئات من حبّـات التّمر ، ولكـلّ واحدة نـواتها ، إنـه استعراض للقدرة الإلهية كذلك ، إن من خلق القمح ، خلق لك الأسنان لكي تأكل بها ، ومن وهبك حاسة الذوق أودع في التمر حلاوته .

الحركة في الكون حركتان : كيفيّة وكميّة ، وكلُّ حركة تحتاج إلى محرِّك ، فلا يمكن لشيء أن يتحرُّك من ذاته ، عنقود العنب مثلاً ، يكون في بدايته أصغر من حبّة القمح حجماً ، ثم يَكْبرُ بالتدريج ؛ فهذه الحركة الكميَّة ، من هو الذي يحرّكها وفق تسلسل ونظامٍ ثابتين ؟

حبَّة العنب هذه ، تكون في البداية حامضة الطعم ، ثم يحلو مذاقها شيئاً فشيئاً ، حتى تبلغ أحياناً درجة الحلاوة اللاذعة ، فهذه الحركة الكيفية ، ألا تحتاج إلى محرِّك ؟ فمن هو المحرك للعنب في حركتيه ، الكميّة منهما والكيفيّة ، أليس الله ؟ من الذي يَهَبُ الحياة للأرض اليابسة ويُنبت النبات ؟

ما أصدق ما قاله سعدي الشيرازي :

الشمس تعمل والسحاب والشجر	والريح والفلك الوسيع والقمر
كيما تنال رغيف خبز ناضجاً	تقتات منه غافلاً وبلا حذر
كن منصفاً واشكر المولى وكن	عبداً مطيعاً للإله بما أمر

إنبات الحبّة آية على المعاد

هذا هو التوحيد الذي يستفاد من الآية . أما فيما يتعلق بالمعاد ، فالسادة المزارعون يعلمون أنّ البذر الذي يزرعونه في الأرض ، يتلاشى بعد مدّة من وصول الماء إليه ؛ ونواة التمر بصلابتها المعروفة ، إذا ما استقرَّت في التراب ولحقها الماء ، فإنّها تتلاشى ، ثم تُطل برأسها من التراب وهي خضراء ، فيتّجه نصفها صعوداً ويكوّن ساق الشجرة ، ويتجه النصف الآخر نزولاً فيكوّن الجذور .

محلُّ شاهدنا هُنا هو أنّه بَعْدَ تلاشي النواة مَنْ الذي أعادها إلى الحياة ثانية ؟ أليس الله ؟ وهذا تماماً ما يجري لجسمي وجسمك ، فإن سألت ماذا يحدث بعد أن يتحلّل الجسد ، أجبك بأن ما تشاهده من

آيات في الدنيا ، إنّما تعطيك صورة عما يحدث فهلاّ تذكّرت[1] ؟ .

العظام التي تلاشت ، تعود الحياة لتدُبُّ في ذرّاتها المتفرّقة بعد أن يكون الحقُّ تعالى قد شاء للقيامة أن تقوم وبعد أن تُنفخ نفخة الإحياء[2] ، مع التغييرات التي تطرأ على الجسم بالطبع .

هذه المرّة يكون الجسم لطيفاً ، خاصة إذا كان صاحبه من أهل الجنّة ، أما النساء من أهل الجنّة ، فقد جاء أن الحور العين يحسدنهُنّ ، لما يكُنّ عليه من حسن وجمال ، والجسم يتركّب من المواد نفسها ، إلاّ أنّ الشكل يتغيّر ، طبقاً للأعمال ، فمن كان من أهل الجنّة فعمله مطابق لأعمال الملائكة فلا يصدر عنه إلاّ الخير إن شاء الله ، وإلاّ فهو من أهل العذاب وأجسام أهل العذاب تكون ضخمة الحجم ، كي تناسب شدة العذاب الذي ينزل بهم .

﴿ وجعلنا فيها جنّات من نخيل وأعناب ﴾ : هذه الرياض والبساتين التي تطالعنا بما تحويه من ثمار النخيل والأعناب ، تُرى أين كانت ؟ ومن أين جاءت ؟ لنقُل : الحمد لله ، الله أكبر ، ما أروع هذا الاستنباط للجوهر من خشب جاف وتراب وماء ، وعلى هذا النمط المنظّم ! فكيف نُضدّ هذا العنقود حبّةً حبّة ، ومن الذي أودع هذه الصلة بين النواة وثمرتها ؟ ﴿ إنّه على كلّ شيء قدير ﴾ .

﴿ وفجّرنا فيها من العيون ، ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم ﴾ : وأجرينا العيون في هذه البساتين كي ينعم الناس بما تحمله لهم من ثمار ، وما يستخرجونه منها بأيديهم .

أليس الخلّ والعصير من العنب الذي خلقه الله ؟

وما عملته : استناداً إلى أن « ما » هنا هي « ما » الموصولة ، ففي

---

(١) ﴿ ولقد علمتم النشأة الأولى ، فلولا تذكرون ﴾ (الواقعة/٦٢) .

(٢) ﴿ ونفخ في الصُور فإذا هم من الأجداث إلى ربِّهم ينسلون ﴾ (يس/٥١) .

ذلك إشارة إلى ما يصنعونه من هذه الثِّمار . فالعنبُ خلقه الله ، والإنسان يعصره ليستخرج منه شراباً طاب طعمه ، وخلاًّ هـو طعام الأنبياء .

﴿ أفلا يشكرون ﴾ ؟ فيا أيها الكفـور الجاحـد للنعمة ، ألا ينبغي أن تعْرف حقَّ المنعم عليك ؟ ألا يجب عليك أن تشكر الله أكثر من شكرك لغيره ، وهو الذي غمرك بهذه النعم ؟!

أن تشكر الوسيط فذلك أمر حسن ، شرط أن لا تنسى كونه وسيطاً ، أمّا من كان أصل النِّعمة منه وبيده ، فشكره واجب ، ولا يجوز في مقام الشُّكر أن يشرك معه غيره ، فهو المنعم وليس غيره .

﴿ قل : أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوْراً فمن يأتيكم بماءٍ معين ﴾[1] .
﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾[2] .

عبادة النِّعمة أم عبادة المنعم ؟

المثال التالي ، ولو أنه قبيح ، غير أنه لا بأس في إيراده : هل الكلب ـ مع ما هو فيه من حقارة ـ يهتمُّ بالنعمة أكثر أم بالمنعم ؟ الحق أنه لا يعبد النعمة بالقدر الذي يعبد فيه المنعم ، وأن ما يشدّه إلى صاحبه أقوى بكثير مما يشدّه إلى طعامه .

فما أكثر ما ينسى صاحب البيت أن يُقدِّم له طعامه ، إلاّ أن الكلب لا يتركه ، بل يتصاغرُ أمامه ويتملَّقه ، ويدور حوله مبصبصاً بذيله .

إنَّه حيوان لا يتجاوز إدراكه هذا الحدّ ، أمّا أنت أيُّها الإنسان ، بهذا العقل الذي وهَبَك الله ، لماذا نسيت المنعم عليك ؟ فأنت وقد عَرَفْتَ صاحبك ، وأدركت معنى « لا إله إلاّ الله » ، هل اهتمامك

---

(1) سورة الملك : الآية ٣٠ .
(2) سورة النحل : الآية ٥٣ .

بالمنعم عليك اكثر ام بالنِّعمة ؟ اعابدٌ للنِّعمة أنت أم للمنعم ؟

إنّ النِّعمة محترمة ، لأنّها مِن الله ، فاشكره وأثنِ عليه يزِدك منها[1] . إنّ قولك : الطعام الفلاني أضر بيّ ، منهيٌّ عنه ، وعليك أن تقول : لعلّ مزاجي لم يكن موافقاً . وبالطبع فإن مزج الأطعمة المتضادة ينبغي تجنّبه .

يُروى أنَّ من موجبات عذاب القبر وضغطته ، كفران النعمة ، فحذار أن تكفر بالنِّعمة . قبِّل الخبزَ واحترمه ، وحاذر من وقوعه تحت الأقدام .

علينا أن نتوب عما نمارسه من ضروب الكفران ، فإذا ما رأينا نعمة ، فلنقم بواجب الشكر ، الواجدُ منّا مثلاً لا يرى في ابنه نعمة منّ الله بها عليه ، غير أنّه إذا ما مات هذا الابن قال : لقد سَلَبَنيه الله . هذا كفران بالنّعمة .

« اللهم ما بنا من نعمة فمنك لا إله إلاّ أنت وحدك لا شريك لك » ، اللهم إنّا من أهل الشكر والتوحيد ، فاغفر لنا ما سبق منا ، إذ لم نعتبر أن نِعَمَكَ علينا هي منك وحدك ، نستغفرك ربّنا ونتوب إليك .

(١) ﴿ لئن شكرتم لأزيدنّكم ﴾ (إبراهيم/٧) .

« ١٥ »

بسم الله الرحمٰن الرحيم

﴿ وآية لهم الأرض الميّتة أحييناها ، وأخرجنا منها حبّاً فمنه يأكلون * وجعلنا فيها جناتٍ من نخيل وأعناب ، وفجّرنا فيها من العيون * ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم ، أفلا يشكرون ﴾ .

كلوا من التمر والعنب واشكروا

الآيات تتعلق بتوحيد ربّ العالمين ، وبالمعاد ، والبرهان على كليهما واضح ، فأنتم تشاهدون الأرض اليابسة كيف تُنفخ فيها الحياة ﴿ وأخرجنا منها حباً ﴾ . وتخرج منها الحبوب على أنواعها، فتأكلونها ، وأشجار التمر والعنب تجري خلالها الأنهار ، فكلوا من التمر والعنب وتدبّروا ، واعتبروا ، كلوا وكونوا عارفين بحق الله عليكم ، عابدين له ، فتشوا عن أصل هذه الأشياء ، أيْ : يا أيُّها الإنسان ، إنَّ ما تراه إن هو إلاّ قطرة ، إن هو إلاّ استعراض للقدرة . أصل القدرة في عالم ما بعد الموت[1] .

حلاوة الرُّطب والتَّمر ، إن هي إلاّ ذرَّة من أصل الحلاوة التي

---

(١) ﴿ وإن من شيء إلاّ عندنا خزائنه ، وما ننزّله إلاّ بقدر معلوم ﴾ (الحجر/٢١) .

اُدّخرت في العالم العُلوي . بعد الموت تردُ على ذلك البساط العلوي ، فتدرك إذ ذاك حقيقة الحلاوة ، فكل ما هناك من نبات وورود وروائح عطرة مخزون عند ربّ العالمين .

الكافر بالنِّعمة كمن يمشي على أربع

﴿ أفلا يشكرون ﴾ . الحيوان يأكل من نِعَم الله ثم لا شأن له بغير ذلك ، فعمله أكل الشعير والعَلَفْ فحسب ، أمّا الإنسان فشأنه أن يأكل ثم يفتّش عمّن أطعمه ، ويشكره ، وإلاّ فما الفرق بينه وبين الحيوان[1] ؟!

يجب الخضوع للمُنعم ، لله العظيم ، هذا ما يحكم به العقل ، فلا يجوز للإنسان أن يكون كافراً ، الكفر بمعنى السَّتْر ، فيا من تَسْتُر نعمة الله فلا تراها منه ، إن الله غَنِيٌّ عنك[2] أمّا إن شكرته فإنه يرتد نفعاً عليك كما يعد عزّ وجل في القرآن المجيد :

﴿ لئن شكرتم لأزيدنّكم ، ولئن كفرتم إنّ عذابي لشديد ﴾[3] .

الزوجة نعمة ، فكيف تكفرون بها ؟

الزوجة نعمة من نِعَم الله تعالى ، يذكّرنا بها في مواضع عديدة من كتابه المجيد ، فقد رُوِيَ في أصول الكافي أنّه ما مِنْ نِعمة بعد الإيمان أرْفَع من زوجة تصون للرجل إيمانه .

هذه المرأة هي آية إلهية ، إذ هي السبب في سكينة الرَّجل وأنسه[4] . إنّ الحياة مع امرأة مُحِبَّة ، نعمة كبيرة ، إلاّ أنّ بعض الكفرة

---

(١) ﴿ ويأكلون كما تأكل الأنعام ، والنّار مثوى لهم ﴾ (محمّد (ص)/١٢) .

(٢) ﴿ ومن كفر فإن الله غنيٌ عن العالمين ﴾ (آل عمران/٩٧) .

(٣) سورة إبراهيم : الآية ٧ .

(٤) ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ﴾ (الروم/٢١) .

لا يعتبرون هذه النِّعمة من الله ، ويكفرون بها منذ البداية ، فتراهم ـ منذ عقد القرآن وحفل العُرس وهما وقتان مناسبان للدعاء واستجابته ، إذ فيهما تتنزّل نعمة الله ـ تراهم يكفرون بتلك النعمة بما يرتكبونه من ذنوب بهذه المناسبة !!

الشكور ، رفيق داوُد النبي في الجنّة

إليكم قصّة قصيرة في باب الشكر ، فقد رُوِيَ أنّ داود (ع) سأل الله تعالى أن يُرِيَه رفيقه في الجنة من أهل الإيمان والذي يُحبُّه الله ، فجاء النداء أنْ اخرج غداً من البوّابة وستراه .

وفي اليوم التالي خرج داود من البوّابة ، فالتقى بمتّى أبي يونس النبيّ ، وقد حمل على ظهره بعض الحطب يفتّش عمن يبتاعه منه ، فجاء أحدُهم واشترى الحطب منه ، فتقدّم داود منه وصافحه وعانقه وقال له : أترضى أن أكون ضَيْفُكَ اليوم ؟ فقال : يا لَها من سَعادة ، هيا بنا .

إبتاع متّى بمال الحطب طحيناً وملحاً يكفيان لثلاثة أشخاص ، له ولداود وسليمان ، وبعد أن أعد الخبز ، وقبل أن يتناول منه شيئاً رَفَعَ رأسه نحو السماء وقال :

إلهي ، الحطبُ الذي احتطبته ، أنت أنبَتَّ شجره ؛ وقوّة ساعدي أنت وهبتنيها ، والقدرة على حمله أنت منحتنيها ، ومن ابتاع الحطب أنت بعثته والطحين الذي أمامنا أنت خلقت قمحه ، وأودعت أجسادنا القابلية على استهلاكه ، فلك الشكر .

كان متّى يقول ذلك والدموع تنهمر من عينيه ، فالتفت داود إلى سليمان وقال : بمثل هذا الشكر يبلغ الإنسان أرفع الدرجات .

العمر والمال نعمتان يُكفر بهما

يقول أحد العظماء : لا تَقُل دوماً : إلهي أعطني ، أعطني . بَلْ قُلْ : إلهي ، عرّفني بالمنعم عليَّ ، وعرّفني بالنِّعمة ، كي أعرف حقّ المنعم وقدر النعمة .

نحن في شهر رمضان المبارك ، وساعات هذا الشهر نعمة ، فلو أمكن سؤال الأموات لتمنّوا أن يكونوا في الدنيا ليتزوّدوا بمنفعة باقية .

علينا في ليالي القدر هذه أن نتوب عمّا ارتكبنا من ضروب الكفران ، فنحن لم نَرَ أنعم الله علينا ، ولم نَعرف حقّ المنعم علينا ، وطئنا النِّعمة وأنفقناها في غير محلّها . إنّ تكديس الأموال كفرانٌ بالنِّعمة . عليك أن تأكُلَ وتُطعم ، لا أنْ تكدِّسها فوق بعضها أو أن تنفق المبالغ الطائلة إسرافاً وتبذيراً ، تكسو السلالم في بيتك بالسجاد الثمين ، وتحرم قريبك الفقير من نزر قليل يقيم به أوده ، عليك أنْ تستفيد من هذا المال ، نعمة الله إليك ، لا أنْ تُتْلِفه وتهدره عبثاً !

الشكر على المال إنفاقه في سبيل الله

يروي الحاج النوري في كتابه « دار السلام » قصة عن رجل متعبّد شغلته العبادة سنوات ، نُقل إليه في عالم الرؤيا أنّ إرادة الله تعالى شاءت أن يكون فقيراً نصف عمره ، وغنياً في النِّصف الآخر ، وأنّ عليه أن يختار أيُّهما يريد أوّلاً .

قال الرَّجُل (في الرؤيا) : إنّ لي زوجة صالحة عاقلة أُريد أن أستشيرها .

لا شك أن المرأة التي بلغت كمالها العقلي ، يمكن أن تكون موضع استشارة ، ولا مانع من ذلك ، لا أن تكون ـ كالعديد من الرجال ـ أسيرة هواها وميولها .

قالت الزَّوجة : أرى أن تختار الغنى في النصف الأوّل من عمرك .

وفي اليوم التالي بدأت النِّعم تنهال على الرجل بكثرة .

قالت المرأة لزوجها: لا تنس أنّ الله وعدك بالعطاء ، على أن تنفق مما أنعم به عليك .

صدّق الرجل على كلام زوجته ، وراح ينفق مما أعطاه الله ، واستمرّ على ذلك حتى تصرّم نصف عمره .

وهنا راح يرقب حلول الفقر به ، طبقاً لرؤياه ، غير أن شيئاً لم يحدث واستمرّت نِعَمُ الله تتدفّق عليه ، ولما تساءل عن علّة ذلك ، أتاه الرد يقول :

لقد شكرت فزدناك : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنّكم ﴾ ، ذلك أن الشكر على المال يكون في إنفاقه ، كما أن كفرانه يكون في تكديسه واختزانه .

« ١٦ »

بسم الله الرحمٰن الرحيم

﴿ سبحـان الـذي خلق الأزواج كلّهـا ممـا تنبت الأرض ، ومن أنفسهم ، وممّـا لا يعلمون * وآيـة لهم الليل نسلخ منه النهـار فـإذا هم مـظلمون * والشمس تجـري لمستقرٍّ لهـا ذلك تقـدير العـزيـز العليم * والقمرَ قدّرناه منازل حتى عاد كالعُرجُون القديم ﴾ .

الأزواج خلقها من الأرض

في بيـان شواهـد القدرة والحكمـة ، تكمن في معرفـة الله ومعرفـة المعـاد ، ومعرفـة القدرة والعلم والحكمـة الإلهية ، وكـذلك عِلْم إعـادة إحياء الموتى .

﴿ سبحان الذي خلق الأزواج ﴾ : ظاهر الآيـة يفيد أن ذلـك الإله الذي خلق الأزواج مُنَزَّه عن كـلِّ عيب ونقص ، خلقها مِمَّـا تُنْبِتُ الأرض من أنـواع النبـاتـات ومن أنفسهم ، أي من أنْفُسِ تلك الأزواج ذاتهـا ، ومما لا يعلمون ، أي مِمّا لم يبلغه إدراك الإنسان .

كـان قدمـاء المفسّـرين يؤوّلـون « الأزواج » ويحملونهـا على أنّهـا بمعنى الأصناف والأنواع . . . هكذا خلق تعالى الأصناف والأنواع .

بعضُ آخر كان يقول : هي تركيب جوهر المادة وعَرَضِها مع صورتها .

تلقيح النباتات بواسطة الرِّيح والحشرات

هذه التفاسير إنما هي نتيجة للجهل بالمطلب المهم لنظام الخلقة، إذ كان الإنسان لا يزال يجعل أنَّ لقضيَّة تزاوج الكائنات وجود. ففي السابق كانوا يعرفون أنّ شجز النخيل فقط ـ علاوة على الحيوان ـ تمتلك خاصيّة التذكير والتأنيث مما يوجب تلقيح الشجرة الأنثى من الشجرة الذكر حتى تحمل وتعطي التَّمر ، لكنّه مؤخراً أضحى مسلماً وقطعياً أنّ الأشجار كافة تحتاج إلى تلقيح ، وليس شجرة النخيل فقط .

أولاً ليس صحيحاً أنّ (الأزواج) تعني الأصناف والأنواع ، بل إنّ كلمة « زوج » تعني الذَّكر والأنثى ، ويعبّر عنهما بالزوجين .

يريد الله تعالى في هذه الآية الشريفة ، أن يُعْلِنَ أنَّ نظام الخلق كلَّه قائم على الزوجيّة ، وليس هذا وقفاً على الحيوان وشجر النَّخيل فقط ، بل إنّ الأشجار كلها بحاجة لوصول أثَرٌ من الذّكر إلى الأنثى . الرِّياح واسطة من وسائط اللقاح[1] ، فهي تحمل عن الشجرة الذَّكر ذرّات اللقاح التي تسبب الحمل إلى الشجرة الأنثى ، ومن جملة اللواقح الحشرات ، فهي تحطّ على الشجرة الذّكر وتحمل معها ذرّات اللقاح ، وتوصلها إلى الشجرة الأنثى .

﴿ ومن أنفسهم ﴾ : فيما يتعلّق بالذَّكر والأنثى هناك قابليّة كبيرة للتأمّل والتفكّر ، والإمام الصادق (ع) في أحد مجالسه مع المفضّل يذكر هذا الأمر بقوله : دَقِّق في تكوين الأعضاء التناسلية ، وطريقة التزاوج ، وانعقاد النُّطفة ، فكلما ازددت تأمّلاً كلما ازددت حيرة .

---

(١) ﴿ أرسلنا الرياح لواقح ﴾ (الحجر/٢٢) .

فلْقُ الذرَّة أثبت زوجية الأشياء

﴿ ومما لا يعلمون ﴾ : رُبُّما يكون ذلك إشارة إلى ما عرفوه مؤخراً عن نظام الذرَّة . الذرَّة التي كان يقال لها في السابق : « الجزء الـذي لا يتجزأ » وكانوا يقولون إنّها واهبة الجوهر ، فلقها الإنسـان مؤخراً بـواسطة الأجهـزة العلمية واكتشفهـا . هـذه الـذرّة هي بـدورهـا (زوج) ، تملك فاعلاً ومنفعلاً هما الألكترون والبروتون ، فهي إذاً إحدى معجزات القرآن العلميّة ، إذ لـم يكنْ الإنسان يستطيع أن يصدِّق أن كلَّ الأشيـاء (زوج) حتى تـوصّل إلى الجـوهر الفـرد (الذرّة) ، ولـذا كانـوا يؤوّلـون الأزواج بـالأصناف والأنـواع ، واتّضحت أخيـراً حقيقـة أنّ « سبحـان الـذي خلق الأزواج كلَّها » كلّ الأزواج أي كلّ الأشياء . لأنّ كل شيء (زوج)[1] .

الليل آية الله ومنافع كثيرة

﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ﴾ :

دقِّقوا في آيات وشواهد القدرة الإلهية . الليل والنهار ممّ يَحْدثان ؟ حَسْبَ الحس يحدثان من حركة الشمس حول الأرض ، وبحسب الواقـع من الحركة الوضعيَّة للأرض حول نفسها ، وهما يحدثان خلال فترة زمنية تمتد أربعاً وعشرين ساعة . والآن انتبهوا للنّكات :

وآية لهم الليل ـ إذا ما حَلّ الليل ساد الظلام ، فالله عزّ وجل جـاء بالليل وذهب بـالنهار ، ليلّف الأمن والسكينـة الكائنـات الحية فتخلد إلى الراحة بفضل ظلمة الليل .

« نسلخ » : يقول بعض المفسرين : إنها تعني « نخرج » لأن كلمة « منه » جاءت بعدها ولو كانت « نسلخ » بمعنى « ننزع » لَوَجب أن تـأتي بعدها « عن » ؛ فنسلخ إذاً ، تعني نخرج منه النهار أي : نأخذ الضياء ،

---

(١) ﴿ ومن كلِّ شيء خلقنا زوجين لعلّكم تذكّرون ﴾ (الذاريات / ٤٩) .

ونأتي بالظلام ، أخذنا نورانية الجو فحلّت الظلمة .

﴿ فإذا هم مظلمون ﴾ : لو أنّ تلك القدرة القاهرة لم تحرِّك الكرة الأرضيّة ، أي : كان النهار مثلاً دائم الوجود ، لما أمكن الحصول على منافع الليل ، أو لو أن الشمس مثلاً ، بقيت أربعاً وعشرين ساعة تصبّ أشعتها على نقطة واحدة ، لأحرقتها بنحوٍ من الأنحاء .

الشمس تتّجه إلى مستقرّها : نجم النسر

﴿ والشمس تجري لمستقر لها ﴾ : قال بعضهم : اللام في كلمة « لمستقر » تعني « إلى » أي : إلى مستقر . إنَّ الشمس تتحرَّك ولكن ، ليست تلك الحركة التي نحسّ معها وكأن الشمس تدور حول الأرض ، فهي حركة لا تتفق مع الواقع ، بل إنّ الشمس تجري ومعها منظومتها نحو كوكب عظيم يقال له النسر وسُمِّيَ مؤخراً فيغا (Vega) فإذا ما بلغت ذلك الكوكب ، انتهى عمر المنظومة الشمسية ، وعندها تقوم القيامة . في علم (الهيئة) الحديث كذلك ، قيل إنَّ المنظومة الشمسية بلغت سنّ الشيخوخة . « اقتربت الساعة » عندما تتوقف الشمس عن الجريان ، ينفد إشعاعها ، فهي مثلُنا إذا ما بلغت أعمارُنا نهاياتها فإن آثار الحياة تنتهي أيضاً ، وهذا الجريان لن يستمر إلى الأبد ، بل إلى أن تبلغ الشمس مستقرَّها .

﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ : هذا هو تقدير وتنظيم « الله » الغالب العليم ، الغالب على كلّ المقدّرات ، وعلى تنظيم أمور المخلوقات ، والعليم بها علماً بالغاً .

الجاذبيّة الكلّيّة سبَبُ حفظ الكائنات

﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ﴾ : دقِّق في نظام الليل والنهار طوال خمسين سنة من عمرك ، هل لحظت أي تبدّل في نظام

الليل والنهار ؟ هل خرجا عن نظامهما لدقيقة واحدة ، زيادة أو نقصاناً عمّا هو مقرّر. لا ، فالشمس لا ينبغي لها أن تتجاوز القمر ولا للقمر أن يتجاوز الشمس .

الجاذبية العظيمة للشمس تشدّ إليها الكرة الأرضية وغيرها عن بُعد ملايين الفراسخ والقمر مقهور وتابع لكوكب الأرض ، مع وجود التوازن في هذا الكوكب وفي مداره ، فلماذا ؟

الأهلّة من أجل التأريخ القمري

﴿ والقمر قدرناه منازل ﴾ ، يكون القمر في الليلة الأولى من الشهر هلالاً دقيقاً كالخيط ، ويتضاعف حجمه في الليلة الثانية ، وهكذا حتى الليلة الثالثة عشر والرابعة عشر فيظهر قرصاً مكتملاً . ثم يأخذ في النقصان بالتدريج من الليلة السادسة عشرة ، وحتى الليالي الأخيرة من الشهر، حيث ـ كما هو مصطلحٌ ـ يصبح محاقاً، ويختفي ، وبهذا يُعرف حساب أيّام الشهر[1] . هذا وإن للقمر سبعاً وعشرين منزلة ﴿ والقمرَ قدّرناه منازل ﴾ .

﴿ حتّى عاد كالعرجون القديم ﴾ : سأورد لكم مثلاً : عِذْقُ النخيل في جانب منه قوسيُّ الشكل أصفر اللون وضعيف . انظروا إلى القمر في آخر الشهر تجدونه كذلك ، وهو في طريقه إلى الزوال .

إليكم مثلاً آخر : عمري وعمرُك . التوبة الآن مفيدة وذات قيمة ، أما إذا تقدم العمر بنا ، وضعف الأمل بالحياة ، فلا جدوى منها .

يقول الزمخشري في كتاب (ربيع الأبرار) كما نُقل عنه في شرح الصحيفة :

في الليلة الرابعة عشر من الشهر ، قام الإمام السجّاد (ع) سحراً

---

(١) ﴿ لتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ (يونس/٥) .

للتهجّد ، وحين وضع يده المباركة في وعاء الماء للوضوء ، رفع رأسه ، فوقع نظره على القمر ، فأبقى رأسه مرفوعة حتى قال المؤذن الله أكبر[1] .

« يا من في السماء عظمته » - انظر تر عظمة الله في السماوات . فالكواكب العظيمة خاصةً إلى جانب الاكتشافات الحديثة بشأنها ، تدعو للحيرة حقاً .

العالم الأكبر مطوي في وجود الإنسان

إشارة حول تطابق الآفاق والأنفس : يقول عليٌ (ع) :

أتزعم أنك جرم صغير   وفيك انطوى العالم الأكبرُ ؟

كلّ ما هو موجودٌ في العالم الخارجي ، موجود في النفس الإنسانية ، ففي وجود الإنسان ذاته يتمثّل النهار والليل ؛ وإليكم أمثلة على ذلك :

في الجسد والرُّوح : في الجسد ، المفسِّر المصري الطنطاوي ، يشرح جيِّداً جهاز الدورة الدمويّة في الجسد ، فجريان الدم من قمّة الرّأس حتى رؤوس أصابع القدم ، متصل بالقلب ، ففي القلب تجري تصفية الدم ، الذي يجري نظيفاً صافياً في الشرايين ، منتشراً في أجزاء الجسم كافّة ، ثم يعود الدم من كل جزء وصل إليه ، حاملاً معه مخلّفات ذلك الجزء ، إلى القلب ثانية ، عن طريق الأوردة ، حيث تجري تصفيته من جديد ، وهكذا ، تتكرّر هذه الدورة القمريّة ستّ عشرة مرة ، تملأ في جريانها نصف الجسم بالدم الأسود كالليل ، ونصفه الآخر بالدم النقي الصافي كالنهار .

---

(١) ﴿ إنّ في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآياتٍ لأولي الألباب ﴾ (آل عمران/١٩٠) .

نهار الرُّوح ذِكْرُ الله وليل الروح الغفلة

روحُكَ أيضاً فيها نهارٌ وليل ، فليلها الغفلة عن الله ، فهي مظلمة ، لا تعكس حقّاً ولا حقيقة ، فالويل لمن يرسف في ظلمات الذنوب ، كليل غائم كله ظلام في ظلام[1] ، كما أنّ نهارها ذكر الله ، فذلك القَدْرُ من عمرك الذي قضيته بذكر الله يكون منيراً .

هذا الأمر يتّضح عند الموت ، وحقيقته تتضح فيما بعد ؛ فالويل لمن يكون ليله متصلاً بالقيامة ، أخلاقه القبيحة ظلمات ، معتقداته الباطلة ظلمات ، تتركه في ظلام دامس ويقول القرآن المجيد : ﴿ إذا أخرج يده لم يكد يراها ﴾[2] . وفي المقابل ﴿ ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم . . . ﴾[3] ، فهم دوماً يغمرهم ﴿ نور على نور ﴾[4] .

الحق والباطل في وجود الجميع

الشيخ الشوشتري رحمة الله عليه ، يقول في صدد هذا الأمر ، وهو أنّ كلّ ما هو موجود في العالم الكبير ، موجود في العالم الصغير ، أي في وجود الشخص ذاته ، يقول :

ينطوي وجودك على محمَّد كما ينطوي على أبي جهل ، كما في وجودك هابيل وقابيل .

ثمّ يطابق هذا مطابقة ملفتة فيقول :

أبو جهل فيك ، هو جهلك وغرورك ؛ ومحمد فيك هو في

---

(١) ﴿ ظلماتٌ بعضها فوق بعض ﴾ (النور/ ٤٠) .

(٢) سورة النور : الآية ٤٠ .

(٣) سورة الحديد : الآية ١٢ .

(٤) سورة النور : الآية ٣٥ .

خضوعك للحق ، فاحذر أن تسلّط أبا جهل على محمّد ؛ وعليّ فيك ، هو العدل والحق وأعداؤه فيك هم الظلم والباطل ؛ فاحذر أن تسلّط الظلم والباطل على العدل والحق .

العمل الحرام يورث العمى

روى لي أحدُ الأصدقاء مناماً عن نفسه ، قال : رأيت إمام الزّمان وعينه اليمنى عمياء .

بداية أقول : إمام الزمان في الحلم هو غير إمام الزّمان الخارجي ، فما أكثر ما يكون ما نراه وهماً وخيالاً ؛ أو ربّما يكون له تفسير ما . . .

على أي حال ، رأيت أنه يتوجّب عليّ أن أجيبه عمّا قال ، دفعاً لوقوعه في ظن خاطىء بأن ما رآه هو إمام الزمان فعلاً ، لذا قلت له :

إنّ ما رأيته يعكس (إمام زمان) وجودك ، أي معتقدك ، فإن معتقدك أعمى ، وسأعلن عن المنبر أن العمل الحرام والفاسد الذي تمارسه قد أعماك !!

فما كان منه إلاّ أن سارع ، وتخلّى عن ذلك العمل الحرام .

يحدث أحياناً أن جهل هذا الإنسان التعيس يغلب عليه ، فينقلب (ابن ملجم) آخر ، يبغض الحق وينفر منه بكلّ كيانه !

« ١٧ »

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وآية لهم أنّا حملنا ذرّيّتهم في الفُلْك المشحون * وخلقنا لهم من مثله ما يركبون * وإن نشأ نغرقْهم فلا صريخ لهم ولا هم يُنقذون * إلاّ رحمةً منا ومتاعاً إلى حين * وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلّكم ترحمون * وما تأتيهم من آية من آيات ربّهم إلاّ كانوا عنها معرضين ﴾ .

وسخّر البحر للإنسان

من جملة الآيات الدالّة على نِعَمِ الله ، تسخير البحر للإنسان ، فقد سخّر ربّ العالمين له البحر بما هو عليه من عمق وبما ينطوي عليه من حيوانات رهيبة ، البحر الذي إذا نظر إليه الإنسان غمرته الهيبة حقاً ، فأمواجه المتلاطمة مرعبة فعلاً ، إلاّ أنه تعالى سخرها للإنسان ليتحرك فوقها ، ويمخر عبابها طلباً للرزق والسياحة ، ليصنع السفن ويركبها بقلب قوي فيقطع بها الفراسخ الطويلة ، ليصطاد الأسماك وغيرها ، ليستخرج المرجان ، والمعادن أيضاً كما يفعلون الآن ، ولينتقل على ﴿ الفلك المشحون ﴾ ـ مكتظّاً ببني الإنسان وحاجياتهم ـ فوق الماء .

الجمل ، سفينة الصحراء والطائرة أيضاً من الله

﴿ وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ﴾ : فمن مثل السفينة في البحار خلقنا لكم الجمل الذي هو سفينة الصحراء ؛ بقول المفسرين المحدثين ، وهذه الطائرات هي أيضاً من صنع الله ، كالسفينة ، فالكهرباء والبخار الذي يسيِّرها من الله ، وما قام به الإنسان إن هو إلاّ تجهيزها وتركيبها ، فذكاؤه وقدرته أيضاً من عطاء الله .

﴿ وإن نشأ نغرقْهم فلا صريخَ لهم ولا هم يُنقذون ﴾ :

إن نشأ ، نُغرق ركاب السفينة بموجة واحدة ، فمن يحفظهم هو الله وليست السفينة ، والأمر كذلك مع السيّارة والطائرة أيضاً . فالحافظ ـ سواء في البحر أو في البرّ ، أو في الجو ـ هو الله ، فإن شاء هلاك أحد فلا نجاة له .

﴿ إلاّ رحمة منّا ومتاعاً إلى حين ﴾ : أي لن ينجو أحد إلاّ إذا شملته مشيئتنا ورحمتنا ، فالله يحفظه حتى يحين أجله .

فلتكن إذاً عبداً للمنعم بجسمك ومالك

هذه الآيات كلُّها شواهد على القدرة والحكمة والربوبيّة والألوهيَّة ، ومقتضاها أن تكون أيُّها الإنسان ، يا من سخّر الله لك البرّ والبحر ، أن تكون عبده المطيع ، ومن خلق لك كلَّ أنواع النِّعم من المآكل والمشارب ﴿ فجرنا فيها العيون ﴾ وأنواع الحبوب ، وخلق لك كلَّ هذه الخضر والفواكه ، عليك أن تكون له شاكراً ، فلا تفتر عن عبادته وشكره بالجسم والمال .

فالشكر الجسدي باللّسان والأعضاء : يتمثّل بالصلاة والصوم والحج والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ، فالعبادات الجسديَّة ، هي الشكر .

القسم الثاني : هو العبادة المالية ، وهي أن ينفق الشخص مما يحبّ : ﴿ أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ـ يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ـ أوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً ﴾ .

فالصلاة والزكاة ـ وهما بمثابة العبادة بالجسد والعبادة بالمال ـ عبادتان مترابطتان ، وقد نصّت على ذلك جميع الأديان السماوية ، فالعبادة بالمال تكمل العبادة بالجسد ، فالصوم عبادة جسدية ، وله اعتباره ؛ غير أنه يستوفي كماله ببذل المال والطعام وقتي الإفطار والسحور .

وهذه الآيات رغم نزولها بحقّ أهل مكّة ، إلاّ أن تعاليمها حبل متصل إلى يوم القيامة .

فلنسع لتدارك ذنوب الماضي وتلافي ذنوب الحاضر

كان أهل مكة تعساء إلى حدّ كبير ، ففيما يتعلّق بالعبادة الجسدية ، كانوا ـ ﴿ إذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون ﴾ خافوا الله ، أصلحوا ، كونوا من المصلّين ـ كانوا يستهزئون والآن لا يزال هناك كثيرون ممّن يسخرون إذا دُعوا للصلاة والصوم ! وترى أحدهم ـ فوق ذلك ـ يجيب : وما حاجة الله لصلاتي وصومي ؟ هذا صحيح ، فالله ليس بحاجة إلى صومك وصلاتك ، بل أنت الذي بحاجة للعبادة كي تصبح مستحقاً لرضى الله عنك ، وإحسانه إليك .

﴿ وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم ﴾ لقد ذُكرت وجوهٌ عدّة في معنى ﴿ ما بين أيديكم ﴾ أفضلها ما رُويَ عن كشّاف الحقائق جعفر بن محمّد الصادق (ع) من أنّها تعني الذنوب و﴿ ما خلفكم ﴾ : تعني العذاب والعقاب . يقولون لهم : انظروا إلى ذنوبكم ، انظروا إلى ما قدمتم به إلى قبوركم (لما بين أيديكم من الذنوب وما خلفكم من العذاب) .

إنّك بدل أن تقدم إلى آخرتك بالرَّوْح والريحان ، تقدم بالنار المحرقة !.

وقد ذكر في معناها وجه آخر أيضاً : ﴿ ما بين أيديكم ﴾ : ذنوب الحاضر ﴿ وما خلفكم ﴾ : ذنوب الماضي .

﴿ لعلّكم ترحمون ﴾ .

هم عن آيات الله معرضون

﴿ وما تأتيهم من آية من آيات ربّهم إلاّ كانوا عنها معرضين ﴾ : يقرأون عليه آيات القرآن فيعرض عنها ، يقولون له : خَفْ عذاب البرزخ ، اعتبر من آيات الله ، سواء منها الآيات التشريعية التي هي القرآن ، أو الآيات التكوينيَّة ، فكلُّها آيات الله ، فلا تترك كلّ كلمات الله ونعَمه والموجودات كافّة أيّ أثر فيه .

ومن حيث العبادة بالمال علينا بالطبع أن نطبّق ذلك على أنفسنا ، فلعله يعنينا نحن أيضاً ، فتلك الآية لا تختص بأهل مكة فقط دون غيرهم من الناس ، وإنْ كانت نزلت فيهم .

لو شاء الله لكفى الفقراء بنفسه !!

﴿ وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله ﴾ : يقال لأحدهم مثلاً : لتنفق خمس ما زاد عمّا حصّلت بعد مصاريف السنة ، فمع أن ذلك سهل ويسير ، إلاّ أنّه يجيب : لو كان الله يريد إعطاء الفقراء لكان أعطاهم هو بنفسه ﴿ أنُطعم من لو يشاء الله أطعمه ﴾ ؟!

فيا ربّ العمل ، أنت تعلم أنّ عامِلَك يشكو من عجز في مصاريفه ، فعليك أن تحسّ بعجزه فتساويه بنفسك .

﴿قال الذين كفروا للذين آمنوا ﴾ : قال الكافرون لأولئك المؤمنين

الـذين جُعلوا واسـطة لمسـاعـدة الفقـراء : ﴿ أنـطعم من لـو يشـاء الله أطعمه ﴾ إن الله شاء له أن يكون جائعاً وفقيراً وإلاّ فهو قادر على إطعامـه بنفسه ، ودون واسطة !!

﴿ إن أنتم إلاّ في ضـلالٍ مبين ﴾ : لا ، فـأنتم لا تعـرفـون مـاذا تفعلون ، إنكم بقولكم هذا تشجعون الاستعطاء وغيره من هذا القبيل .

مشيئة الله بالنسبة لاختيار الإنسان

المشيئـة ، أي إرادة الله قسمـان : المشيئـة التكـوينيـة والمشيئـة التشريعيَّة .

المشيئـة التكـوينيـة : هي أن يشاء الله مثـلاً ، أن يهطل المـطر في الـوقت الفلاني ، أو أن يشـاء أن يوافي الأجـل فلانـاً في وقـت محـدّد لا يمكن تجاوزه .

المشيئة التشريعية : هي أن يشاء الله أن يتّجه الإنسان باختياره نحو الخير ، فيصلي ويصوم و . . .

المشيئة التكوينية : شاء الله مثـلاً للحمار والبقـرة أن يكونـا محنيّي الـظهر ، وأن يكـونا في حـال ركوع دائم ، أمّـا ركوع الإنسـان فقد شـاء تعالى أن يكون باختيار الإنسان نفسه ، يُدرك عظمة الله تعالى فيـركع لـه باختياره وإرادته وهو يقول : « سبحان ربّي العظيم وبحمده » .

الحشرات تدبّ على الأرض ، وليس بمقدورها أن تكون على غير ذلك ، أما الإنسان فيسجد لله بمشيئته هو ، وعن علم وإرادة منـه ، لينال الثواب ويستحق المقام ، وهكذا شاء الله للفقير أن يَطعم ، وأن تُرفع عنه حاجته ، بواسطة أولئك الذين أغناهم الله .

في الغنى والفقر امتحان للترابط بين الناس

إن الله لم يخلق الناس متساوين ففي كلّ زمان يوجد أناس فقراء ، وأناس أغنياء ، وفي ذلك امتحان للناس[1] .

فأنت يا من تمتلك الملايين ، إنّ الله أعطاك هذا المال حتى تنفع به آلاف المساكين وتصلح به أمراض نفسك ، فلو كُشِفَ النّقاب لعلا أنين كلٍّ منّا مما يعاني من أمراض ، والبذل والعطاء هما علاج لأمراض النفس ، فيحلّ السخاء محلّ البخل والحرص .

والفقر مدعاة خير لصاحبه ، فإن صاحبت الفقر العفة والصبر ، كان ذلك نعمة عظيمة ، فيُصبح الأجر الباقي من نصيبه ؛ فالفقير إنّما يصبر باختياره والغني كذلك ينفق باختياره ؛ وكلٌّ منهما يفوز بالحسنات ، وهذه هي مشيئة الله التشريعيَّة ، أن ينتفع الفقير والغني كلاهما .

الإنسان البخيل محرومٌ من الجنَّة ، ففي الرواية ما مضمونه : الكافر السّخيُّ أقرب إلى الجنّة من المؤمن البخيل .

فلا أمل بمؤمن بخيل كهذا ، وهو إن مات على هذه الصفة الحيوانيَّة ، فلا أمل له بالنجاة .

لو أراد كلبٌ أن يجتاز حيّاً من الأحياء ، فماذا يفعل كلاب ذاك الحيّ خوف أن يشاركهم في العظام المرميَّة هناك ؟!

يا من أنتم زملاء في العمل ، ما الذي تقدّمونه لزميل لكم ؟! إن علاج البُخْل بالعطاء ، لقد قلت تكراراً : لا تنفقوا مما لا ترغبون به ، بل أنفقوا في سبيل الله ممّا تحبُّون[2] ، وليس مما أنتم عنه معرضون[3] .

---

(١) ﴿ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ﴾ (الفرقان/ ٢٠) .

(٢) ﴿ لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا ممّا تحبّون ﴾ آل عمران/ ٩٢ .

(٣) ﴿ ولستم بآخذيه إلاّ أن تُغمضوا فيه ﴾ (أي : تتسامحوا وتتساهلوا فيه) . البقرة/ ٢٦٧ .

التأسيس في المُلك المستعار

دخل أحدهم على مولانا علي (ع) في بيته ، فوجد أثاثه بسيطاً متواضعاً فقال : يا علي (ع) أنت خليفة المسلمين ، فما هذه الحال التي أنت عليها ؟!

قال عليٌّ (ع) :

« إن البيت لا تتأثّث في دار النقلة ، ولنا دار [نؤثثها] من خير متاعنا وإنّا عن قليل إليها صائرون »(١) .

إنّ الاهتمام بالمكان المستعار مخالفٌ للعقل ، فليس ما يرمي إليه (ع) هو أن يهمل الإنسان بيته وحياته ، بل يرمي إلى أن عليه أن يكون اهتمامه بالآخرة أكثر فلا تكن الدنيا غاية همّه ، فتذهب نفسه حسرة عليها ؛ عليه أن لا ينظر إلى ما فوقه ، فلا يتصوّرن أحد أنه سيخلد في هذه الدنيا .

كان البهلول العاقل ذات يوم في المقبرة ، فَمَرَّ به وزير هارون الرشيد ، فقال له : كأنّك لا تترك المقبرة ؟ قال : نعم ، هنا أكثر راحة فلا أحد يتعرَّض لي هنا ، أمّا في المدينة فالأطفال والجهّال يؤذونني .

قال الوزير : أَوَتُكلِّم هؤلاء الموتى ؟

قال : نعم .

قال : وماذا تقول لهم ؟ قال : أقف على كلِّ قبر وأقول : متى ترحلون ؟ فيجيبون : إنّا لننتظركم حتى تلحقوا بنا ، فنرحل معاً !!

التأسّي بالإمامين المجتبى والرضا (ع)

رزقت مالاً مستعاراً كي يكون بمقدروك أن تقوم بعملٍ ما لما بعد

---

(١) لآلىء الأخبار ص ٢٩ .

موتك ببركة هذا المال ، وهذا أمر مهمّ للغاية ، فحتّى لو كانت ثروة أحدنا مجرّد حبّةٍ من تمر فلينفق نصفها . الإمام المجتبى (ع) كان يقسم كلَّ ما يمتلكه نصفين ، ثلاث مرّات ، وينفق نصفها في سبيل الله ، وكذلك علي بن موسى الرضا (ع) ، كان إذا جلس إلى المائدة ، تناول وعاء ، ووضع فيه من كلّ صنف حوته المائدة ثم قدّمه إلى فقير ، وهو يتلو قوله تعالى :

﴿ فلا أقتحم العقبة ۞ وما أدراك ما العقبة ۞ فك رقبة ۞ أو إطعامٌ في يومٍ ذي مسغبة ﴾[1] .

---

(١) سورة البلد : الآيات ١١ ـ ١٤ .

« ١٨ »

بسم الله الرحمٰن الرحيم

﴿ وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا : أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ؟ إنْ أنتم إلاّ في ضلال مبين * ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين * ما ينظرون إلاّ صيحةً واحدة تأخذهم وهم يَخصّمون * فلا يستطيعون توصيةً ولا إلى أهلهم يرجعون * ونُفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربّهم ينسلون * قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ؟! هذا ما وعد الرحمٰن وصدق المرسلون ﴾ .

بعض المتديِّنين أيضاً يصبحون جبريين :

﴿ وإذا قيل لهم . . ﴾ حين يقال لهؤلاء الكفّار : تعالوا انتفعوا من هذا المال الذي أعطاكم الله ، وأطعموا الجياع والضّعاف مما رزقكم الله ، يقولون : لو أنَّ إطعامنا لهم كان عملاً حسناً ، لكان الله أطعمهم وأشبعهم ! وقولهم هذا إنّما يعود في الحقيقة إلى نوع من أنواع الجبر .

تُسمع أحياناً ـ حتى من بعض المتديِّنين ـ أقوال تبنى على أنَّ كلَّ ما هو خير وحسن يصيبه ، إنما يراه من نفسه أو من سبب مثله ، وأنَّ كل ما كان فيه سوء وضرر ، ينسبه إلى الله ؛ فإذا ما أصاب مالاً ، لم يرَ فيه

نعمة من الله ، أما إذا ما فقده رأى ذلك من الله ؛ وبعبارة أخرى : عند مجيء النعمة إليه ، يكون تفويضياً ، وعند فقده لها يُصبح جبرياً . إذا ما جاءه المال ، رأى ذلك من فعل ساعده ومهارته لا من الله ، وإذا ما أضاعه أو سرق منه رأى ذلك من الله . فكيف لم يره من الله عندما رُزقه ؟!

لقد قلت أمس : إن الفقر والغنى كليهما نعمتان من الله : نعمة للغنيّ تدفع عنه البخل وتجعله سخياً ببركة الإنفاق ، ونعمة للفقير توصله إلى الدّرجات الرفيعة ببركة الصبر .

يقبض الأرواح بصيحة واحدة

﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ : هذه الآية تتعلّق بالمعاد ، فالوعد بالمعاد والثواب والعقاب ، كان محور دعوة الأنبياء ، فجميعهم كانوا يتحدثون عن المبدأ والمعاد . فيقول الناس من باب الاستبعاد : ومتى يقوم عالم الجزاء ؟ متى يتحقّق هذا الوعد ؟ .

فيأتيهم الرد من الله عز وجل بقوله : ﴿ ما ينظرون إلاّ صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصّمون ﴾ .

فمدخل عالم الجزاء ، إنما هو اللحظة الأولى للموت ، طليعة عالم البرزخ والقيامة ، ما ينظرون : أي ما ينتظرون ، فهم لن ينتظروا إلاّ النفخة ، نفخة الإماتة ؛ فالصيحة المذكورة في هذه الآية هي الصيحة الأولى ، والتي هي نفخة الإماتة ، أما نفخة الإحياء فهي الصيحة الثانية ، وبها يتم إحياء الموتى .

صيحة واحدة يطلقها مَلَك الموت تكفي لقبض أرواح هؤلاء البشر ، وليس في ذلك أيّ مشقة عليه .

في روايات المعراج أن رسول الله (ص) يلتقي في السماء الرابعة بمَلَك في غاية العبوس والتجهّم ، في حين أنه كان يلقى الأملاك

منفـرجي الأسـاريـر ؛ فينبئـه جبـرائيـل أنّ هـذا هـو ملَك المـوت .

فيقـول (ص) : ومـا هـذا اللوح الـذي أمـامـه ؟ قـال : إنّ أسمـاء ذوات الأرواح كلهـا مثبتة في هـذا اللوح . عندئـذٍ يقـول مَلك المـوت للنبي : كلّما حَلَّ أجـل احدهـم أمّحي اسمـه فأقبض روحـه على الفور ، فـالعالم كلّه بـالنسبة لي كـالمـائـدة ، فكما يتنـاول المـرء مـا يريـده بسهـولـة عن المائدة ، أتناول بذات السهولة روح كلّ من حلّ أجله .

حين تـأتي صيحـة المـوت يكـون النـاس في خصـام ونـزاع فيمـا بينهم : ﴿ وهم يخصِّمـون ﴾ ، ويُروى أنّ النـاس يكونـون في الأسـواق مشغولين بالكسب والعمل ، فلا يكاد البائع يبيع ما عنده ، والمشتري لم يستلم بعد ما اشتراه فإذا بصيحة الإماتة ترتفـع ، فيتوقّف كـلّ شيء حيث كان !

من خرج من بيته ربّما لن يعود إليه

﴿ فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعـون ﴾ : يتمنّى المرء لو يعود إلى أهله ، فلا يستطيع ؛ يتمنى لو يترك وصيّة ، فلا يستطيع .

منذ مدّة وجيزة ، مات أحدهم أمام باب محلّه في سـوق « وكيـل » في شيراز وذلك دون سابق مرض ، وكان في غاية الصحة والعافية ، فهل فكّر أحدٌ من تجـار السوق في شيـراز بما حـدث ؟ هل فكّـر أنه ربمـا لن يكون بوسعه أن يعود إلى بيته ؟ هل يعتبر بما حـدث ، فلا ينـظر إلى كل امـرأة سافـرة في السـوق نـظرة شهوة وخيـانـة ، ولا يبـادر إلى دعـوتهـا : تفضّلي يا سيِّدتي ؟!

يخصِّمون : أي يختصمون ويتنازعون ـ صيحة الإماتـة تأتي وهؤلاء البشر في جدال ونزاع وحوارٍ فيما بينهم ؛ أتذكّر مناسباتٍ عدّة أصيب فيها أناس بالسكتة القلبية وهم في حال نزاع وخصام ، يغضب أحدهم فيغلي الدم في عروقه ويصاب بالسكتة ! فالويلُ لذلك الشّقي الذي يموت وهو

في حالة معصية ! هل هناك وجود للإيمان في تلك الحال ؟! الحقّ أنه يَجب الخوف من تلك اللحظة ، حيث يسارع الشياطين لانتزاع آخر ذرّة من إيمان لدى الشخص ، إن وجدت ، ويشدّدون حملاتهم عليه ؛ فإن كان إيمانه مستحكماً في قلبه ، فجهودهم بالطبع ، ستذهب سدى ، فقد وَعَد الله المؤمنين بحفظ إيمانهم[1] نعم ، إذا كان الإيمان على طرف اللسان ، فذلك شأنٌ آخر[2] .

لذا هيّا ندعو معاً : « أسألك إيماناً لا أجل له دون لقائك » إلّهي هب لي إيماناً لا ينقضي حتى ألقاك ، « أسألك إيماناً تباشر به قلبي » يستحكم فيه ويثبت بمشيئتك يا رب .

فلنسارع لإرضاء أصحاب الحقوق

يذكر بعض المفسرين في صدد الـ « توصية » أن المرء يغدو عاجزاً غير قادر على النطق بكلمة واحدة كوصيَّة، فكيف به إذا أراد إتيان عمل آخر ؟! لذا فعلى العاقل أن يعمل بالاحتياط فيسارع إلى إرضاء أصحاب الحقوق قبل أن يُبتلى بيومٍ كهذا لا بد آتٍ ، ولا يؤجل ذلك إلى الآخرة .

سارع وقدّم ما استطعت فربّما   يأتيك وقت قد تُشلّ به يداك

إذاً ، فنفخة الإماتة هي المقدّمة للقيامة ، أما المرحلة التالية فهي نفخة الإحياء .

بنفخة الإحياء يعود الموتى إلى الحياة

﴿ ونفخ في الصور ﴾ نفخة الإحياء كيف تكون ؟ ذلك ما لا نعلمه ، وهناك رواية تتعلّق بـ « صور إسرافيل » تفيد أن للصور رأسين

---

(١) ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ (البقرة/١٤٣) .

(٢) ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف ﴾ (الحج/١١) .

يتّجه أحدهما إلى الأعلى والآخر إلى الأسفل ، ومنه تأتي الصيحة تقول : « أيتها العظام البالية والشعور المتخذّرة . . . » هيّا إلى موقف الحساب ، إنّه يوم النشور :

﴿ ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون ﴾ .

ما أن ينفخ في الصور حتى يقوم الجميع سراعاً من قبورهم لمواجهة حسابهم أمام ربّهم وهم يقولون :

﴿ يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ؟ هذا ما وعد الرحمٰن وصدق المرسلون ﴾ .

يقولون : لقد صدق الرحمن وعده ، وصدق المرسلون ؛ وهذا القول يحتمل أنه يصدر عنهم ، أو أنه تعالى ينقل ذلك على لسان الملائكة .

نُكتة عن المرقد والبرزخ

هناك نُكتة في كلمة مرقد . مرقد : اسم مكان بمعنى محل الرقود أو محل النوم . فبعد أن يطلّ الموتى برؤوسهم من القبور يوم القيامة يتساءلون : من بعثنا من مرقدنا ؟! فمرقدهم هو البرزخ الذي كانوا فيه يعذّبون[1] .

فالبرزخ مرحلة فيها الثواب وفيها العقاب لكلّ من غادر هذه الدنيا ، حتى وصوله إلى الجنة أو النار يوم القيامة ، يحيق به وبال ما اقترفه من ذنوب ، وما أكثر ما يطهر المؤمنون المذنبون في البرزخ بالذات ، لذا نراهم يقولون « مرقدنا » ، في حال أنهم في البرزخ .

وقد أعطي تفسير ـ وهو صحيح ـ يقول : إنّ قوة العوالم وضعفها يتناسبان مع ما سبقها تماماً ، فهما بمثابة النوم واليقظة .

---

(١) ﴿ ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴾ (المؤمنون/١٠٠) .

فالحياة على الأرض بالنِّسبة لعالم البرزخ ، إنّما تتمثل بالنوم هنا وباليقظة هناك ، ذلك أنّ قوة تأثير البرزخ أكبر بدرجات منها في الدنيا ، فالناس في الدنيا نيام ، فإذا ما ماتوا استيقظوا وانتبهوا[1] .

والأشخاص الذين كانت لهم رؤى صادقة عن الأموات يُصَدِّقون هذه المقالة، وفي كتاب (القصص العجيبة) ذُكِرَت نماذج عديدة عن هذا الموضوع ، كما حفل كتاب (دار السلام) للشيخ النوري بشواهد عديدة عليه .

القيامة بالنِّسبة للبرزخ ، يقظة بعد نوم

كما أنّ القيامة أيضاً بالنسبة للبرزخ هي بمثابة اليقظة بالنسبة إلى النّوم ، فقوّة التأثير أصلها في القيامة ، أمّا في البرزخ بثوابه وعقابه فالتأثير يكون في حدِّه الوسط ؛ فكلّ شيء بالنِّسبة إلى الدنيا يقظة ، إلاّ أنّه بالنِّسبة إلى عالم ما بعد الموت ، نوم . لذا فعندما يُطلّ الميت برأسه من القبر يقول : من أيقظني من نومي ؟ ويقع بصره على لهيب جهنّم كجبل يرسل ألسنة من نار ، ويرى الملائكة الغلاظ الشداد إلى جانب ، والمكلفين بإحضار الخلائق للحساب ، إلى جانب آخر ويرى الوجوه مسوَدَّة[2] .

إنّه يشاهد أموراً عجيبة غريبة لم يكن لها وجود في البرزخ ، أموراً تجعل الخلق يرتجفون فيجثون على ركبهم[3] .

الكلّ يقول : ربِّ نفسي إلاّ محمد (ص) فهو يقول : ربِّ أمتي . الكلُّ تخور قواهم من يوم الهول هذا :

﴿ يوم ترونها تذهل كلّ مرضعة عمّا أرضعت ، وتضع كلّ ذات

---

(١) عن أمير المؤمنين (ع) : « الناس نيام ، إذا ماتوا انتبهوا » .

(٢) ﴿ ووجوه يومئذٍ عليها غبرة ﴾ (عبس/ ٤٠) .

(٣) ﴿ وترى كلّ أمّة جاثية ﴾ (الجاثية/ ٢٨) .

حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ! ولكنّ عذاب الله شديد ﴾[1] .

نحن نسمع عن أنباء هذا اليوم ، فلو نال أمرؤ عذابه في البرزخ ، فما أبعد البون ، وأين عذاب البرزخ من عذاب يوم القيامة !! فلا تقاس لسعة البعوضة بلسعة العقرب ! أجل ، فهذا هو وعد الأنبياء ، وهو الوعد الحق .

لا تخلّف عن أمر النشور

﴿ إن كانت إلاّ صيحة واحدة ﴾ : صيحة الإحياء والنشور واحدة لا أكثر ، وليس بمقدرو أحد أن يتخلّف عنها ، كما كانت صيحة الإماتة واحدة .

يقول عليّ (ع) : لم يكن بين البشر من امتلك قدرة ظاهرة وباطنة مثل سليمان ولن يكون ، فقد كان مسلطاً على الجن والإنس والطيور والوحوش ، ومع ذلك نراه يضعف أمام الموت ، أمام نفخة الإماتة ، فمن يستطيع أن يتخلّف ؟!

(١) سورة الحج : الآية ٢ .

« ١٩ »

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إن كانت إلاّ صيحةً واحدة ، فإذا هم جميع لدينا محضرون * فاليوم لا تُظلَم نفس شيئاً ، ولا تُجزَون إلاّ ما كنتم تعملون * إن أصحاب الجنة اليوم في شُغُل فاكهون * هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون * لهم فيها فاكهة ولهم ما يدّعون ﴾ .

القيامة تقوم بعد نفختين

يقولون باستنكارٍ وهزء وسخرية : متى يكون وعد الأنبياء ؟!

والجواب هو : أمامكم صيحتان ، صيحة الإماتة حيث سيموت الجميع ، وصيحة الإحياء حيث يحيا الجميع ويبعثون . أمّا الزمن الفاصل بين هاتين الصيحتين ، فهو في علم الله ، والروايات في هذا الصدد متضاربة ، فالصيحة تكون بواسطة المَلك الإلَهي المقرّب ، إسرافيل ، ومعه بوق أحد طرفيه في الأرض والطرف الآخر في السماء ، فإذا ما نفخ فيه مات أهل الأرض والسماء[1] . ثم يأمره الله أن يموت بدوره ، فيموت ، ولا يبقى أحد إلاّ الله .

(١) ﴿ ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض ، إلاّ من شاء الله ﴾ (الزُمر/٦٨) .

ثم يأتي النداء : ﴿ لمن الملك اليوم ﴾[1] ؟ أين هم اليوم الذين كانوا يدّعون الملك ويقولون : مالي ، سلطاني ؟ فما من مجيب - إذ ذاك - سوى الله عزّ وجلّ إذ يقول : ﴿ لله الواحد القهّار ﴾[2] .

يقول الإمام (ع) : في هذا الفارق الزمني بين النفختين ، حيث لا يبقى ذو روح على قيد الحياة ، تتلاشى الأرض ، وتتفتّت الجبال[3] ، وتتبدّل السموات والأرض[4] ، فلا تبقى شجرة ولا جبل ولا منخفض ولا مرتفع ، فقد اختلف الوضع .

ظهور عدل الله في المحشر

بعد نفخة الإحياء يقف الخلق جميعاً أحياء أمام محكمة العدل الإلّهي ، وتحضر كل نفس برفقة اثنين : « سائق وشهيد »[5] ، فلا يتخلّف أحد عن الحضور ، إنّه يوم ظهور عدل الله الحقّ ، فالعدل لم يكن ظاهراً في عالم المادّة ، أمّا هنا فأقلّ عمل - ولو بقدر ذرّة - لا يسقط من الحساب .

اليوم لا يُظلم أحد ، كافراً كان أم مؤمناً ، عابداً كان أم فاسقاً[6] ، فمن عمل السوء فسيجزى بقدر عمله ، ومن عمل صالحاً أثيب عليه ، ولا عقاب اليوم لمن لم يجترح معصية ، وعقاب الذنب رهين بصاحبه ، وليس بغيره[7] .

فالعقاب إن وقع ، يكون نتيجة لعمل الإنسان نفسه ، فلا يؤتى

(١، ٢) سورة غافر : الآية ١٦ .

(٣) ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربّي نسفاً * فيذرها قاعاً صفصفاً ﴾ (طه/١٠٥) .

(٤) ﴿ يوم تُبَدَّل الأرض غير الأرض والسموات ﴾ (إبراهيم/٤٨) .

(٥) ﴿ وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ﴾ (ق/٢١) .

(٦) ﴿ فاليوم لا تُظلم نفس شيئاً ﴾ (يس/٥٤) .

(٧) ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ (فاطر/١٨) .

بأسباب من الخارج ؛ فمن قال قولاً كاذباً ، أو قولاً قبيحاً ، فمن قبح لسانه ، ومن صلّى على محمَّد وآله ، فمن عطر لسانه ، ﴿ إنْ هي إلاّ أعمالكم تُردّ إليكم ﴾ ، ﴿ وما تجزون إلاّ ما كنتم تعملون ﴾[1] .

﴿ إنَّ أصحاب الجنة اليوم . . . ﴾ :يشرع تعالى بالحديث عما يجري لأصحاب الجنّة كما يعرض لبعض ما يجري لأصحاب جهنّم ؛ وعلى المؤمنين أن يستمعوا إلى كليهما ، لأن المراد من الآيات التي تتحدث عن الجنَّة أن تحرك لديهم الشوق إلى الجنّة،ومن الآيات الأخرى أن يبعث فيهم الخوف من العقاب .

لنسأل أنفسنا : لماذا نستاء من الموت ؟ والجواب هو أننا لا نحسّ بالشوق إلى الجنّة ، فنحن نتصور الموت أفعى مخيفة ، والله عز وجل يقول لنا : ﴿ إنَّ أصحاب الجنة اليوم في شُغُل فاكهون ﴾ !!

الانشغال بنعم الجنّة ونسيان جهنّم

أوَّل ما يتحدَّث به تعالى عن أصحاب الجنّة هو أنهم في شُغُل . الشغل في اللغة العربية تعني العمل الذي يشغل صاحبه ويصرف تفكيره عن أي شيء آخره ، مثلاً شخص ينشغل بالبناء ويصرف كلَّ وقته وانتباهه لهذا العمل دون أن يلتفت إلى غيره من الأعمال ، هذا النوع من العمل يُسمُّونه شغلاً . الله يجعل لأصحاب الجنَّة شغلاً يشغلهم عن الاهتمام بصخب المحشر وزفير جهنّم وصريخ المذنبين وغير ذلك من الأهوال والمخاوف ، حتّى لو كان أقرباؤهم في جهنَّم فإنَّهم ينشغلون عنهم بما بين أيديهم من نعم الله .

فهم إذاً في شُغُل عن جهنّم ومتاعبها وشدائدها . فلا يذكرون أصحاب الجحيم إلاّ إن شاء الله ، وقد أخبرنا تعالى بذلك في القرآن

---

(١) سورة الصافات : الآية ٣٩ .

الكريم ، وذلك عندما تُفْتح كوّة يرى أهلُ جهنم أصحابَ الجنّة من خلالها فينادونهم أنْ مُنُّوا علينا بشيء مما حباكم به الله من هذه النِّعم : ﴿ أفيضوا علينا من الماء ، أو ممّا رزقكم الله ﴾[1] ، فيجيبهم أهل الجنّة : ﴿ إنَّ الله حرّمهما على الكافرين ﴾[2] . فكلّ من فارق الحياة على غير الإيمان لن يكون له نصيب من هذه النِّعم .

الشُغُل الذي يشغل الإنسان عن الأشياء الأخرى . يكون مبعثه أحياناً الهول والخوف ، وأحياناً أخرى يكون مبعثه الشوق ، فأصحاب الجنّة ﴿ فاكهون ﴾ ، في سرور ونِعمة وقد شغلهم ما هم فيه عمّا سواه .

أزواج الجنّة نعمة إلهية عظيمة

﴿ هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون * لهم فيها فاكهة ولهم ما يدّعون ﴾ : يقول بعض المفسرين : إن في هاتين الآيتين تبياناً لبعض وجوه التنعّم التي يرفل بها أهل الجنة ، فالأنس بالأزواج هو ممّا يشغلهم ، وهاتيك الأزواج إمّا هنّ من الحوريات ، أو من النِّساء المؤمنات اللواتي كانت الجنة نصيبهنّ ، وقد نوهّنا مراراً بأنّ كل مؤمنة تدخل الجنة تنضمّ إلى زوجها إن كان من أصحاب الجنّة أو ممّن نالتهم الشفاعة .

إنّ الوصال الحقيقي إنّما يكون في الجنّة . فالحور العين اللاتي أتى القرآن المجيد على ذكرهنّ بقوله : ﴿ حورٌ مقصورات في الخيام ﴾[3] أي مستورات في قباب ، وأنظارهن قاصرة عن غير أزواجِهنّ أي : هنّ لا يَرَيْنَ غير أزواجهن ، فهنّ لهم مُحِبّات ومريدات وعارفاتٍ بحقهم ، يتلألأنَ ﴿ كأنّهن الياقوت والمرجان ﴾[4] .

(١، ٢) سورة الأعراف : الآية ٥٠ .

(٣) سورة الرحمن : الآية ٧٢ .

(٤) سورة الرحمن : الآية ٥٨ .

النكاح في الجنّة تذكرة بنعمة الله

النُكتة المهمّة الأخرى ، هي أن الزواج في الجنّة يختلف عن الزّواج في الدنيا ، فلا يتصوّرنّ أحدٌ أنّهما متماثلان ، والفرق بينهما أن المواقعة في الدنيا ـ إضافة إلى ما فيها من قذارة دفع الشهوة ـ موجبة للغفلة ، أمّا المواقعة في الجنّة فهي داعية للذكر والتسبيح ، وكذلك الغناء في الجنّة ، فهو ذكر وتسبيح لله .

سأل أعرابي رسول الله (ص) : هل في الجنة من سماع ؟

قال : « نعم يا أعرابي ، إنّ في الجنة لنهراً حافّتاه أبكار من كلّ بيضاء ، يتغنّين بأصوات لم تسمع الخلائق بمثلها قط » .

وفي قول : « ليس بمزمار الشيطان ، ولكن بتمجيد الله وتقديسه »[1] .

ونظير ذلك ما جاء عن الإمام الصادق (ع) حول غناء أشجار الجنة[2] .

طعام الجنّة لا فُضالة له

لقد سمعتم أنّ داود (ع) كان إذا قرأ الزبور التفّت الطيور والوحوش في البرّيّة حوله ، وبعضها كان يقع ثم لا يقوم بعد ذلك ، كانت لا تستطيع التحمّل ، ذلك أن صوت داود (ع) من أصوات الجنة . فأوراق أشجار الجنّة تُرسل الأنغام أيضاً ، وأيُّ أنغام ! إنها تسبّح الله وتحمده ، فيتردّد التسبيح في أنحاء الجنّة كلّها ؛ والحور العين يتغنّين كذلك بحمد الله ، ويسبّحن له .

---

(١) سفينة البحار ، ج : ١ ص ١٨٣ .

(٢) عن الصادق (ع) قال : « إن في الجنّة شجراً يأمر الله رياحها فتهب فتضرب تلك الشجرة بأصوات لم يسمع الخلائق بمثلها حسناً » . ثم قال : « هذا عوض لمن ترك السماع في الدنيا من مخافة الله » ، (سفينة البحار ، ج : ٢ ص : ٣٢٨) .

أما بالنسبة للطعام ، فيرافق تناوله في الدنيا مشقة إعداده ، ثم الجهد في هضمه ، ثم متاعب طرح فضلاته ؛ وذلك على النقيض منه في الجنة ، فهذه الجهود والمتاعب لا وجود لها هناك ، ولعلّ ما يرويه البعض من أن أهل الجنة لا أدبار لهم ، عائد إلى أنهم لا يحتاجون إلى دفع الفضلات التي تزيد عن الطعام ، ذلك أن طعام الجنة لا تتبقى منه فضالة تستلزم التخلّص منها .

الحور ، مظهر رحمة الرحمن الرحيم

رواية مروية عن خاتم الأنبياء محمَّد (ص) تقول : إنّ هناك فريقاً من الحور خلقن وقد نُقِش على شفاههنّ بالنور : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ، وعلى جباههنّ « محمَّد رسول الله » ، وعلى ذقونهنّ « علي ولي الله » ، وعلى خدودهنّ يميناً ويساراً : « الحسن والحسين » .

فيا له من حسن وبهاء !! ومن تُرى سيفوز بهنّ ؟ إنّ هذه التعابير وهذه الأسماء الحسنى تنبئنا أنّهنّ من نصيب أهل التوحيد ، العارفين لله حقّاً ، والمدركين لصِفَتَيْ « الرحمن الرحيم » حقّاً ، ممّن طووا مراتب التقوى واليقين .

وقد سئل رسول الله (ص) : لمن تكون هذه الحور ؟ فأجاب : « لمن يقول بالحرمة والتعظم : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ .

وأنا الذي قصّرت وتخلّفت عن « باء » « بسم الله . . . » فكيف أدرك أسماء « الله » ، و« الرحمن » و« الرحيم » حق الإدراك ؟! أين هو انقطاعي إلى ربّي ؟! أين هو الدليل على عبوديّتي ؟!

﴿ هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون ﴾ : (وخاصة إذا كانت زوجة المؤمن في الدنيا معه في الجنة ، فقد وعد الله أن الأزواج المؤمنين سيلتقون في الجنة ، ويظهر من بعض الرّوايات أنّ

الزوجة والأولاد ـ وإن كانوا في مقام أدنى من مقام المؤمن ـ فسيلتحقون به بشفاعته بهم) .

﴿ في ظلال ﴾ : إمّا أن تكون جمع (ظلّ) أي : الفيء والرفاهية ؛ أو جمع (ظلّة) وهي ما يُرفع فيستظلّ به ، كالخيمة أو الخباء .

ففي الجنّة خيام تمتدّ الواحدة منها أربعة فراسخ طولاً وعرضاً ، فيها سررٌ من سرر الجنة ، يأوي إليها المؤمن وأزواجه ، ويتفيأون ظلالها .

يُروى عن النبيّ (ص) أنه توضع في تصرف المؤمن في الجنّة مئة فتاة بكر كلّ يوم ، وما يدعو للعجب هو أنّ الواحدة منهن تعود بكراً على الفور دون أن تعاني أي مشقّة[1] !

كما يروى عنه (ص) فيما يتعلّق بطعام المؤمن، أن شهيّته للطعام تعدل شهيّة مئة شخص في الدنيا ، مع انتفاء المتاعب الدنيويّة التي تكرّر الحديث عنها .

جمال الجنة يعدل مئة من حُسن « يوسف »

يُروى أنّ الحورية لو رآها أهل الدنيا لأغمي عليهم ، إذ لا طاقة لأهل الدنيا على جمال بهذا القدر ! وكي يتضح الأمر أكثر تذكّروا قصة يوسف ونساء مصر ، التي رويت في القرآن المجيد ، فمع أن يوسف (ع) كان بشراً ، وكان في الدنيا وفي عالم المادة ، فقد وهبه الله حسناً فائقاً إلاّ أنه ليس كجمال الجنة ، الأمر الذي يستحيل وجوده في هذه الدنيا ؛ ومع ذلك فقد قطعت النساء أيديهن بدل الأترجّ وهو (الكبّاد) وذلك عندما وقعت أبصارهن على يوسف ، غافلات عن أنهنّ

---

(١) قال (ع) : « له ، يعني للمؤمن ، في كلّ يوم مئة عذراء بكر ، لا يمل ولا تمل » (لآلئ الأخبار/ص : ٥٠٧) .

إنّما يقطّعن أيديهن[1] .

فالقصد هو انّ على كلّ كائن أن يجهد حتى يحصل على طاقة تمكّنه من إدراك هذا الجمال ، أو إدراك ما يفوقه ، وهو جمال محمّد (ص) وآله (ع) .

بشرح الصدر يُدرك الجمال

يقول تعالى : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾[2] وينقل على لسان موسى (ع) قول نردّده في الدعاء أيضاً : ﴿ رب اشرح لي صدري ﴾[3] فما هو شرح الصدر ؟

إنّه القدرة على إدراك الجمال ، أن ينال الشخص قوة يستطيع معها رؤية الجمال والتمتّع به ، فالجنة جمال فوق جمال ، ولكن من هو الذي يستفيد منه ؟ إنّه من فاز بشرح الصدر ، من أدرك سموّ عليّ (ع) . لذا أقول : أعِدُّوا أنفسكم للجنّة ، حصّلوا رُشداً صافياً يمكّنكم من إدراك الجمال ، فأنّي لمن لا حَظَّ له من الجمال أن يُدرك الجمال المجرَّد المطلق ؟!

لألاء وَجْنتيْ الحوريّة سببه دموع المؤمن

ورد في كتاب (بحر المعارف) عن أحد الأجلّاء أنه قال : عُرضت عليّ حوريّة أذهلني جمالها ، فقلت لها : من أنتِ ؟ قالت : لقد خلقني الله لك ؛ دنوت منها فابتعدت عني وقالت : الوَصْل بعد الموت !

قلت : نبّئيني إذاً ، ما سرّ هذا اللألاء في وجنتيك ؟ قالت : إنّها دموع عينيك !!

---

(١) ﴿ فلما رأينه اكبرنه وقطّعن ايديهن ﴾ (يوسف/٣١) .

(٢) سورة الأنعام : الآية ١٢٥ .

(٣) سورة طه : الآية ٢٦ .

إذاً ، فكل ما هو كائن إنّما يكون بالإيمان والعمل[1] ، فإن سلم قلبك ، فأنت في دار السلام ، في الجنة ، وأن مرض قلبك ، فأنت في مشفى الأمراض ، في جهنم[2] .

أهل الجنة في كنف لطف الله

يقول بعضهم : إن الظل يعني العزّة ، أي : الوقاية والحفظ من الآلام ، كتظليل الرأس لحمايته من الحرّ ؛ فكل ما يدفع الآلام ويجلب الراحة للإنسان ، يقال له : ظل ، كما تقولون في اصطلاحكم : لا حَسَر الله ظِلَّكم ، أي : أبقاكم الله ظلاً وحامياً من الآفات والآلام ؛ فأصحاب الجنة وأزواجهم هم في صون من الآلام .

وبتعبير الرواية : هم تحت ظل عرش الرحمٰن ، تحت ظل لطف الحق تعالى .

﴿ لهم فيها فاكهة ﴾ : وهم منشغلون بفواكه الجنّة ، من تفاح ورمان ورطب وغيرها من ثمار الجنة ،وهي ثمار تشترك مع ثمار الدنيا في الاسم ، غير أن حقيقتها شيء آخر ، كما أن لها طعماً آخر أشهى وأكثر تنوعاً .

﴿ ولهم ما يدّعون ﴾ : فكل ما يشاؤون ، وكل ما يرغبون به ، وكل ما يشتهونه مُعَدٌّ لهم . فأيُّ سلطانٍ في الدنيا ينال كل ما يريد ؟ بل إنّ ما يحرم منه ، أكثر مما يتحقق له .

لقد أتى بك الله عز وجل إلى هذا العالم وخلق كلّ شيء في العالم من أجلك ، وخلقك لنفسه وللعالم الآخر ، خلقك للخلود لا للفناء : ﴿ خلقتم للبقاء لا للفناء ﴾ ، فالمحروم هو من حرم نفسه من الوصول إلى هذه النِّعم الإلٰهيَّة .

---

(١) ﴿ وأنْ ليس للإنسان إلّا ما سعى * وأنّ سعيه سوف يُرى ﴾ (النجم / ٣٩ - ٤٠) .
(٢) ﴿ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ (البقرة/٢٨٦) .

« ٢٠ »

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سلامٌ قولاً من ربٍّ رحيم * وامتازوا اليوم أيها المجرمون ﴾ .

في ذلك اليوم حيث الأهوال والشدائد ، يكون أصحاب الجنّة منشغلين بما أعدّ لهم من نعم ، فهم في طمأنينة ودعة ، في لذة وسرور ، لا يعروهم خوف أو وجل ، ولا يلتفتون إلى هوس، بل هم لا يهتمون لتلك الأهواء . فـ ﴿ هم وأزواجهم في ظلالٍ على الأرائك متكئون ﴾ ، على السرر الإلٓهية ناعمون ، وتحت الظلال الإلٓهية متّكئون ، ومن ثمار الجنة يقطفون ، ومن لذائذها يطعمون ، وهي غير ما ألفوه في هذه الدنيا ، فالحقيقة هناك تفوق الوصف ، ولهم من كلّ هذا ما يدّعون .

سلام مباشر من الله إلى أهل الجنة

﴿ سلامٌ قولاً من ربٍّ رحيم ﴾ : « السلام عليك » ، مبتدأ خبره « لهم » . وقد ذُكِرَت وجوهٌ أخرى أيضاً . قولاً : مفعول أو حال ، السلام على أصحاب الجنّة ، وهو سلام من جانب الربِّ الرحيم .

يفيد ظاهر الآية الشريفة أنّ السَّلام هو سلام مباشر من جانب ربِّ العالمين ، وبلا واسطة ، أمّا السلام الذي يُبعث به للمؤمنين ، فهو سلام

غير مباشر ، سلام بواسطة ، يبعث للمؤمن عند الموت ، فملك الموت وأعوانه يسلّمون على المؤمنين عند موافاة الأجل[1] .

ومن أنواع السلام بالواسطة ، سلام يؤدّيه إثنا عشر ألف ملك من قبل ربّ العالمين ، يباركون للمؤمن ما فاز به . بعد أن يستقرّ به المقام فوق سريره في الجنة ، تلتفّ الحور حوله من كل جانب ، يأتونه فيسألونه ان يأذن لهم بالمثول بين يديه ، فاليوم هو يوم عزّة المؤمن ، وظهور عظمته ، يدخل الملائك من كل باب[2] فيقولون : ﴿ سلام عليكم بما صبرتم ﴾[3] في الدنيا ، وبما أدّيتم من تكاليف ، وبما تحمّلتم من شدائد ومصاعب ، وبما اتّقيتم من ذنوب ، فالجنّة مكان لا يفوز به سوى الصابرين ، وهذا هو جزاء صبركم ﴿ فنعم عقبى الدار ﴾[4] بورك لكم منزلكم ، بورك لكم ما فزتم به من جلال وتكرمة ، وبورك لكم ما يفوق ذلك : البشارة بالخلود ، البشارة بأنّ هذا المُلك خالد لكم ، وأنتم كذلك من الخالدين .

الدنيا دار فناء ، ومهما نال المرء فيها فعاقبة كليهما ـ هو وما فاز به ـ إلى الفناء ، لا فرق أيّهما كان السابق ، فما أصعب آلام الفراق !!

قصر جميل !! لولا عيبين كبيرين فيه

وردت في تفسير (روح البيان) هذه القصة :

عزم أحد السلاطين من السلف أن يبني قصراً عظيماً لا نظير له . وبعد أن أكمل بناءه دعا الناس من جميع الطبقات لمشاهدته ، ووضع عند الباب المؤدي إلى خارج القصر سجّلاً يكتب فيه كل من شاهد

---

(١) ﴿ تحيّتهم يوم يلقونه سلام ﴾ (الأحزاب/٤٤) .

(٢) ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كلّ باب ﴾ (الرعد/٢٣) .

(٣) سورة الرعد : الآية ٢٤ .

(٤) المصدر السابق .

القصر ما لاحظه من نقص ليجري تداركه فيما بعد .

وعندما تفحّص السجّل ، وجد أن الجميع قد مدحوا القصر وأثنوا عليه ، سوى اثنين رأيا في القصر إشكالاً ، فأرسل وراءهما وسألهما : ما العيب الذي شاهدتماه في القصر ؟

قالا : إن عيبين يشوبان هذا القصر ، ولكن ما الفائدة ؟ فإصلاحهما مستحيل .

قال : ما هما ؟

قالا : نخشى غضب السلطان .

قال : لا عليكما ، فقولا .

قالا : العيب الأول ، أنّ هذا القصر عاقبته إلى الخراب ، والعيب الثاني أنّ صاحبه سوف يفترق عنه !

فكيف تشغف بشيء لن يدوم ؟!

الغرض هو أنّ الآية الشريفة ﴿ فنِعْمَ عقبى الدار ﴾ ، تعني تلك هي الدّار الحقيقية الخالدة ، الخالية من كلّ عيب ، التي لن ينالها خراب ، ولن يفترق صاحبها عنها .

نِعْمَ الفخر سلام الله على المؤمن

سلام عليك أيها المؤمن ، سلام مباشر لك من ذي الجلال والإكرام ، بعد تلك السلامات غير المباشرة ، فإنّ أرفع نعمة إلهية في الجنة عند أهل الفهم والمعرفة ، هي سلام الله المباشر ، فَنِعَمُ الله كلّها في جانب ، ونعمة خطاب الله في جانب آخر ، فالله يسلّم مباشرة على عبده ، وإن ذِكْر الله هو في الحقيقة ذِكْر مع التحيّة والثناء .

إنّ الله يخاطبك أنت يا حفنةً من تراب ؛ فالويل لذلك

الشقيّ الذي يغرق في أوحال الدنيا ويفقد أهليَّة خطاب الله له .

السلام ليس تحية فقط ، بل هو يتضمّن الحقيقة ، وعلى الخصوص إن كان سلاماً من قبل الروحانيين ، أو سلاماً من قبل النبي ، أو سلاماً من قبل الإمام ، أو سلاماً من قبل الملائكة ، فكيف إذا كان سلاماً من الله ، إنّه إذاً ، السلامة المطلقة ، السلامة من كل غمٍّ وكلِّ لغو ، والسلامة من كلِّ مرض ومن كل نَصَب ، حتى الفتور والضجر والملل لا وجود لها[1] ، بل هناك العافية المطلقة . لا وجود لأيٍّ حقد أو حسد على الإطلاق، فلو كان عند أحدٍ ذرّة من حسد، فمكانه في مستشفى جهنّم حتى يطهر ، ومن ثم يأخذ مكانه في دار السلام ، فالجنّة هي دار السلام[2] ، السلام من كل أذى ومرض ، والأهم من ذلك كلّه إنّما هو الخلود ، فلا فناء ولا زوال في الجنة .

رسالة من الله إلى العبد المؤمن

يُروى عن خاتم الأنبياء محمَّد (ص) أن تحيَّة الله لعبده المؤمن بعد أن يستقر في الجنّة إنما هي ﴿ سلامٌ قولاً من ربٍّ رحيم ﴾ ، وجاء في هذه الرواية أن التحية تأتي بشكل رسالة يحملها ملَك من جانب ربّ العالمين للمؤمن ، فيفتحها فإذا فيها : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من الحي الذي لا يموت إلى الحي الذي لا يموت ، إنّي كنت إذا قلت لشيء كن فيكون ، فقد جعلتك اليوم كذلك » .

أليس في هذا الوصف للجنة مثاراً للشوق عند من سمعه ، وبالأحرى عند من قاله ، أم لا ؟ ألم نصبح ممن يقولون : « أشتاق إلى قربك في المشتاقين » أم لا ؟ هلا بلغنا مرتبة أصحاب علي (ع) ، الذين يصفهم بقوله : « ولولا الأجل الذي كتب الله عليهم لم تستقرّ أرواحهم

---

(١) ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً * إلاّ قيلاً سلاماً سلاماً ﴾ (الواقعة/ ٢٥ ـ ٢٦) .

(٢) ﴿ لهم دار السلام عند ربِّهم ﴾ (الأنعام/ ١٢٧) .

في أجسادهم طرفة عين ، شوقاً إلى الثواب »[1] .

أمستعدٌّ أنت لطلب الموت ؟

ليس القول أن تتمنّى الموت ! فهذا خطأ ، وقد نُهيَ عنه ، ثمّ ما الفائدة من تمنّي الموت ؟ أتتصوَّر أنّك ستفوز بالراحة ؟ فمن يعلم ، ربّما في موتك بداية للشدائد والعذاب .

« سمع موسى بن جعفر (ع) رجلاً يتمنّى الموت ، فقال له :

هل بينك وبين الله قرابة يحاميك لها ؟

قال : لا .

قال : فهل لك حسنات قدّمتها تزيد على سيّئاتك ؟

قال : لا .

قال : فأنت إذاً تتمنى هلاك الأبد »[2] .

فلنطلب العفو في هذه الليالي من الشهر المبارك ، فصاحبنا إنما يتمنّى ما تمنّى قولاً على لسانه ليس إلاّ ، فأين هو من تمنّي الموت ؟! فلو خفّ عنه ما يقاسيه ، فجعله يتمنّى الموت ، لندم على ما تمنّاه . قال تعالى :

﴿ ولو يعجّل الله للناس الشرَّ استعجالهم للخير ، لقُضي إليهم أجلُهم ﴾[3] .

أمّا علي (ع) ، فهو حين يطلب طلباً كهذا إنما يطلبه من شوقه إلى الجنة ، وشوقه إلى لقاء الله ، من شدة تطلّعه إلى وعد الله وثوابه ؛ مع

---

(١) نهج البلاغة / خطبة همام .

(٢) سفينة البحار ج ٢ ص ٥٥٥ .

(٣) سورة يونس : الآية ١١ .

خوفه من عقابه ، وخشيته من عذاب الله وفراق أوليائه ، خوفاً يكاد يذهب بنفسه .

ها أنتم ترون الناس يحنّون شوقاً إلى كل شيء ، إلاّ الشوق للجنّة وثواب الله ، ويخافون من كلّ شيء ، إلاّ الخوف من العذاب وعقاب الله !!

الانتقال من العمران إلى الخراب مؤلم

خذوا مثال الشوق إلى لقاء الله من فاطمة (ع) ، فقد سمعتم أنّه ما أن قال لها النبيّ (ص) : « أنت أوّل أهلي لحوقاً بي » ، حتى فرحت وضحكت ؛ وهذه هي علامة أولياء الله[1] .

ورد في (كشكول) الشيخ البهائي أن أحدهم سأل الإمام المجتبى (ع) : لماذا نستاء من الموت ؟ فأجابه بما مضمونه : ذلك أنكم قمتم بإعمار دنياكم ، ومن الواضح أنّ أحداً لا يميل إلى الانتقال من مكان عامر إلى آخر خَرِب ؛ فمن كانت آخرته خَرِبة ، ولم يُعدّ لها عدّتها ، فهو بالطبع لا يحب الانتقال إليها .

لا بدّ من فصل المذنبين في المحشر

﴿ وامتازوا اليوم أيها المجرمون ﴾ ، امتازوا : مِن ماز الشيء وفرزه عن غيره ، وهو أمر تكويني وليس اختيارياً ، ففي بداية موقف الحشر ، يأتي النداء : اليوم لا بُدَّ أنْ تمتازوا أيُها المذنبون ، ففي الدنيا كانت أعمالكم مستورة لا يعلم أحد شيئاً عما يبطنه الآخر ويخفيه ، وما أكثر المرائين والمنافقين الذين كانوا دخلاء على المؤمنين ، أمّا اليوم ، فهو يوم كشف الحقائق والمكنونات[2] ، ﴿ الحاقّة ما الحاقّة ﴾ ؟ إنها

---

(١) ﴿ إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنّوا الموت إن كنتم صادقين ﴾ (الجمعة/٦) .

(٢) ﴿ يوم تُبلى السرائر ﴾ (الطارق/٩) .

القيامة ، وهنا لا مجال للإدّعاء ، بل لا وجود لغير الحقّ والحقيقة والوقائع ، والمذنب لا بُدَّ له أن يمتاز ويفرز من كل ناحية : صورةً ، وقولاً ، ومكاناً ، وزماناً . المذنبون يصبحون على جِدَة ، وما أن يأتي النداء التكويني القهري ، حتى يَسْوَدَّ وجه المذنب على الفور ، ويبيض وجه من كان من أهل الجنّة ، ولهذا فإن المذنبين يعرفون بسيماهم ، أي باسوداد وجوههم[1] .

لا بدّ أنكم رأيتم القرد ، إن شكل الخنزير والقرد يكون جميلاً بالقياس إلى أشكال بعض المذنبين ، ﴿ **يحشر الناس على صورٍ تحسن عندها القردة والخنازير** ﴾ ، البعض يتّخذ شكل الكلب ، والبعض يحشرون على هيئة النّمل لأنهم كانوا متكبِّرين .

فعن الإمام الصادق (ع) : « ما من رجل تكبّر أو تجبّر إلاّ لذلّة وجدها في نفسه »[2] .

هذه الأمور لا تتّضح هنا ، إنما تتّضح غداً يوم المحشر عندما يحشر المتكبر على هيئة النملة ، ذليلاً وحقيراً ، وكلّ واحد يُعرف عمله من صورته ، فإن كان ضخم البطن منفوخها لا يستطيع حراكاً ، فيعرف أنّه كان يأكل الرِّبا[3] .

لا يُسأل عما فعل فالأمر واضح

أحد مغاني الآية الشريفة : ﴿ فيومئذٍ لا يُسأل عن ذنبه إنْسٌ ولا جان ﴾[4] ، هو أن المذنب ـ من الإنس كان أم من الجان ـ لا يُسأل عما

---

(١) ﴿ يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام ﴾ (الرحمن/٤١) .

(٢) أصول الكافي ، باب الكبر ح ١٧ .

(٣) ﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلاّ كما يقوم الذي يتخبّطه الشيطان من المسّ ﴾ (البقرة/٢٧٥) .

(٤) سورة الرحمن : الآية ٣٩ .

اقترف من ذنب ، ذلك أن ذنبه يكون واضحاً كلّ الوضوح ، فلا لزوم للإستفهام ، خاصة وأن أعضاءه ذاتها تشهد كما سيأتي : ﴿ اليوم نختم على أفواههم وتكلّمنا أيديهم وتشهد أرجلهم . . . ﴾[1] .

المرحوم الفيض نقل أيضاً رواية في (عين اليقين) مفادها أنّ شارب الخمر يَرِدِ المحشر وزجاجة الشراب في يده ؛ وعازف الطنبور يأتي والطنبور في يده .

كما وردت في القرآن إشارة إلى هذا الأمر[2] ، فكلٌّ من عمل عملًا سيِّئاً يتمنّى لو كان بعيداً عنه ، يتمنّى لو أنَّ وعاء الشراب هذا أو الطنبور يكون بعيداً عنه ولكنه يلزمه ! عجيبة هي أحوال القيامة والآخرة ، فأنت لا ترى سورة من القرآن المجيد إلّا وفيها طرف من ذلك العالم ، لعلّ الخوف يحيط بالنفوس .

يحسن في هذه الليالي القليلة المتبقيَّة من شهر رمضان ، أن نردِّد مع علي (ع) هذه المناجاة : « مولاي مولاي ، الأمان الأمان » ربِّ هب لي أماناً من هول يوم القيامة .

عندما تُنشر صُحُف الأعمال ، يعطى المجرم صحيفته في شماله ، ويعطى المؤمن صحيفته في يمينه ، ومن الأمور التي يمتاز بها المجرمون عن غيرهم أن أحدهم ما أن يطلّ من القبر حتى يقول :

﴿ يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ﴾ .

وهذا القول إنما هو علامة على كون قائلة من المجرمين ؛ وفي المقابل فإن قوماً آخرين يقولون :

﴿ الحمد لله الذي صدقنا وعده ، وأورثنا الأرض نتبوَّأ من الجنّة

---

(١) سورة يس : الآية ٦٥ .

(٢) ﴿ وما عملت من سوءٍ تودّ لو أنّ بينها وبينه أمداً بعيداً ، ويحذّركم الله نفسه ﴾ (آل عمران/ ٣٠) .

حيث نشاء ، فنعم أجر العاملين ﴾[١] .

من كان في الدنيا قد أطلق لسانه ، فراح يتفوّه بكل ما يجري عليه ، فسيلقى في جهنم أيضاً السنة سليطة ، فإن أهلها يتأذّون من ألسنة بعضهم فقد جاء في الرّواية أن الواحد من أهل جهنّم يكتم آلامه التي يلقاها من العذاب خوف شماتة من هم ـ مثله ـ مصفّدون في الأغلال .

يتساقطون في نار جهنم كما يتساقط الخفافيش

يتقابل على الصراط من فتنتهم أنفسهم (أهل جهنم) مع من أخمدوا فتنة النفس (أهل الجنة) ، فيُفصل بين الفريقين :

﴿ فضُرب بينهم بسورٍ له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قِبَله العذاب ﴾[٢] .

وهكذا يتقدمون ، أما المجرمون فيتساقطون في جهنم كتساقط الخفافيش أمام النار ، كما يقول رسول الله (ص) ، أما المؤمنون فيدخلون جنة النعيم في مقعد صدق ومجلس حق[٣] .

ربَّنا ، هب لنا إيماناً نصدِّق به هذه المعاني ، فنخشى من فضيحة يوم القيامة ، من أن نفتضح أمام الأوَّلين والآخرين .

أيُّها الشرفاء ، احذروا الغفلة ، وصونوا قلوبكم عن القسوة ، فإن غفلة النفس والأهواء والرغبات ، والأماني تقلّل الإيمان ، ذلك الإيمان الذي يبوِّئك مقعد الصدق ومقام الحق .

---

(١) سورة الزُمر : الآية ٧٤ .

(٢) سورة الحديد : الآية ١٣ .

(٣) ﴿ وقضى بينهم بالحق ، وقيل الحمد لله ربّ العالمين ﴾ (الزُمر/٧٥) .

شدوني إلى النّار عساني أفيق

ورد في كتـاب (أسرار الصـلاة) للتبريـزي ، عن أحوال العـلامـة الشيخ مهدي المازندراني ، المجتهـد المسلم ، أنّ هذا الجليـل كان في بعض الأحيان يشعر بالغفلة في نفسه، فكان يخرج مع ابنـه وخادمـه خارج المدينة إلى البريّة ، وهناك يأمـرهما بتنفيـذ ما يـطلب منهما دون تـردد أو حرج ، ثم يقوم معهما بجمع الحطب ، وإضرام النار ، ثم يطلب منهمـا أن يجرّاه نحو النّـار جرّاً وأن يقـرّبا رأسـه من النار وأن يقـولا لـه : أيُّهـا العجوز العاصي ، تصوُّر قيام الساعة ! فعسى أن توقظني حـرقة النـار من غفلتي .

حين أوقد علي (ع) التنور في بيت أم اليتامى لإعداد الخبـز لهم ، قرّب وجهه من النار وقال مـا مؤداه : ذُقْ يا علي حـرارة النار ، فـأنت لن تحتمل نار الآخرة[1] !

ذِكْر الموت علاج للغفلة

إنّ الغفلة تحـول دون ظهـور الإيمـان ، فـالإيمـان ضعيف والغفلة كثيـرة ، فليسع كـلّ منّـا ـ قـدر استـطاعتـه ـ أن يـذهب الغفلة عن نفسـه بالتفكير في أسباب التذكُّر ، فإنّ مـا يحول دون السمّـو المعنوي إنمـا هو هذه الآمال والأماني[2] .

ما لم يُداس على الأهواء فأنّى للشوق إلى لقاء الله أن يحصل .

يقـول علي (ع) : « إنّ أخـوف مـا أخـاف عليكم اثنـان : اتّبـاع الهـوى ، وطول الأمـل »[3] . لـو فكـر أحـدنـا بـاقتـراب المـوت لأحس بالسكينة والاطمئنان ، ومـا إلى الـطاعة ، رأى الحسين (ع) حـزن زينب

---

(١) بحار الانوار ، ج : ٩ .

(٢) « وأنّك لا تحتجب عن خلقك إلاّ ان تحجبهم الآمال دونك » . (دعاء أبي حمزة الثمالي) .

(٣) نهج البلاغة .

البالغ ليلة عاشوراء ، فعالج حزنها بالدواء الوحيد ، وهو ذكر الموت ؛ ذكّرها بأنّ جدّه وأباه كانا أفضل منه ، وانتهيا إلى الموت ، فسكنت نفسها .

« ٢١ »

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنّه لكم عدوٌ مبين * وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم * ولقد أضلّ منكم جِبِلاً كثيراً ، أفلم تكونوا تعقلون ﴾ ؟

الرد على اعتراض الجناة

بعد أن يرتفع النداء : امتازوا أيها المجرمون ، يا عَبَدَةَ الشيطان ، والهوى ، فمكانكم اليوم جهنّم ، والإكرام والسمّو اليوم لعباد الله ؛ يظهر الضيق بالطبع على العصاة ، ويعترضون ، فتأتي الحجة الدامغة تقطع أي اعتراض لديهم ، فيقال لهم : ألم نعهد إليكم ونشرط عليكم ونحذّركم في الدنيا أنّ لا تعبدوا الشيطان ؟!

ورد عهد الله إلى البشر في ثلاث مراحل ، إحداها : مرحلة عالم الذّر ، والثانية مرحلة آدم أبي البشر ، والثالثة وهي أهمّها : العهد الذي أخذه الأنبياء على البشر بأن لا يعبدوا الشيطان ولا يتّبعوه فهو : ﴿ لكم عدوٌ مبين ﴾ ؛ ألم يوصوكم أن تعبدوني ، وأنّ هذا هو الصراط المستقيم ؟! فالصراط المستقيم إنما هو عبادة الرحمٰن ، وليس عبادة الشيطان !

﴿ ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً ﴾ : فالشيطان قد أغوى وأهلك قبلكم كثيراً من الخلق !

﴿ أفلم تكونوا تعقلون ﴾ ؟ ألم تفكّروا ماذا كانت عاقبة غواية الشيطان لمن سبقكم ؟ فلا يمكنكم القول اليوم : ربّنا ، لم نكن نعلم ! فقد تمّت عليكم الحجّة ، وكانت الكتب السماوية بين أيديكم ، فأين هي عهودكم لله ؟!

في هذه الآيات أمور عدّة ينبغي التدقيق فيها ، أحدها : ما هو المراد بعبادة الشيطان ؟ والثاني : ما هو سبب عداء الشيطان للإنسان ؟ والثالث : ما هي سبيل الخلاص من هذا العدو المبين ؟

الشيطان مخلوق من مخلوقات الله التي لا حصر لها

أولاً : الشيطان مخلوق مثله مثل سائر المخلوقات ، إنّ لله في هذا الكون أنواعاً من الموجودات لا نُدرك ولن ندرك جزءاً من مليون منها ! لو وضعنا قطرة ماءٍ واحدة تحت المجهر ، لرأيناها تضم الملايين من الأحياء الدقيقة التي تشعر وتتحرّك وتنبض بالحياة ، لكنّها لا يمكن أن تُرى بالعين المجرّدة .

فأحد موجودات الله ، هو الشيطان الذي تغلب فيه طبيعة الهواء والنار ، بينما تغلب في الإنسان طبيعته الترابية ؛ فإذا مات الإنسان وفتحوا له قبره ، يرى جانبه الترابي الغالب ، بينما تتلاشى الجوانب الأخرى وتزول ؛ أما الشيطان ، الذي يغلب فيه الجانب الناري والهوائي ، فهو لا يشاهد ولا يترك ظلاً له ، ولذا فهو غير قابل للرؤية بالعين المادّية .

فالقرآن المجيد يقول : ﴿ إنّه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ﴾[1] فالعين الحيوانيّة لا ترى الجسم اللّطيف ؛ كما أن الشيطان

---

(١) سورة الأعراف : الآية ٢٧ .

يتوالد ويتناسل كالإنسان، ويروى أن مقابل كل إنسان يوجد ثلاثة شياطين ؛ أمّا كيف يتناكح ويتناسل ، فذلك غير معلوم ، وقد يكون مخلوقاً دفعياً .

ما هو سبب عدائه للإنسان ؟

الحسد والكِبْر فقط هما اللذان أوجبا عداوته للإنسان . ونضرب لذلك مثلاً : أحدهم كان له غلامان ، فتلطّف وأنعم عليهما ، فأعطى أحدهما أكثر من صاحبه ، دون أن ينقص من حصّته شيئاً ، فإذا به يعترض ويقول : لماذا أعطيته أكثر ممّا أعطيتني ؟!

هذا كفر واعتراض على صاحب النِّعمة ومن بيده حقُّ الاختيار . والحسد بمختلف أشكاله موجود بين الناس ، وخاصة بين زملاء المهنة ؛ تُرى هل أخذ من مالك وأعطي إلى زميلك ؟!

رأى الشيطان أنّ الله تعالى يهب مخلوقاً ترابيّاً ، هو آدم وذرِّيته ، مزايا كثيرة ، فأدرك أنّ هذا الموجود سوف يبلغ مرتبةً تُصبح معها الملائكة خدماً له ، فها هي تسجد له ، وهو لذلك أشرف المخلوقات ، فما أن أدرك هذا الأمر ، وطُلب من الجميع أن ينحنوا تعظيماً لهذا المخلوق ، حتى غلب عليه الكبر والحسد ، فاعترض على ربّ العالمين .

كنتُ مَلَكاً في فردوس الملائكة

كانت للشيطان منزلة رفيعة في بادىء الأمر ، بل يُروى أنّه كان خطيب الملائكة ، وكان له احترامه في العالم الأعلى ، وله العديد من الأتباع ، ومع ذلك فإن الحسد والكبر والنخوة جعلته في شقاء دائم ، كان يقول : أنا مخلوق من النار ، والنار أسمى[1] ، وأنا الجدير أن يبلغ

---

(١) ﴿ أنا خير منه ! خلقتني من نار ، وخلقته من طين ﴾ (الأعراف/١٢) .

بمقام القرب ، وليس آدم الذي هو من تراب !

الإعتراض على قضاء الله كفر ، فما أن ظهر كفر الشيطان حتى ارتفع نداء القهر الإلهي : أفي بيت الله يراودك الحسد والكبر ؟! اخرج فإنّك من الصاغرين[1] . والصغار نتيجة للتمرّد في الحضرة الإلهية ، وكلُّ من رأى نفسه شيئاً مهماً فهو أصغر الأشياء ، وفي بيت الله المطلوب إظهار العجز والإنكسار .

يجب أن يكون خضوعك لله خالصاً ، لا مكان فيه لأحد غيره ، فلا إقرار بالعظمة لغير الله ! فمن أنت حتى تقول : أنا أشرف ! أو أنا أعلم ! أو أنا أشدّ ورعاً ؟! فقولك هذا : أنا ، أنا ، لا قيمة له على الإطلاق ، المخلوق الأسمى في عالم الوجود ، محمَّد (ص) يقول : الفقر فخري أنا مسكين أجالس المساكين» ؛ أمّا عليّ (ع) فينسب إليه قوله كذلك : حاجتي إلى الله فخري ، فأنا محتاجٌ أجالس المحتاجين .

زين العابدين (ع) في دعاء عرفة يقول : « أنا أقلُّ الأقلّين بل أنا أقلُّ من الذرّة » ، فكلُّ من نوّه بفضله ، كان مع الشيطان ـ في هذا المجال ـ سواء .

لقد أحرق الشيطان نفسه بسبب آدم فكان نصيبه الطرد الأبدي ، كان قد عبد الله ستة آلاف سنة ، فلمّا تكبَّر وحسد ذهبت كل عبادته أدراج الرياح ؛ فعداؤه لآدم وذريَّته عداءٌ عنيف مستحكم ، وهو لن يكون رفيقاً للإنسان أبداً ، بل هو عدو عنيد له ، فعليك أنت أيضاً أن تتخذه عدواً[2] ؛ فلا تتبعوه ، إنّه عدوّ لكم قطعاً ، والعاقل يتجنّب عدوّه ويحذره .

الشّباب الذين يقفون صفوفاً في هذا الجوّ الحار أمام دور السينما ،

(١) ﴿ فما يكون لك أن تتكبر فيها ! فاخرج إنّك من الصاغرين ﴾ (الأعراف/١٣) .
(٢) ﴿ إنّ الشيطانَ لكم عدوّ ، فاتّخذوه عدواً ﴾ (فاطر/٦) .

أليسوا عبيداً للشيطان ؟ إنه يحبسهم تحت الشمس المحرقة ، وهو لن يدعهم حتى يهلكهم !

عَمل الشيطان سلب الإيمان أو تخريب العمل

أود أن يتّضح لكم معنى عداء الشيطان لآدم وذرّيته ، فعداوته تهدف إلى حرمان بنيِ آدم من الفوز بمقام القرب من ربّ العالمين ، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

فهو يجهد منذ البداية وحتى قيام الساعة أن يَسْلب أصل الإيمان ، ويعمل على التقليل منه ما استطاع ، فإن لم يستطع تحقيق أربه عن طريق الإيمان ، انصرف إلى أفساد العمل ، فعبادة الشيطان تكمن في إطاعته ، فلا تُصْغِ إليه ، وسبيلك إلى ذلك عبادة الرحمن : ﴿ وأن اعبدوني هذا صراطٌ مستقيم ﴾ . فالصراط المستقيم هو الشرع المقدّس ، الواجبات والمستحبات ، المحرّمات والمكروهات ، هذا هو الصراط المستقيم .

الشيطان يحرفنا عن الصراط المستقيم ، أي إنّه يُوسوس لنا فيدفعنا إلى الحرام ، أو يفوّت علينا عمل واجب ، المسالمة مع العدوّ تعني الذنب ، إذا ما ارتكبت ذنباً ثم كُشِفَ لك الغطاء ، ظهر لك باطنك ، فإذا أنت ساجد للشيطان ، وتلك هي صورتك الملكوتية .

﴿ لا تعبدوا الشيطان ﴾ ، فهو عدوُّكم . إنّه لا يتركُكم حتى يُميتكم على غير الإيمان ، وإليكم هذه القصة :

الشيطان يجيب عبدَه

ورد في كتاب (منتخب التواريخ) عن أحد علماء إصفهان الكبار أنّه قال : في قرية من قُرى إصفهان كان أحد أهلها يسلم الروح ، فدَعَوْني إليه فذهبت اقتربت من فراشه وقلت له : قُلْ : « لا إله إلاّ الله »

ففعل ، وفجأة ، ارتفع صوتٌ من ناحية الزّاوية الشمالية للغرفة يقول : « صدق عبدي » ، فقلت للمحتضر : قُلْ : يا الله . ففعل فارتفع صوتٌ يقول : « لبَّيك عبدي » .

هناك إذاً أحدٌ يجيب المحتضر ! قال : من أنت ؟ قال : إنَّ هذا الرَّجُل كان من أتباعي عمراً بأكمله ، كان خادمي ، كان لي عبداً خالصاً مخلصاً ! فسأله : من أنت ؟ قال : أنا الشيطان ! !

كان هذا الرَّجل إذ قال : يا الله ، إنما يقول : يا معبودي . ألا خسىء ذلك الذي يُنادي عدوَّه ، ويخاطبه بالمعبوديَّة !

القُرَناءُ الذي يَذْكرهم في القرآن بقوله : ﴿ مقرّنين دعَوا هنالك ثُبوراً﴾[1]، والذين يرد ذكرهم في الدُّعاء الذي تقرأونه في أسحار شهر رمضان المبارك : « ومع الشياطين فلا تغلّنا » ، إنّهم الشياطين الذين تدعو أن لا تقرن معهم في غلٍّ واحد ؟ لذا فلا تكن مطيعاً لهم ، لا تعبدهم . الناس في حال الغضب هم بمثابة عبيد للشيطان بألسنتهم السليطة ، وكلامهم الفاحش ، إلى التُّهَم وهتك الكرامات وإفشاء الأسرار وغير ذلك . حذار أن تُسلم قيادك للشيطان . ألَيْس من الخسارة بمكان أنّ من كان له إله رحيم منعم ، أن يُعرِض بوجهه عنه ؟ ثم يقبل بوجهه على من ؟ على عدوِّه ؟ فالله والنبيّ والإمام يقولون لنا : اتّخذوا الشيطان عدواً ، خالفوه ، أيليق بكم أن تتّخذوا من العدو صديقاً ؟! كيف ستجرؤون على رفع رؤوسكم غداً ؟ لقد أمرتم باتخاذه عدواً ، فأطعتموه واتّخذتموه صديقاً ، فيا لها من مفارقة ! !

أسلحة المؤمن في حربه مع الشيطان

قال رسول الله (ص) لأصحابه : « ألا أخبركم بشيء إن أنتم فعلتموه تباعد الشيطان منكم تباعد المشرق من المغرب » ؟

---

(1) سورة الفرقان : الآية ١٣ .

قالوا : بلى . قال :

« الصوم يسوّد وجهه ؛ والصدقة تكسر ظهره ؛ والحبّ في الله ، والمؤازرة على العمل الصالح ، يقطعان دابره ؛ والاستغفار يقطع وتينه »[1][2] .

فالصوم يسوّد وجه الشيطان ويبدو على هذه الصورة في عالم الملكوت ؛ والصدقة تكسر له ظهره ؛ أما إن شئت أن تخمد أنفاسه وتقطع دابره نهائياً عنك ، فأحب كلّ ما تحبّه في الله ، ولتكن محبتك لأولادك وزوجك ورفيقك في سبيل الله ، وليس في سبيل الغرض وهوى النّفس ؛ طفلك أحبّه على أنّه نعمة من الله ، ليُصلّي مكانك إذا مِتّ ، ليقول : يا الله ، ويكون لك حسنة جارية في سبيل الله ، وأنت يا سيِّدتي ، لتحبّي زوجك من أجل الله ، فهو واسطة صون عفتك ودينك ، وليكن حال الرجل كذلك بالنسبة لامرأته .

الاستغفار يقطع رباط قلب الشيطان

« والاستغفار يقطع وتينه » : أنتم يا من تريدون أن تكون حربكم مع هذا العدو مثمرة فعّالة ، فها هو رسول الله (ص) يضع في أيديكم سلاحاً آخر ، يقول لكم : اقطعوا بالاستغفار وتين الشيطان ، اقطعوا نياط قلبه ، فملكوت الاستغفار هو السلاح الفعّال الذي يقضي فعلاً على الشيطان .

مَن منّا لم يُطع الشيطان ؟ نحن غالباً في حال نزاع فيما بيننا ، هذه هي عبادة الشيطان ، فالنفور الذي يحتلّ قلوبنا نحو بعضنا ، وقطع الأرحام ، كلُّ ذلك عبادة للشيطان . فهيّا أصلحوا ماضيكم قبل فوات الأوان ، تداركوا أخطاءكم ، اسمعوا كلام الله ، اسجدوا للرحمن سجود

---

(١) سفينة البحار ، ج ٢ ص ٦٤ .

(٢) الوتين : العرق الرئيسي في القلب .

الطاعة ، كونوا رفاقاً للأنبياء والشهداء والصالحين[١] . أيتها السيِّدة ، كوني رفيقة للزهراء (ع) ، وأنت أيُّها السيِّد ، كن رجلاً ، كن شهماً وحرّاً[٢] .

(١) ﴿ فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين ، وحَسُن أولئك رفيقاً ﴾ (النساء/٦٩) .

(٢) ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ (النور/٣٧) .

« ٢٢ »

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنّه لكم عدوٌ مبين * وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم * ولقد أضلّ منكم جبّلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون * هذه جهنّم التي كنتم توعدون ﴾ .

أي بني آدم ، ألم نعهد إليكم ـ بواسطة الأنبياء جميعاً ، بدءاً من آدم وانتهاء بالنبي الخاتم ـ أن لا تعبدوا الشيطان ، وأن تحذروه إذ هو عدوُكم المبين والعنيد ، وأن تتخذوه عدواً ، لا أن تتخذوه صديقاً وتتبعوه ، لأنه يقودكم إلى الخسران ؟ .

يا بني آدم ، حذار أن تتبعوا خطوات الشيطان ، حذار أن تترسّموا خطاه[1] ، فهو عدوُكم !

سبق أن تحدثنا قليلاً عن عداوة إبليس لابن آدم ، واليوم نُكمل حديثنا في هذا الصدد .

كيف نفرّ من عدوّ نجهله

لو سأل سائل : كيف نفرّ من عدو لا نعرفه ولا نراه ؟ يقول

---

(١) ﴿ لا تتبعوا خطوات الشيطان ﴾ (البقرة/١٦٨) .

تعالى : ﴿ فاتّخذوه عدوّاً ﴾ . حسناً ، دُلّنا عليه حتى نحذره ونفرّ منه !
وإلى السائل نقول :

سنعرض بداية مثلاً ، ثم نطبّقه على المقصود :

لو أنّ مؤمناً صادقاً اخبرني أنّ جيشاً مجهّزاً سوف يغير على المدينة ، يَنْهَبُ كلُّ بيتٍ يجد بابه مفتوحاً ، وكلُّ محلٍّ كذلك ، فالعقل في هذه الحالة يقول : عليك بالاحتياط ، أغلق باب بيتك ومحلّك وأحْكِمْ إقفالهما .

أمّا من كان جاهلاً فيقول : تُرى ما جنس أولئك الغزاة ؟ أعَرَبٌ هم أم عجم أم أتراك؟ أمعهم سلاح أم لا ؟ فما فائدة هذه الأسئلة ؟! فكلّ ما عليك ومهما يكن الأمر ، هو أن تغلق أبوابك وليكن بعدها ما يكون!. فإنّك إلى أن تتعرف على أجناسهم ، تكون قد غُزيت وانتهى الأمر !

سواء عرفت حقيقة العدوّ أم لا ، فعليك بالحذر ، لئلا تقع في الشّرك ، ويغار عليك . الشيطان واحداً كان أم أكثر ؟ كيف يوسوس ؟ كيف يعمل أعوانه ؟ مالَك ولهذه الأسئلة ، أم أنّك تريد أن تكون كذلك الأحمق الذي جاء إلى الشّعبي ؟!

الشيطان ذكَرٌ أم أُنثى ؟ وهل له زوجة وأطفال ؟

قال رجل للشّعبي ، وكان من العلماء المعروفين في زمانه : عندي مشكلة أطلب منك حلّها .

قال : وما هي مشكلتك ؟

قال : هل للشيطان زوجة أم لا ؟

تذكّر الشعبي الآية القرآنيّة ﴿ هو وذرّيّته ﴾ التي تثبت أنّ للشيطان أولاداً ، فأجابه :

إنّ له أولاداً ، فهو يتزوج إذاً ، وتكون له زوجة .

قال : ما اسم زوجته ؟

فقال الشعبي : وهل حضرتُ عقد قرانه حتى أعرف اسم زوجته ؟!

عليك الإنتباه إلى الطريق التي يتسلط منها عليك ، فقم بسدّها ؛ إنّ السبيل لقهر الشيطان وتسلّطه ، هو العبوديّة لله : ﴿ أن اعبدوني هذا صراطٌ مستقيم ﴾ .

إذا مَضَيْتَ في خط الإيمان والتوكُّل على الله ، فإنه لا سلطان له عليك[١] ، أمّا إذا ابتعدت عن خط العبوديّة لله ، أوقعك الذنب في كمين الشيطان ، إيّاك أن تقع في كمينه ، فكمين الشيطان في ترك الواجبات ، بل في التخلّي عن سُنَنِ محمَّد (ص) ، فكل ما هو مبغوض من الله ورسوله ، محبوبٌ من الشيطان ، وكلّ ما هو محبوب من الله والرسول ، مبغوض من الشيطان ؛ فالشيطان يَشْتاء من الصلاة والصيام والصدقة والتواضع وكل ما هو حسن ، وجميل ، الشيطان لا يرضى أن يتم الصلح بين متنازعين[٢] ، وهو على العموم يضيق بكل خير ، ويغوي بكل حرام ، وينهى عن كلّ واجب أينما عثر عليه .

الله عزّ وجلّ يقول لك : أنفق ، أمّا هو فيوسوس لك ويقول : احذر فإنك ستشيخ ، والضعف والفقر في انتظارك[٣]!!

كيف يجوز عليهم خداعه بعد أن عرفوه ؟!

لو سأل سائل : بعد أن عرف الإنسان العاقل عدوّه ، كيف يقبل أقواله ؟! وهو المسلم ومن أهل القرآن ، ويعلم أنّ القرآن الذي هو كلام الله ، يقول له : الشيطان يراك من حيث لا تراه[٤] ، كما تقدّم ؛ فكيف

---

(١) ﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكّلون ﴾ (النحل/٩٩) .

(٢) ﴿ إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ، ويصدّكم عن ذكر الله وعن الصلاة ﴾ (المائدة/٩١) .

(٣) ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ﴾ (البقرة/٢٦٨) .

(٤) ﴿ إنّه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ﴾ (الأعراف/٢٧) .

يخدعه ويوقعه في المعصية ؟! وماالسبب في وقوعه في شركه بعد أن عرف عدوّه واكتشف شراكه ؟!

والجواب هو أنّ شراك الشيطان موافقة لهوى النّفس . فسببُ تسلّط الشيطان على الإنسان وخداعه له ، هو أنّ ما يدعوه إليه يوافق هواه ، في حين أن ما يأمر به رسول الله ، يخالف هوى النفس وميولها ، كيف لا وهي الأمّارة بالسوء ؟!

نرى الإنسان يقف صفوفاً تحت أشعة الشمس المحرقة ، ينتظر الحصول على بطاقة تخوّله الدخول إلى السينما ، ليقضي ساعةً من الزّمن ترضي هوى نفسه ، أمّا الصلاة ، فمهما صاح المؤذّن ، حيٍّ على الصلاة ! المسجد دار ضيافة الله ، فهلموا إلى الله ! فالمجيبون قلّة !!

فهو يسارع إلى هناك ، لأنّه يوافق هواه ، رغم معرفته أن هناك موطن الشيطان ، وهو يُدرك بفطرته أنّ ذلك سينتهي إلى الإضرار به، وأنّ فيه هلاكه ، وأنّه قد يقضي بعد ذلك عمراً بأكمله يأكله الندم والحسرة .

يقع بصره على امرأة أو فتاة وتثور المتاعب والنكبات ، مواطن الفساد ، هي مجالس اللهو واللعب والشراب والقمار . أمّا مجلس الدُّعاء وذكر الله ، فلا يصدر عنه إلاّ كل ما فيه الودّ والمحبّة ، وصاحبنا يَعْلَمُ هذا ، لكنه مع ذلك ، يذهب إلى هناك إلى حيث يوافق ميله وهواه ، رغم يقينه بالهلاك .

يفضّل الموت على العطش

يروى أن عبد الملك بن مروان بعد استيلائه على الكوفة ، نزل به البلاء وأصيب بداء العطش ، والعياذ بالله ، فجوفه يشتعل ناراً ، يشرب فلا يرتوي ، ويزداد عطشه ، فأشار عليه طبيبه الخاص أن يمتنع عن شرب الماء لمدّة أربع وعشرين ساعة ، وإلاّ ففي الشرب موته ! خاف الخليفة كثيراً وقرّر أن يتقيّد بأوامر الطبيب ، مضت بضع ساعات ، لكنه

فقد القدرة على التحمل ، فقال : « إسقوني رياً وإن كان فيه نفسي »! فشرب فمات ، وهو يعلم أن في ذلك هلاكه ، غير أنه لم يستطع الصبر على العطش.

هو يعلم انه سيبقى أسير المتاعب والمشاكل عمراً ، لكنه يجري وراء أوامر الشيطان ، لأن فيها هوى نفسه ، والشيطان أضعف من أن يرغم الإنسان على اقتراف الذنب ، مهما كان الذنب صغيراً ، فالشيطان يوسوس ويدعو ويحرِّض ، لكنه لا سلطان له[1] . فالشخص نفسه هو الذي يتصرَّف وفق هواه ، فكيف تُرى يذنب هذا الإنسان مع يقينه بالهلاك ؟ فهناك أناس فعلاً ، لم يتوقّفوا عن تمرّدهم وعصيانهم لأوامر الله ، رغم يقينهم بعذابه ؟!

ربّنا كن مُعيناً لنا ووفقنا كي نقهر النفس ونقهر الشيطان .

سبيل قهر الشيطان

رواية تروى عن رسول الله (ص) تستفاد منها عدّة أمور :

أولاً : إذا ألمّتْ بك مصيبة ، سارع الشيطان إلى إضرام النار فيك ووسوس لك بقوله : يا للخسارة ، كان فقيدك شاباً ، فلو بقي على قيد الحياة لأصبح مهندساً أو طبيباً ، لأصبح سنداً لأبيه في شيخوخته ! ويتابع وسوسته على هذا المنوال . حتى يفقدك القدرة على الصبر ، فيدفعك إلى الاعتراض على قضاء الله وقدره ، فعليك إن نزلت بك مصيبة أن تقول : ﴿ إنّا لله وإنّا إليه راجعون ﴾ .

كن منصفاً وقل الحقّ : من الذي يبقى في الدنيا حتى يبقى لك ابنك ؟ الكلُّ يموتون ، أحدهم يكون سابقاً ، والآخر لاحقاً ، اقطع من فورك الطريق على وسوسة الشيطان ، فإن لم تفعل ، فما أكثر الذين جُنّوا

---

(١) ﴿ وما كان لي عليكم من سلطان إلاّ أن دعوتكم فاستجبتم لي ﴾ (إبراهيم/٢٢) .

بسبب مصيبة نزلت بهم ، وابتلوا بأمراض نفسية ، ووقعوا ضحيّة للأوهام .

ثانياً : إذا ما ظلمك أحدٌ راح الشيطان يعمل على إغوائك ، فيقول لك : ألا ترى ماذا فعل بك ؟ لقد ذَهَبَ بماء وجهك ، لماذا لا تقتص منه ؟ حتى يوغر صدرك عليه ! يقول (ص) : قُل : لقد ظلمت الآخرين أكثر مما ظلمني ، لا تنظر دائماً إلى ظلم الآخرين لك ، بل فكّر قليلاً بظلمك للآخرين ، لا تفقد هُدوءك ، ولا تَقُلْ : كيف فعلوا بي هكذا ؟

ثالثاً : إن فقدت مالاً ، كأن يكون لصّ قد سطا عليك ، أو أصابك ضرر ، فشرع الشيطان يزيدك همّاً بوساوسه ، فقُل : الشُكر لله إذ أصبحت خفيف الحِمل ، وخفّ ما عليّ من حقوق ، لأن حقوق الآخرين في مالك تزيد بازدياد المال ؛ فإن لم يؤد صاحب المال ما عليه من خمس ، ولو كان درهماً ، لعُدّ آكلاً لمال اليتيم ، آكلاً لمال يتامى آل محمد ، وإن من يتخلّف عن أداء الخمس ، يغدو مورداً للّعن .

أو مثلاً : قريب لك افتقر ، أو جار لك وقع في ضيق وأنت تستطيع أن تأخذ بيده ثم لم تفعل ، فأنت مسؤول أما إن ذهب مالك ، فأنت من هذه الناحية في راحة ؛ فلم تعُد مسؤولاً .

عليك أن ترد وسوسة الشيطان وتقول له : لقد رحل عني عزيز ، نعم ، وأنا سأرحل بدوري ويطويني القبر ؛ لقد فقدت بيتاً ، وما المشكلة إن كنت سأتركه وأرحل ؟ ويمكنني تمضية الأيام المتبقيّة من عمري في بيت مستأجر .

عليك قطعاً ، أن تواجه الشيطان ووساوسه ، وإلاّ فإنه سيفسد روحك وحياتك !

في شيراز حيث نحن الآن ، أفلس احد التجار ، وراح يبيع ما عنده ، ويعيش على ثمنه ؛ جلس ذات يوم يجري حساباً ، فوجد أن

بإمكانه أن يستمر على تلك الحال - أي يبيع وينفق - ثلاث سنوات فقط .

فراح يضرب على رأسه ويقول : وماذا سأفعل بعد ثلاث سنوات ؟ هَل أجلس على قارعة الطريق وأمد يدي مستجدياً ؟! وانتهى به الأمر إلى الانتحار !!

هذا ما يفعله الشيطان بالإنسان ! أوَ تضمن أيّها التعس أن تبقى على قيد الحياة ثلاث سنوات ؟! ثم لو بقيت على قيد الحياة ، فرِزقُك على الله ، وكم سيجْري من سعة في الحال أو ضيق خلال هذه المدَّة ؟ إنَّ الشيطان لا يدع الإنسان حتى يدفعه إلى الكفر ، لذا فعلى من يتعرض لظروف مماثلة أن يأخذ بنصيحة النبي (ص) ويدفع عن نفسه هذه الأوهام الشيطانية .

يتابع (ص) فيقول : إن قمت بعمل خير ، فوسوس لك الشيطان بأن ما بذلته إنما ضاع منك هدراً ، وإن ضرراً لحق بك جرّاء إنفاقك له ، وكم هناك ممن هم أكثر منك مالاً ، لكنهم لا يفعلون ما فعلت ! فَقُلْ لنفسك فوراً : إنّ ما بَخِلْتُ به يفوق ما أملك ، وتذكر ذلك الذي أعطى ثروته كلّها عن طيب خاطر !

أدّيْت عبادةً ، فشاء الشيطان أن يأخذَكَ العُجُب ، فتفسد عبادتك ، فَقُلْ على الفور : إنّ ذنوبي أكثر ! كلّما قرأتَ بلسانك زيارة عاشوراء ، وشاء اللعين أن يزيِّن لك ، فتذكّر كم من أقوال حرام صدرت عن هذا اللسان ، من كذب ، وغيبة ، وتهم ، ونميمة ، وإهدارٍ للكرامات و . . .

فمع هذا اللغو كلِّه ، تُرى كم قرأت من القرآن أو الزيارات ؟!

يحدث أحياناً أن يَخدع الشيطان الإنسان بحيث لا يلتفت إلى خداعه إلّا بعد فوات الأوان ، فهو يدفعك إلى المباح من طريق صالح ، حتى يجرّك إلى الحرام ، ومِنْ ثَمّ إلى الكفر . لهذا يجب دائماً

الإستعاذة بالله . أنقل لكم حديثاً هو في الوقت نفسه قصّة ، تتضمّن توضيحاً لكيفيّة كيد الشيطان ، ومظهراً للطف الله ورحمته .

إنخداع العابد عن طريق لعب دور الصالح :

جاء في المجلّد الرابع عشر من بحار الأنوار أنّه كان في بني إسرائيل عابد يسكن في غار على جبل ، يتعبّد هناك ، ويقوم الليل والنهار يُسبح لله ويقدّسه ؛ وحاول الشيطان أن يشغله عن العبادة وأن يفسد إيمانه ، لكنّه فشل في مسعاه . فضجّ (أي الشيطان) لهذا الأمر ، فاجتمع حوله عدد من صغار الشياطين وسألوه : ما الأمر ؟ قال : لقد أعجزني هذا العابد ، فقد حاولت أن أشغله عن العبادة ، لكني فشلت . فقال واحدٌ من صغار الشياطين : أنا مستعدٌ أن أخدعه عن طريق المرأة . قال : أنت مخطىء ، فهو ليس من هؤلاء أبداً ، إنّه رَجُلٌ رَجُل . فقال آخر : نخدعه عن طريق المال . قال : أنت أيضاً مخطىء . فقال الثالث : أخدعه من طريق صالح . قال : نعم ، إنْ كان لخداعه من سبيل ، فهو هذا (عن طريق المسجد والمحراب والمنبر والمدرسة) .

أردف الشيطان الصغير قائلاً : ثمّ بَعدها أجرُّه ، شيئاً فشيئاً ، إلى ما هو مباح . ثم إلى ما هو محرَّم ، فهو سيبدأ بالحلال وعن طريق شرعي ، ثمّ ينتهي به الأمر إلى الكُفر .

قال : نَعَمْ ، فعليك به .

جاء الشيطان بسجّادة ، فبسطها غير بعيد عن العابد ، وراح يُصلّي ويصلّي ويصلّي ، دونما أن يكلّ أو يمل ، أو يأكل أو يشرب أو حتى أن ينام ، واصلاً ليله بنهاره ! فحار العابد في أمره ، واقترب منه يريد التحدث إليه ، فأبى مكتفياً بإشارة من يده .

توسّل العابد إليه ، راجياً أن يكلّمه ، فالتفت إليه وقال : ما حاجتك ؟ قال العابد : بالله إلاّ ما أخبرتني ، كيف بلغت هذه المرتبة ؟

فأنت لا تأكل ولا تنام ولا تتعب من العبادة ؟! فقال الشيطان لقد ارتكبت ذنباً ، ثم تُبْت ، فزادت قدرتي على العبادة ، فقال العابد : فعلمني ، أيها الشقي ، كيف فعلت ذلك . فقال : حسناً ، اعلّمك .

كان العابد المسكين ، لا يملك مالاً ، فقال له الشيطان : خُذْ هذه الدّراهم الثلاثة واذهب إلى المدينة ، وهناك ، تَدْخُل البيت الفلاني ، فيَ الشارع الفلاني ، فتعطي المال لعاهرة هناك ، وتواقعها ، ثم تتوب بعد ذلك ، وتصبح مثلي ، قريباً من الله .

جازت الخدعة على العابد المغفّل ، الذي لم يكن يعرف ما القضيَّة ، فهو لم يدركِ أنّ أحداً لا يُصبح بارتكاب الذنب قريباً من الله فلا هو بعالم ، ولا هو يذهب إلى عالمٍ فيسأله !

أخذ العابد الدراهم ، وانحدر عن الجبل ، وتوجّه نحو المدينة ، فلّما وَصَلها ، راح يسأل الناس عن بيت العاهرة فعجبوا لذلك ، فما للعابد والعاهرة ؟! تصوّروا أنه إنما يُريد نصيحتها ووعظها ودفعها إلى التّوبة .

وأخيراً ، اهتدى العابد إلى بيت العاهرة ، فنظَرَتْ إليه متعجّبة ، فما الذي أتى بعابد مثله إليها ؟! واحتارت في أمرها .

والظاهر أنّ هذه المرأة كانت على قدر من الإيمان ، فقالت للعابد متسائلة : ما الذي أتى بك إلى هنا ؟ فهذا المكان ليس مكانك !

قال العابد : ومالَكِ أنت ؟ خُذي هذا المال ، وافعلي ما عليكِ !

قالت : لا ، لا يمكن ، لا بُدّ أن تقول لي أولاً ، ما الذي أتى بك إلى هنا .

فلّما رأى العابدُ إصرارها ، قصّ عليها قصّته ، وأنه جاء إليها بنصيحة من عابد يفوقه ورعاً ومواظبة على العبادة ، وأنه هو الذي أشار عليه بهذا .

فقالت المرأة : أيّها العابد ، الا تعلم أنّ اجتناب الذنب خير من ارتكابه ثم التوبة عنه ؟! وهل ان تقطع شيئاً ثم تعيد وصله ، خير من ان لا تقطعه أصلاً ؟! ثم من اين لك أن تعلم إن كانت توبتك ستُقبل منك ام لا ؟ هذا إن سمح لك الوقت بالتوبة ؟ ثم هب أن توبتك قُبلت ، فكيف تستعيد عِفّتك التي هدرتها ، ومكانتك السابقة ؟ إنّه الشيطان ، يريد ان يغويك يا مسكين ، ويريدك أن تفقد ما أنت عليه من تقوى ، وما انت فيه من مقام !!

نظر العابد إلى المرأة غير مصدّق ما تقول ، فقالت له :

إني موجودة ها هنا ، أما انت ، فعد إلى الجبل ، فإن كان صاحبك لا يزال هناك فارجع ، وأنا حاضرة !

هذا ومن المعلوم أن الشيطان إذا ما افتُضح أمره ، فرّ ولم يعد .

عاد العابد إلى صومعته ، فلم يجد للشيطان اللعين أثراً .

الراحمون يرحمهم الله

أما تتمّة الرواية فهي مشوّقة ، فقد كانت تلك الليلة آخر ليلة من عمر المرأة ، إذ وافاها الأجل ليلتها تلك ، ونزل الوحي على نبيّ ذلك الزّمان ، يامره بالذهاب إلى تشييع جنازة تلك المرأة . فتعجّب النبي لذلك ، فجاء النداء : أنْ قد غفرنا لها لأنها ردّت عبدنا الضال إلى رشده ، وجنبته التلوّث بالمعصية ، « فالراحمون يرحمهم الله » !

لقد رحمت هذه المرأة ذلك العابد ، ولم ترض له أن يتلوّث بالذنب فيشقى ، وإنّ الله أرحم الراحمين ، وهو يحبّ الرحمة ، وقد رحمها وغفر لها . إنّ الله يُحبُّ لعباده أن يقبلوا إلى بابه ، وأن يبتعدوا عن الشيطان .

أصلحوا ، ما استطعتم ، بين الخَلق وخالقهم ، لا تَدَعوا الشيطان يتسلّط على الناس فإن فعلتم ، رَحِمَكم الله وإيّاهم .

« ٢٣ »

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ألَم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان ، إنّه لكم عدوٌ مبين ﴾ ؟

نصائح الشيطان لنوح (ع)

ذَكر الصَّدوق (قده) في (خصاله) روايةً مضمونها أنّ نوحاً (ع) بعد أن دعا على قومه ، و غرقوا جميعهم إلاّ القلة التي آمنت به ، جاءه الشيطان فقال له :

لقد أسْدَيْتَ لنا خدمة يا نوح ، فقد وفرّت علينا التعب ، إذ أهلكت الجميع بدعائك عليهم وأرسلت بهم إلى جهنّم ! وأريد في المقابل أن أنصحك نصيحةً . فزجره نوحُ (ع) وطرده ، فجاء النّداء : أنْ يا نوح اسمع له ، فهو فيما سيقوله الآن صادق ، (أي : أنه لا يريد استغفالك أو خداعك) .

قال نوحُ (ع) للشيطان : قُلْ .

قال الشيطان : إني أمكر لابن آدم ، فلا أدعه حتى أوقعه في المعصية ، وذلك في حالات ثلاث :

فقالت المـرأة : أيّـ[illegible] ؟ .

أولها : إذا خلا بأجنبية عنه .

فإذا ما انفرد رجل وامـرأة (غير الـزوجين والمحارم) ، في بيت أو مكان مغلق ، فإن الشيـطان يكون ثـالثهما ، ولن يـدعهما حتى يـدفعهما إلى ارتكاب المحرَّم .

ثانيهـا : حالة الغضب ، وهي محلُّ شاهدنا .

وثالثها: عند القضاء والحُكم .

فـالقاضي المسكْين إن هـو مالَ إلى جهـة دون جهة ، فقـد أفسـد العمـل ، ففي المحكمة الإسـلاميـة ، يجب أن يـراعى العـدل بـدقّـة ، ولكن ، أيُّ عَدْل ؟

مراعاة المساواة بين المتداعين

جـاء في أحوال الإمـام أميـر المؤمنين (ع) ، أنّـه في زمن عمـر بن الخـطاب ، ادّعى أحدهم على أميـر المؤمنين (ع) ، فاتفقـا على المثول أمام القاضي .

اصـطحب أمير المؤمنين (ع) خصمـه إلى عمـر ، ووقفـا أمـامـه ، فخـاطب عمر المـدّعي باسمـه قائـلاً مثـلاً : يـا زيـد اجلس ، أمـا أميـر المؤمنين (ع) فقد خاطبه بقوله : يا أبا الحسن .

نظر إليه الإمام مغضباً ، فسأله عمر : ما الأمر ؟

قال عليه السـلام : لقد ميـزتني عنه ، فـدعوتني بكنيتي ، ودعـوته باسمه المجرد ، وعليك أن تساوي بيننا في الخطاب !

في المحكمة ، لا يحق للقاضي أن يميّـز بين الطرفين ، حتى ولـو كـان الباعث على التمييـز مراعـاة التكريم والاحتـرام ، فالـوقوف إجـلالاً مثلاً ، أما أن يكون للطرفين ، أو لا يكون أصلاً .

منذ قريب ، احتجّت السيدات الحقوقيّات مطالبات بالمساواة فيما يتعلق بالقضاء ، وحجّتهنّ أنهنّ تعبن ودرسن الحقوق ، فلماذا يحرمن من تولّي القضاء ؟!

ونحن نسأل السيدات المحترمات : ما هو الحقّ الذي تدين الأمّة لكُنّ به ، حتى تطلبن الحكم على هذه الأمّة ؟!

فقضاء المرأة محرّم في الإسلام والذكورة هي من الشروط التي لا بُدّ منها في القاضي ، فالمرأة عاطفيّة ، وحسّاسة ، وتفكيرها ينحصر في الجمال والظهور بمظهر جذّاب[1] ، فأهليّة القضاء لا تتوفّر عند المرأة ، أي إنّها لا تستطيع ـ سواء أرادت أو لم ترد ـ أن تحكم بالعدل دون أن تميل بها العاطفة .

كذلك فالحُكم والولاية أيضاً ، محرّمان على المرأة ، إذ ليس في مقدورها ذلك[2] .

إنّ فقهنا غنيّ ، ولا حاجة بنا لأحكام الغرب أو الشرق ، وليس علينا بالتالي أن نغرّب أو نشرّق .

أنت تعرف عمل الشيطان

فلو عاد قائل إلى القول : ولكني لا أرى الشيطان حتى أحذر خداعه فلا أتّبعه !

ونحن نكرر القول :

هذا صحيح فأنت لا تراه ، ولكنّك تعرف عمله . فالوسوسة هي الشُغل الأساس لإبليس ، فكلّما وجدت أنّ نَفْسَك تحدّثك بشرٍ أو معصية ، فاعلم أنّه إبليس يوسوس لك ، وأنّه قد بدأ عمله معك .

---

(١) ﴿ أوَمن يُنشّأ في الحلية ، وهو في الخصام غير مبين ﴾ (الزخرف/١٨) .

(٢) ﴿ إنّي وجدت امرأة تملكهم ﴾ ! (النمل/٢٧) .

كما يستخدم الشيطان ألسنة بعض الأفراد أحياناً ، ليُلقي في قلب الإنسان ما يريد إلقاءه، كرفيق سوء ، يقول لرفيقه : هيّنا بنا نذهب إلى المكان الفلاني . وفي ذلك المكان توجد أمور غير مشروعة ، أو يقام مجلس لفبركة الأفكار الهدّامة والأباطيل !

راقب عمل الشيطان ، واحذر ما يلقيه هو في قلبك ، وما يلقيه على ألسنة الآخرين .

من أين تعرف أن الشيطان يوسوس لك ؟

كلُّ ما تحدّثك به نفسُك وكان مخالفاً للشرع أو جاء النَّهيُ عنه ، فاعلم أنّ ذلك هو الشيطان يوسوس لك ، فمن الذي يأمر بخلاف أمر الله ؟ إنّه الشيطان ، إذاً ففي مثل هذه الظروف عليك أن تكون متيقّظاً واعياً .

يقولون : إذا كان الشيطانُ عدوَّ الإنسان فكيف ينساق الإنسان لعدوّه ؟!

وسوسة الشيطان تواكب ميول النفس

بلى ، إنّ لهذا العدوّ مصائد .

الشهوات والملذّات ، هي مصائد الشيطان . والنفس تُعْجَب بكلٍّ ما هو حرام ، فيدفعها الشيطان إليه .

إذاً ، فهناك مقياس آخر لإدراك هذا الأمر وهو : هل الفكرة التي خطرت لك فكرة شيطانية أم لا ؟ انظر إن كانت توافق هواك أم لا ، فإن وافقت هواك رغم عدم مشروعيتها فهي ولا شك منه .

من كلمات عليّ (ع) في نهج البلاغة : « حُفَّت الجنّة بالمكاره وحُفَّت النار بالشهوات » .

وجاء في الرّوايات أنّه بعد أن خُلقَتِ الجنّة قال جبرائيل : ربّي ،

وَمَنْ مِنَ الناس يأبى ورود دار للضيافة كهذه ؟! فجاء النداء : أنْ أمعن في الطريق إليها ، فنظر ، فرأى فيه المهاوي والأشواك والغيلان و . . .

أي : إن سالك هذه الطريق ستعترضه عقبات من الحرمان ، فعليه أن يعفّ عن الطعام خمس عشرة ساعة ، أي أن يصوم ، عليه أن يتحكّم بلسانه ، عليه أن يقوم لصلاة الصّبح عند الفجر ، حيث اللّذة القصوى للنوم ، وما في النهوض من ضيق ، عليه أن ينزع حُبّ المال من قلبه فيُعْطي خُمْس ما حصل عليه منه .

فما كان من جبرائيل إلاّ أن قال : إذا كان هذا طريق الجنّة فزبائنها إذاً قليل !! فهي تحتاج إلى همّة قويّة ، كما تحتاج إلى مغالبة النفس والهوى .

ولما خلق الله جهنم سأل جبرائيل : إلهي ، ومَن مِنَ الناس يُلقي بنفسه في موطن للعذاب كهذا المكان ؟! فجاء النداء : أن انظر إلى طريقها ، فنظر ، فرأى طريقاً مستوية ، ملساء ، يسهل السير عليها ، وصورتها تمثّل القمار والزّنى والنّهَمْ و . . . وجميع الشهوات مما يوافق الهوى ، أخّاذة وخادعة ؛ فقال : إلهي ، فزبائنها إذاً كثير !!

والله إن عمراً بأكمله يقضيه الإنسان في أحضان الملذّات لا يعادل عذاباً لحظة يلقّاه عند النزع ! عندما يفرّقون ، في تلك اللحظة ، بينه وبين كلّ ما يربطه بالدنيا ، غير ما ينتظره بعد ذلك في القبر ثم في البرزخ ثم يوم القيامة . وماذا أقول بعد ؟!

لسعة نار واحدة أفضل من لسعتين

هناك مثل شهير بالفارسيّة ، غير أنه ينطوي على خطأ كبير ؛ يقول المثل ما معناه : إذا ما جرى الماءُ على الرأس ، فقبْعة واحدة أو مئة قبْعة سواء ! وهذا خطأ ، لأن الوقوف في وجه الضرر - في أي مرحلة من مراحله - مفيد ، فإن احترقت يدك ، فاجْهَد أن لا تحترق رِجْلُك ،

وبدنُكَ إن احترق ، فاجهد أن لا يحترق رأسك . فلسعة نار واحدة خير من لسعتين ، وكيف لا يختلف هذا عن ذاك ؟! فهل تعدل درجة واحدة من الحرارة مئة درجة ؟ قطعاً لا ؛ والذنوب هي كذلك ، فكلّما كانت أقلّ ، كانت تبعاتها أقلّ بنفس النسبة .

إنّك تقرأ في دعاء التوبة للإمام زين العابدين (ع) : « وشرطي أن لا أعود في مكروهك . اللّهم لا وفاء لي إلاّ بعصمتك » .

إلهي ، لكَ شرطي ، من اليوم ، أن لا أُقبل على معصية ، أن لا اذهب في خط جهنّم ، أن لا أُقبلَ على الشيطان وأعْرِض عن الرحمٰن . فقابلني أنت يا ربي بالعفو عني لما بَدَر منّي . إلهي ، هذا شرطي لك ، غير أنّ الوفاء به ليس ميسوراً إلاّ بعونِكْ .

إلهي ، إني عازم على الوفاء ، ولكن ما العمل ، وقوّتي تقصر عن جموح نفسي ؟ ويغيب عني أنّي قطعت لك عهداً ما لم تشملني برعايتك .

وعن محمد بن مسلم ، عن أبي جعفر (ع) قال :

« يا محمد بن مسلم ، ذنوب المؤمن ـ إذا تاب منها ـ مغفورة له ، فليعمل المؤمن لما يستأنف بعد التوبة والمغفرة ؛ أما والله إنّها ليست إلاّ لأهل الإيمان » .

قلت : فإن عاد بعد التوبة والاستغفار من الذنوب ، وعاد في التوبة ؟! فقال :

« يا محمد بن مسلم ، أترى العبد المؤمن يندم على ذنبه ، ويستغفر منه ويتوب ، ثم لا يقبل الله توبته » ؟

قلت : فإنه فعل ذلك مراراً ، يذنب ثم يتوب ويستغفر [الله] ، فقال :

« كلما عاد المؤمن بالاستغفار والتّوبة عاد الله عليه بالمغفرة ، وإن الله غفور رحيم ، يقبل التوبة ويعفو عن السيِّئات ، فإيّاك أن تقنّط المؤمنين من رحمة الله »[1] .

(١) أصول الكافي ، باب التوبة ح ٦ .

« ٢٤ »

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ألَم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان ؟ إنّه لكم عدوٌ مبين ﴾ .

يمتلك الإنسان ، وفق تكوينه وخلقه ، أهليّة للعبوديّة . فالإنسان مؤهل ومخلوق لكي يكون عبداً مطيعاً ، وقد زرعت فطرة الخضوع في ذاته ، غير أنّه على مفترق طريقين ، فأمّا أن يكون عبداً للرحمٰن وإمّا أن يكون عبداً للشيطان ؛ هما طريقان لا ثالث لهما ، فليس بمقدروه أن يقول : لست عبداً لأيٍّ منهما ، فليس أمامه سوى الدنيا والآخرة ، ولا ثالث لهما ، فإمّا أن يكون عبداً للدنيا والهوى والشيطان ، وأمّا أن يكون طالباً العقبى ، طالباً لجوار الله .

توقع الموت القريب علامة الولاء للرحمٰن

وردت في (الوافي) رواية عن رسول الله (ص) ضمن خطبة له ، فقد قال (ص) في خطبة صلاة جمعة أو صلاة عيد ما مؤدّاه : أيُّها النّاس ، إن دَخَلَ أحدٌ في ولاية الشيطان ، نسيَ الموت ، وانتصبت الآمال والأماني أمام ناظريه ، أمّا إنْ دَخَل في ولاية الله ، وولاية آل محمّد (ص) ، انتصب الموت أمام ناظريه ، وألقى بالآمال والأماني وراء ظهره .

فهو يقول : ربّما يكون شهر رمضان هذا غاية أجلي ، إنّه إذاً يرى الموت قريباً(١) .

فالامر باختصار : إمّا الطريق إلى الله وإمّا إلى الشيطان ، إمّا التعلّق بما هو لله ، وإمّا بما يعود إلى الشيطان ، وليس من سبيل ثالث . إن لم تسجد لله ، إن لم تخضع له تعالى ، كنت خاضعاً لغيره ، سواء كان ذلك الغير مالاً ، أو شهوة ، أو رئاسة ، أو شهرة ، فكلُّ من لم يكن عبداً لله ، كان عبداً للشهوات ، وقد جاء في أخبار آخر الزّمان القول : « نساؤهم قبلتهم » .

العبوديّة لله هي طريق : ﴿ أن اعبدوني هذا صراط مستقيم ﴾ ، طريق أداء الواجبات وترك المحرّمات ، ويقابله طريق الشيطان طريق ترك الواجبات وفعل المحرّمات .

فأنت ، إمّا مطيع لله ، وإمّا مطيع للشيطان ، إمّا أن تكون عابداً أو تكون عاصياً ؛ فإن كنت عابداً ، فأنت عبد للرحمن ، أما إن كنت عاصياً ، فأنت عبد للشيطان إن قصدت المسجد عند الغروب ، فأنت عبد لله ، وإن توجهت إلى السينما ، فأنت في طاعة الشيطان .

فالشيطان يجرُّ أتباعه بصفير واحد(٢) ، وما هو صفيره ؟ إنّه تلك الصُّور الجنسيَّة السيِّئة التي تلصق فوق أبواب دور السينما فتجرُّ أتباع الشيطان إلى داخلها .

حَبْل إبليس الأغلظ للشيخ الأنصاري

ورد في أحوال الشيخ الأنصاري أنه كان ذات يوم في مجلسه ، فقال أحد الفضلاء : إنّي رأيت عنك مناماً ، إلاّ أنني اخجل من روايته .

---

(١) « إذا استحقت ولاية الشيطان ، جاء الأمل بين العينين ، وذهب الأجل وراء الظهر ؛ وإذا استحقت ولاية الرحمن جاء الأجل بين العينين » .

(٢) ﴿ واستفزز من استطعت منهم بصوتك ﴾ (الإسراء/٦٤) .

فأجابه الشيخ : لا عليك ، قل ما رأيت .

قال : رايت أمس الشيطان في المنام ومعه حبالٌ مختلفة ، فمنها الدقيق ومنها الغليظ ، فسألته : لمن هذا الحَبْل الغليظ ؟ فقال : هذا لأستاذك الشيخ الأنصاري ، فهو يحتاج إلى جهد كبير حتى أتمكّن من جرّه ، فأمس أوقعته في الشِرك بعد جهدٍ جهيد ، وتمكّنت من جرّه إلى السُّوق ، إلّا أنّه عاد وقطع الحبل وهرب ! ولست أدري إن كان لهذا المنام حقيقة أم هو مجرد أضغاث أحلام !

فتبسَّم الشيخ وقال : لقد صدَق الملعون . فبالأمس زارنا ضيوف من النساء ، فطُلب إلي أن أحضر لهنّ شيئاً من الفاكهة ، ولم يكن لديّ مال أدفعه ثمناً للفاكهة ، فأخذت قِراناً[1] واحداً كقرض من حساب الصلاة والصوم على أن أعيده إلى مكانه بعد أن يتوفر المال لديّ ، وقصدت السوق ، وما أن وقفت أمام باب أحد المحلات ، حتى عدت إلى نفسي وقلت : ربما وافاك الأجل يا مرتضى ! فأنّى لك أن تضمن بقائك حياً حتى تُسدّد دَيْنَك ؟!

فعُدْت وأرجعت القران إلى موضعه ؛ وذلك هو معنى قطع الحبل الغليظ .

الملفت في هذه الرؤيا ، الجزء الأخير منها ، فقد أردف الرجل الفاضل قائلاً : سألت الشيطان مشيراً إلى الحبال التي معه : أيّها حبلي ؟ فنظر إلي باستخفاف وقال : أنت لا تحتاج إلى حَبْل ، إذ يكفيك صوت واحد مني ، صورة واحدة فوق باب السينما ، أو صدى أغنية أسمعك إياه حتى تسرع إليّ ، فلا قدرة لك على مقاومتي .

فالسينما موطن حيواني لاجتماع الأجساد ، أشبه بقطيع من

---

(١) القِران : وحدة النقد في إيران أيام القاجاريين . وكان يُضرب من الفضة ويزن ٢٤ حمّصة . (المترجم) .

الأغنام ، يلتفّ بعضه حول بعض ، تُرى ما هي الفائدة منه ؟ أما المسجد ، فجميع من فيه يتوجّهون وجهة واحدة ، يذكرون الله وآل محمّد (ص) . فكم من البركات ترتفع من هذا الاجتماع ! فالقلب يسعد بذكر الله ، جالس أهل القلوب ساعة واحدة ، تدرك معنى السعادة الحقّة .

حاول منذ أن تستيقظ في الصباح وحتى تنام في الليل أن تكون طوال هذه الفترة ـ إن استطعت ـ في خطّ الله .

الطمأنينة في العبودية لله ، والاضطراب ، في سبيل الشيطان

ولكن ، من ذا الذي يلتزم دائماً صراط عبودية الله المستقيم ، ويهرب من الشيطان ، ويبتعد عن العدوّ الداخلي الذي هو نفسه ؟

سبيل الشيطان يحفل بالإضطراب وعلى العكس منه سبيل الله ، فهو سبيل آمن .

لو أنك قمت بزيارة إلى الأسواق والإدارات منذ الصباح ، لرأيت في أيّ حال من الاضطراب يجري الجميع وراء المال والمنصب ، ولما رأيت أحداً يحمل القناعة في قلبه ، راضياً بمشيئة الله ، بعيداً عن الجشع ، عارفاً بأن الله هو الرازق ، بل الجميع في قلق واعتماد على النفس .

قُم بجولة على المستشفيات يتضح لك الأمر بشكل أفضل ، فهذا القلق إنما مصدره الشيطان ؛ فقد ترك الناس سبيل العبوديّة لله ، فابتلوا بالقلق والاضطراب .

عليك أن تشعر بالعبوديّة لله على كلّ حال ، فإذا مَرِضْت اعتبرت أن الشفاء منه ، وإذا مات أحدُ أقاربك ، اعتبرت في مشيئة الله فيه مصلحة له ؛ ليس في يدك من الأمر شيء ، فهو الذي ﴿ يحيي

ويُميت ﴾ . الاعتراض على الله ، خلاف للعبوديّة ؛ فمن أسْلم الرُّوح ، فقد أسلمها لبارئها وهو الذي استرجعها .

على كلِّ حال ، فليكن الله معتمدَك ، اعرف أنّ الله معك ، فرزقك عليه ، ومشكلتك لن يحلها لك غيره ، وإذا خرجت من البيت فليكن خروجك باسم الله وبالاعتماد على مشيئة الله ؛ فسبيل الله فيه الطمأنينة كما أن سبيل الشيطان فيه القلق ، فإذا أصغيت إلى وساوس الشيطان ابتليت بالانقياد إلى سبيله ، حاول أن لا تبقى وحيداً في البيت لأن الوحدة مسرح لوساوس الشيطان فهو لا يدعك بمنجاة من وساوسه ، كما أن كثرة الجلوس مع النساء تؤدي إلى الفساد .

على الرِّجال أن يحافظوا على النساء من الزَّلَلْ

من عادة المرأة أن يدور تفكيرها حول الجمال ، فهي منذ نشأتها تسعى وراء حسنها وجمالها ، مما يجعل حيّزاً من تفكيرها ينحصر في هذه الأمور ؛ أمّا الرَّجُل فعليه أن يَسْمو بالمرأة ويجعلها مثله عبدة لله ، ويستنقذها من العبوديّة للنفس والشيطان .

يُروى أن الله يُباهي بالرّجل الذي يقوم لصلاة اللّيل وتقوم زوجته معه ، فيتوجّهان جميعاً إلى الله .

والخلاصة : فالمواظبة على عبادة الله أمر فيه إشكال كبير ، إذ من الصعوبة بمكان أن يبقى الإنسان بعيداً عن شراك الشيطان أربعاً وعشرين ساعة في يومه ، ذلك لأنّ شِراك الشيطان حُلوة ومغرية ، والأمر لذلك بحاجة إلى التوفيق الإلهي .

استعينوا بالصّلاة لردِّ كيد الشيطان

يقول القرآن الكريم : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ، وإنّها لكبيرة

إلاّ على الخاشعين ﴾[1] ، وقد قيل : « ما للتّراب وربّ الأرباب » ؟! أي ما شأن الإنسان وهو تلك الحفنة من التراب ، مع ربّ الأرباب العظيم ؟! ومع ذلك فقد أذن الله تعالى لك أيها الإنسان ـ بفضله وكرمه ـ أن تُقْبِل عليه بوجهك في كلّ يومٍ وليلة خمس مرّات ، حتى تكتسب وأنت في حضرة رب العالمين قوة تدفع عنك هذه الشّراك وإغراءاتها ، فَصَلِّ إذاً حتى تفوز بالطمأنينة .

الكلُّ تعساء ، إلاّ المصلين ! الكلُّ يجزعون ويفزعون ، فلا قدرة لهم على السيطرة على أنفسهم[2] ، ترى الواحد منهم ـ وخوفاً من أنْ يفتقر ـ يقع في الحرص والجشع ، فيُبْتلى بألف حرام وحرام . وفي الصلاة نقرأ تكراراً : ﴿ إيّاك نعبد وإيّاك نستعين ﴾ . إلهي كُن مُعيني عند كلّ مشكلة أواجهها . إنّك لو صلَّيْت ركعتين ، إذا ما عرضت لك حالة مؤلمة ، فإنّهما تسرّيان عنك .

الأعرابيّة والصبر في المحنة

يروى في كتاب (المستطرف) قصّة عن أعرابية فيقول :

« كانت قافلة للحجاج تعبر الصحراء ، فبلغت خيمة فيها امرأة أعرابيّة ، فسألوها أن تأذن لهم بدخول خيمتها طلباً للراحة . فقالت : أهلاً ومرحباً بزوّار بيت الله ، تفضّلوا على الرحب والسعة ، وأرجو أن تُمهلوني ريثما يعود القطيع من المرعى .

خرجت المرأة تترقّب عودة القطيع فرأت الراعي يقترب منها ، ولما وصل إليها كان يعول وينتحب ، ولما سألته عن سبب بكائه أجابها بأن الإبل عند بلوغها البئر راحت تتدافع للوصول إلى الماء ، وأن ابن

---

(١) سورة البقرة : الآية ٤٥ .

(٢) ﴿ إنّ الإنسان خلق هلوعاً * إذا مسّه الشرّ جزوعاً * وإذا مسّه الخير منوعاً * إلاّ المصلين ﴾ (المعارج/١٩ ـ ٢٢) .

الأعرابيّة الـذي كان بين الإبـل ، سقط في البئـر العميقـة بسبب تـدافـع الإبل ، وانه لا أمل بنجاته ، نظراً لعمق البئر .

تمالكت المرأة نفسهـا ، وراحت تهدّىء من روع الـراعي وهلعه ، ثمّ قـالت له : إنّ لـدينا ضيـوفاً ، فـلا تـرفـع صـوتـك ، وهيـا بنـا نقـوم بالواجب !

إنّه كرمُ الضيافة ، الذي هو من مقتضيات الإسلام .

ثم أمَرَتْ بأن تُذبح شـاة على الفور . فـذُبحت ، واستعدَّت لتقـوم بواجب الضيافة تجاه أضيافها .

ولمـا دخلت على الحجاج في الخيمـة قالـوا لها : نحن متـأسفون جداً لما حَصَل، كما يؤسفنا إزعاجكم في مثل هذه الظروف .

قالت المرأة : الحقّ أني لم أشأ أن تعلموا بما وقع ، كي لا يكون مدعاة لانزعاجكم !!! أمّا الآن ، وبما أن المحذور قد وقـع ، فأذنـوا لي كي أذهب وأصلّي ركعتين .

ولماذا تصلّي ركعتين ؟

لأنّ الله أمر في كتابه العزيز بالاستعانة بالصبر والصـلاة على تحمّل الشدائد . وهي لذلك تـريد أن تصلّي حتى يـرزقها الله الصبـر على هذه المصيبة التي حلّت بها .

نَعم ، فأنا وأنت ليس لنـا من مزايـا أهل القـرآن إلاّ الاسم . بينما تعمل تلك الأعرابية بآية منه ، إنّها تصلّي !

قالت الأعرابية تخاطب الحجاج : من يحسن منكم قراءة القـرآن ؟ فتقدم أحد الحجّاج وشرع يقرأ آيات الاسترجاع : ﴿ **ولنبلونّكم بشيء من الخـوف والجوع و . . .** ﴾ فقـالت المرأة : إلهي لـو قدّر لأحـدٍ أن يبقى في هذه الدنيا لما كـان غير حبيبـك محمَّد (ص) ، إلهي إنّـك أمرت في

كتابك بالصبر ووعدت عليه بالأجر ، وها أنا أصبر على مصيبتي في ولدي ، فعوّضني من لدنك عنه ثواباً واغفر لابني .

ثمّ انصرفت إلى عملها كما اعتادت ، وكأنّ شيئاً لم يكن ؛ وتلك هي القدرة !

شوّقوا أولادكم إلى الصلاة

أيُّها التارك للصلاة ، إنّك سرعان ما تنهار عند أيّ نازلة تعرض لك ؛ وتلفّك نار الجزع ، تُرى ، لو أنزل بك أحد ضرراً أو أذى ، ماذا أنت فاعل ؟ فأنت لا تستطيع أن تُمسك نَفْسك : ﴿ وإذا مسَّه الخير منوعاً ﴾ أنت ضعيف إلى حدّ الشحّ والحرص ، فأنت تمسك عن بذل قدر من المال الذي أعطاك الله ، ذلك أنك تخشى نقصانه ! أجل ، فأنت ضعيف إلى هذا الحدّ ، فهيّا إلى الصلاة ، إذ الكل ضعيف ، « إلاّ المصلّين » .

علّموا أولادكم الصلاة ، وشوّقوهم إليها بكل جدّ وحزم ، البنت من السنة السابعة والصبي من الثانية عشرة ؛ ادفعوهم إلى الصلاة بالترغيب ، حتى إذا ما بلغوا سن التكليف صاروا من المصلين ، وإلاّ فإن تقصيركم في ذلك ، يوجب تقصيرهم ، ويغدو أداؤهم للتكليف -حين يحين- من الصعوبة بمكان ، علّموهم بالتدريج مواضع الابتلاء .

« ٢٥ »

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم * ولقد أضلّ منكم جبّلاً كثيراً ، أفلم تكونوا تعقلون ﴾ ؟!

الصراط المستقيم هو عبادة الواحد الأحد

الصراط المستقيم الذي نسأل الله تعالى الهداية إليه في اليوم والليلة عشر مرّاتٍ على الأقل ، وذلك في قولنا في الصلاة ﴿ إهدنا الصراط المستقيم ﴾ . اهدنا الصراط الذي يوصلنا بأقصر الطرق إلى جوار محمَّد (ص) ، وليس تلك الطرق الملتوية والمنحرفة ؛ وجنبنا سلوك الطرق الطويلة ، التي تبعد بنا عن مقاصدنا .

علينا أن نحذر هذه السبل ، فهي سبل لن توصلنا إلى الجنة ، وإن وصلنا ، فليس قبل آلافٍ من السنين نقضيها في البرزخ والقيامة .

فما هو الصراط المستقيم ؟ إنّ الله تعالى يقودنا إليك بكل وضوح بقوله : ﴿ أن اعبدوني ﴾ . هو إذاً عبادة الله وحده ، دون عبادة الشيطان والهوى ، وهذا هو الصّراط المستقيم .

المسألة المهمّة طبعاً هي وحدانيّة العبادة، أي : عبادة الله وحده ،

وفي كل جانب وكلّ آن ، وليس أن نعبده حيناً ، ونعبد غيره حيناً آخر ! ! فطالما نحن في شهر رمضان فنحن في جادة العبودية لله ، أما غداً فنحن في جادّة الشيطان ! إذا تهاونت في الصلاة تكن ممن استمعوا إلى كلام الشيطان ، تكن ممّن تنكّبوا الصراط المستقيم(١) ، وإذا ما اجترحت معصية ، فقد تخليت عن صراط الله ، والتزمت صراط الشيطان !

الرِّياء والعُجْب ، سقوط عن طريق العبوديّة

الصراط بالطبع أمرٌ معنوي غير قابل لِلَّمس أو الحِسّ ، ويتجسّد في التوحيد والإخلاص ، فمن كان يصوم ويصلّي بدون إخلاص ـ لا سمح الله ـ فهو لم يلتزم التوحيد في عبادته ، بل هو مُراءٍ ، مشرك ومنافق ، لا شأن له مع الله ، أو الذي يأخذه العُجُب ويتصوّر أنّه قام بعمل غير عادي ، فهو قد صام ، مثلاً ، ولكن ما الذي فعله ؟ لقد أجل موعد طعامه سويعات قليلة ! وهذا ليس شيئاً يُذكر ، ولا فضل له على الاطلاق ، بل الله هو الذي يتفضّل ويقبل بأن يمُنّ عليه بأجرٍ عظيم، مقابل هذا العمل البسيط ! فمن أكون أنا ، ومن تكون أنت ، وماذا يعدل عملنا ؟ !هل يعدل « رجل جرادة أحضرها الهدهد إلى سليمان ، لإشباع الملايين » ؟!

إذاً ، فالصراط المستقيم هو العبوديّة لله ، هو ترك الذنب وفعل الواجبات .

بعد ذلك يقول تعالى مؤكّداً : ﴿ ولقد أضلَّ منكم جبِلّاً كثيراً ، أفلم تكونوا تعقلون ﴾ ؟

لقد أُعطيَ للإنسان عقلٌ حتى يعتبر ، حتى يتنبّه ، فالحيوان لا عقل له ، وهو ـ لذلك ـ غير مكلّف ، أما الإنسان فهو الذي يجب أن

---

(١) ﴿ وإنّ الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون ﴾ (المؤمنون/ ٧٣) .

يعتبر : ﴿ ولقد أضلّ . . . ﴾ كم من الأشخاص منكم قد أضلّهم الشيطان ، ثم أهْلَكهم في نهاية الأمر ، أفلا تعقلون ؟

قارون أودى بنفسه بعد غناه

عجيبة هذه الأيام ! فالكُلّ يجري وراء الثروة ، إنّهم يعتبرون العزّة في كنز المال ؛ فيا من تعبدون الثروات ، وتلتزمون خطّ الشيطان ، ها هو كبيركم قارون ، الذي لم ينل أحدٌ من الثراء ما ناله على الإطلاق ، فهو بواسطة علم الكيمياء الذي علّمه إيّاه موسى ، جمع من الذهب والكنوز ما يصفه الله تعالى في القرآن الكريم بقوله ﴿ وآتيناه من الكنوز ما إنّ مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوّة ﴾[1].

إذا كانت مفاتيح خزائنه كذلك ، فكيف إذاً بأمواله ذاتها ؟.

فيا أيُّها الثّري : إنك ـ مهما بلغ بك الثراء ـ لن تجمع ما جمعه قارون ! فانظر إلى عاقبته واعتبر ، فالروايات تقول : إن الأرض ابتلعت أمواله كلّها أمام عينيه ، ثم ابتلعته بدوره[2] !!.

كم من الأثرياء تعرفون في حياتكم ، كم من الأشخاص بلغت الضرائب على ما خلّفوه من الإرث ـ بعد موتهم ـ الملايين ! ثم . . رحلوا بأيدٍ خاليةٍ ، فاعتبروا ؛ وذلك التعيس الذي جمع ماله من الرّبا ، ها هو الآن يرقد في قبره !!.

أيُّها الشاب : إذا وقع بصرك على امرأة وغلبتك الشهوة ، فانظر أين وصل أولئك الذين اتّبعوا شهواتهم ، وماذا كانت عاقبتهم !!.

على العاقل أن يحذر شِراك الشيطان كلّها ، فأين وصل الحال بأولئك الذين وقعوا فيها ؟!.

---

(١) سورة القصص : الآية ٧٦ .

(٢) ﴿ فخسفنا به وبداره الأرض ﴾ (القصص/٨١) .

أيّها العالم الجاهل ، ويا طالب العلم الذي لا علم لك ، انظر إلى (بلعم بن باعور)، ﴿الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها﴾[1]، ولتعتبر بما انتهى إليه : ﴿ فمثله كمثل الكلب ، إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث ﴾[2] .

كبير العطارين والعصير المغشوش

يكتب صاحب (منتخب التواريخ) أنّ عطّاراً في كربلاء ـ كان مشهوراً بالورع والتقوى ـ أصيب بالمرض ، وطال به مرضه ، فذهب أحدُ أصدقائه لعيادته فوجد أنّ شيئاً من أثاث البيت ووسائل العيش لم يتبقّ لديه ، سوى حصير يفترشه ، ومخدّة يضعها تحت رأسه ! وبينا هو يفكر بما آلت إليه حاله ، يدخل ابنه عليهما ، ويقول مخاطباً أباه : أبي ، لم يبق لدينا من المال ما نشتري به لك الدواء !

تناول التاجر المخدّة من تحت رأسه وأعطاها لابنه قائلاً له : خُذْ هذه أيضاً وبِعْها لأرى إن كنت سأرتاح أم لا ؟!

فسأله صديقه : ما الأمْر ؟ قال :

« كان عندي في كربلاء محلّ لبيع عصير اللّيمون الشيرازي ، فكنت أستورد عصير الليمون ثُمّ أبيعه بربح عادي ، وفجأة انتشر في كربلاء مرض الحَصْبة ، وأشار الأطبّاء بفائدة عصير الليمون في علاج هذا المرض .

مضى اليوم الأوّل دون أن أفْعَل شيئاً ، إلاّ أنني في اليوم التالي قلت لنفسي : لماذا أبيع عصير الليمون بسعرٍ زهيد ؟! إنّ المشترين كثُر في هذه الأيّام ، فلماذا لا أضاعف ثمنه ؟!

---

(١) سورة الأعراف : الآية ١٧٥ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ١٧٦ .

وهكـذا ضـاعفت الثمن ضعفين ، ثم عـدّة أضعـاف ، والنـاس المساكين كانوا مع ذلك يتهافتون على شرائه ، لاضطرارهم إلى ذلك .

ثم رأيت فيمـا بعد أنّ مـا لـديّ من عصيـر الليمـون يكـاد ينفـد ، والناس لا يزالون يتهافتون على شرائه بكثرة ، رغم ارتفاع قيمته ، فرحت اخلط ما تبقّى لديّ من العصير بالماء ثم أبيعه للنّاس ، إلى أن نَفَذَ كلّه ، فما كان منّي إلاّ أن رحت أصطنع عصيراً مغشوشاً ، وأبيعه للناس !

وهكذا استطعت أن أجمع ـ بهذه الطريقة ـ ثـروة عظيمـة ، إلاّ أنّه لم تَمْضِ على ذلـك فترة وجيـزة حتى وقعت طـريـح فـراش المـرض ، وانفقت كلّ ما كنت قـد جمعته من تجـارة العصير ، ثم رحت أبيـع أثاث بيتي ، حتى لم يبقَ عندي سوى تلك المخدّة فأعطيتهم إيّاهـا ليبيعوهـا ، لأرى إن كنت سـأرتـاح مِمّـا أنـا فيـه أم لا » ؟! ﴿ فـاعتبـروا يـا أولي الأبصار ﴾[1] .

إنّ ما انتهى إليه ذلك التاجـر لا يَعْنِي أنّ هذا هـو جزاؤه فحسب ، بـل الجـزاء الحقيقي إنّمـا ينتـظره بعـد المـوت ، فعـليكم أن تعتبـروا وتفكّروا كم من الأشخاص أهلكتهم الشهوات .

فيا عزيزي الشاب : حاول منذ الآن أن تتحكم بنـظراتك ، وتغضّ من بصرك[2] ، إنّك إن نظرت إلى امرأة أجنبيّـة عنك ، تكن قـد سقطت في خطّ الشيـطان ؛ فما أكثـر ما يتبـع النظرة نـظرات ، ثم الابتـلاء ، ثم يعلم الله إلى أين ينتهي الأمر ؟ فـ « كم من نظرة أورثت حَسْرةً طويلة » ، فلماذا تنظر إلى الأجنبيـة ؟ وإذا نظرت ، فلمـاذا تكرر النـظر ؟! وها هي صفحات الجرائد حافلة بالحوادث المؤلمة ، وكلها نتيجة لاتّباع الشيطان في الدنيا .

---

(١) سورة الحشر : الآية ٢ .

(٢) ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ﴾ (النور/ ٣٠) .

العادات والملكات تبقى في البرزخ وفي القيامة

قال تعالى : ﴿ اليوم نختم على أفواههم وتكلّمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴾[1] .

خذوا الحكمة من هذه الحقيقة : إنّ أي ملكة أو عادة تحصل لدى الإنسان في هذه الدنيا ، ومهما كان نوعها ، ستبقى ملازمة له إلى الأبد . أي إنّ الأمر سيكون كذلك في البرزخ ويوم القيامة أيضاً ؛ فهي غير قابلة للزوال ، فمن اعتاد على شتم الآخرين ، فإنّه عند الموت ، وحين يقع بصره على ملك الموت ، يشرع بشتمه كذلك ، والحال نفسها تكون مع الملَكَيْن ، كما تستمر تلك الحال في جهنّم أيضاً .

أما إن اعتدت على قول « باسم الله » عند شروعك بكلّ عمل تقوم به ، فغداً أيضاً يوم القيامة ، وعندما تعطى صحيفة أعمالك بيدك ، فستقول قبل قراءتها : « باسم الله » ، جرياً على ما اعتدت عليه في الدنيا ، فإذا بذنوبك قد امّحت ، فتسأل : ماذا حدَث ؟ فيأتي النّداء : « يا عَبْدي ، لقد دَعَوْتني بالرحمن الرحيم ، فعاملتك بدوري وفق هذه الرّحمة »[2] .

أفواه المدّعين مُغلقة وأعضاؤهم تَشْهَد عليهم

إذاً ، فمن اعتاد على إنكار الحق على أصحابه ، وهو يدّعي بلسانه أنه من أنصار الحق ، فإن هذه العادة لن تتركه ؛ إنّه يدّعي في الدنيا أنّه إنسان عفيف وصادق و . . . فهو ليس سوى مدّعٍ كاذب ! فلو كان لأحدٍ حقٌّ عليه فهو لا يعترف له به على الإطلاق ، بل هو يُنكره !

كذلك فالكاذب الذي صار الكذب لديه عادةً فسيبقى في البرزخ

---

(١) سورة يس : الآية ٦٥ .

(٢) تفسير منهج الصادقين .

ويوم القيامة كذلك ، فما أن يعطى صحيفة أعماله بيده حتى يقول على الفور : إن خطأ قد وقع ، فمتى كانت هذه الأعمال ؟ لكنّ الله تعالى يكون قد أغلق على المدّعين طريقهم إلى التمادي في كذبهم ، فختم على أفواههم ، وربط ألسنة الكذب عندهم .

أمّا المؤمن ، فإنه يعترف بالخطأ الذي ارتكبه[١] ، فلا حاجة للختم على فمه ؛ فهو مقرّ بذنبه ، خاشع ، مطأطىء رأس الندم أمام مولاه ؛ والويل ، كلّ الويل ، للمتجبّرين أمام الله .

﴿ اليوم نختم على أفواههم ﴾ ، فليس لهم إلى الإنكار من سبيل ! وها هي أيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما فعلوا ، كما تشهد عليهم جوارحهم كافّة . وقد أتى القرآن المجيد على ذكر ذلك في عدّة مواضع منه[٢] .

مسكين هو ابن آدم ! فماذا بمقدوره أن يفعل عندما تشهد عليه أعضاؤه وجوارحه ؟!

يقول البعض : إنّ هذه الشهادة تكون على نحوٍ تظهر معه الذنوب التي ارتكبها . أمّا كيف يتمّ ذلك ، فالله أعلم . ويقول المذنبون لأعضائهم وجوارحهم : لماذا شهدتم علينا ؟ فتجيبهم : لا خيار لنا ، فالله أنطقنا ، وهو خالقنا .

هنيئاً لمن يصدق مع ربّه في هذا الموقف ! هنيئاً لمن يخضع لإلٰهه ويخشع قبل أنْ يشهد عليه الشهود بما فعل ! هنيئاً للمعترف المقرّ ، القائل بلسان النادم المعتذر : إلهي لقد كنت عبداً جاحداً ، فاغفر لي !!

---

(١) « وقد أتيتك يا إلهي بعد تقصيري وإسرافي على نفسي معتذراً نادماً منكسراً مستقيلاً مقرّاً مذعناً معترفاً » . (دعاء كميل) .

(٢) ﴿ وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ؟ قالوا : أنطقنا الله الذي أنطق كلّ شيء ﴾ (فصّلت/٢١) .

ليس الهارب العائد بنفسه ، كمن يؤتى به مرغماً !

لو أنّ غلاماً هارباً عاد من تلقاء نفسه ، مطأطىء الرأس خجلاً ، سائلاً العفو والمعذرة ، فماذا يفعل مولاه سوى الاستجابة له ؟ أما ذلك الغلام الذي لحق به مطاردوه وأحضروه بالقوّة ، أفلا يستحق العقوبة ؟ وماذا يفعل به مولاه ؟ إنّها أمور وجدانية !

إنّ باب الله مفتوح على الدّوام ، إلاّ أنه يتّسع في بعض الأحيان ، فالأوبة في غير هذا الشّهر لها شروط ، على الشّخص أن يأتي بإخلاص ونيّة صادقة ، غير أن تلك الشروط تقلّ ، والكلّ في هذا الشهر مقبولون ، فاعرفوا قَدْرَ هذا الشهر ، إذا أعطيتموه حقه من الاهتمام إنّه شهر المغفرة ، ولو أن مغفرة الله باقية على الدّوام ، والناس في هذا الشهر ضيوف على الرحمن ، وهو عزّ وجلّ يستقبل الجميع ، حتى من ليس أهلاً للاستضافة ، فهو - بحرمة هذا الشهر - مقبول . إنّ الله تعالى بحرمة شهر رمضان ، يعفو عن المستحقّين للنّار ، كما ورد في الخطبة الشعبانيّة للنبيِّ الأكرم (ص) .

« ٢٦ »

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ هــذه جهنم التي كنتم تـوعــدون ۞ اصلَوْهـا اليــوم بمــا كنتم تكفرون ۞ اليوم نختم على أفواههم ، وتكلّمنا أيديهم ، وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴾ .

أخذ الله عهداً بالتوحيد على لسان الأنبياء

﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان ﴾ ؟!

والمرادُ : إمّا عهد عالَم الذَّر ، أو عهـدُ عالم الفـطرة والعقل ، أو العَهْدُ الذي أُخِذَ على لسان الأنبياء ، بواسطة الكتب السماويّة ؛ وخاصـة خاتمهم محمَّد (ص) ، فقـد أخذ العهـدَ بواسـطة القرآن ، وكـان شرطـه على من قبل القرآن أن يكون موحِّداً[1] .

فالمُسلم يعني : من تعهَّدَ أن يعبـد الله وحده ، وألاّ يعبـد الشيطان وهوى النفس ، وألاّ يطيع سوى أمر الله .

هذا هو الصِّراط المستقيم ؛ فالصِّراط المستقيم يعني التوحيـد .
﴿ ولقد أضلَّ منكم جبلاً كثيراً ﴾فلكي يحذر السامع من عبادة الشيطان ،

---

(١) ﴿ ألّا تعبدوا إلّا إيّاه ﴾ (يوسف/٤٠) .

بنبئه العليم الخبير أن الشيطان قد أضلّ خلقاً كثيراً ، أفلا تعتبرون ؟ أفلا تعقلون ؟ أفلا تنظرون كم أضلّ الشيطان من الناس قبل الإسلام ؟ تذكّروا قوم عاد وثمود ولوط وفرعون ونوح .

ليذكر كلّ منكم كم عرف من أناس ، وقعوا في شَرك الشيطان وماتوا وهم كفّار ، بعد أن قضوا حياتهم في الهوى والهوس ، فخسروا الدنيا والآخرة ، لقد قضوا عمراً بأكمله في الخَمْل على تكديس المال وادخاره ، ثم قضوا اختناقاً بما جمعوا ، بدلاً من قضاء العمر في العبوديّة لله ، واكتساب الملكات الفاضلة ، والانتفاع بهذا المال ، فاعتبر أيُّها العاقل !!

مئة ألف عنان لجهنّم ، يمسك بها مئة ألف ملك

﴿ هذه جهنّم التي كنتم توعدون ﴾ : طبقاً لرواية مأثورة عن الإمام الصادق (ع) فإنّ لجهنّم مئة ألف عنان ، يمسك بها مئة ألف مَلَك[1] ؛ فمئة ألف من الملائكة يجرّون جهنّم نحو بيداء المحشر ، فما أعظم هوله من مشهد ؟! ألسنة اللّهب تعلو كالجبال ، فيخرّ الجميع أمامها من الخوف[2] ، والواحد منهم يقول : نفسي ، نفسي ، حتى الأخيار منهم ، ولا يختلف عنهم في ذلك إلاّ خاتم الأنبياء محمّد (ص) ، إذ يقول : أمّتي ، أمّتي ؛ هذا رغم أن روايات وآيات أخرى ، قد بشّرت بأنّ البعض هم في أمانٍ من هذا الهَوْل والفزع[3] .

ولاية آل محمّد (ص) أمانٌ من فزع يوم القيامة

من كانت ولاية آل محمّد (ص) ، موضع قبول عنده ، فهو ـ بعد الأمان الذي فاز به في حياته تحت ظلّ مواليه ـ سيكون الآن في أمان

---

(١) بحار الأنوار ، ج ٣ .

(٢) ﴿ وترى كلّ أمّة جاثية ﴾ (الجاثية/٢٨) .

(٣) ﴿ وهم من فزع يومئذ آمنون ﴾ (النمل/٨٩) .

أيضـــاً ؛ إذ ينــادي المنـــادي : ﴿ هــذه جهنّم التي كنتم تــوعــدون ﴾ ، ﴿ اصلَوْهــا اليــوم بمـــا كنتم تكفــرو ن ﴾ ، اصلوا : من صلوة ، بمعنى الـدخـول أو بمعنى التـذوُّق . ادخلوا ، أو تـذوقـوا عـذاب قهـر الله بمـا كفرتم .

بعض الأجـلاّء أوضـح نقـطة مهمـة في كلمـة أصلوهـا (وهي في القرآن كثيرة مثل الآية : ﴿لا يصلاها إلاّ الأشقى ﴾ : فقال إن هنالك فـرقاً بين أصلوها وادخلوها ، ويبدوا أنّ اصلوها تعني دخولاً خاصاً فيه التصاق ، أي : إنّه دخول لا خروج بعده .

فـدخول جهنم نـوعان : أحـدهما دخـول يعقبه خـروج وخلاص ، فاصلوها هنا تعني : الزمـوا العذاب فيهـا ، فلا خـروج لكم بعد ذلـك ، وهي مـرتبطة بكـلّ من مات كـافراً : ﴿ لا يصـلاهـا إلاّ الأشقى ۞ الـذي كذّب وتولى ﴾[1] ، أي لا يلزم عذاب جهنّم على نحوٍ لا خلاص منه إلاّ الذي كذّب الله وأعرض عنه .

المؤمن العاصي هو في نهاية الأمر من أهل النجاة

أمّا الآخرون الذين ليسوا من المنكرين المكذبين ، غير أن الذنوب شابت عملهم ومسلكهم . فقد جاء عن الإمام علي بن مـوسى الرِّضـا (ع) في كتـاب (عيون أخبـار الرِّضـا) أنه يقـول بصددهم : « ومـذنبـو أهـل التوحيد (هم المؤمنـون المذنبـون غير المنكرين ، إلاّ أنّهم مهملون غير مبـالين) يدخلون النّـار (غير أنهم لا يخلدون فيهـا) ثم يخرجـون منهـا بالشفاعة » .

إنه القادر بفضله وكرمه أن يُميتنا على الإيمان .

﴿ اصلَوها اليوم ﴾ : أي : الزموا النار وعذابهـا بما كفـرتم ، فلا خروج لكم منها .

---

(١) سـورة الليل : الآيتان ١٥ و ١٦ .

﴿ اليوم نختم على أفواههم ، وتكلّمنا أيديهم ، وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴾ : اليوم - حيث القيامة الكبرى - نختم على أفواهكم أيُّها الكافرون ، فتكلمنا أيديكم وتشهد أرجلكم بما فعلتم في الدنيا .

يختم على فم الكاذب وليس على فم المقرّ

تتضمّن هذه الآية الشريفة نقاطاً مهمّة ، إحداها تتعلّق بالختم على الأفواه ؛ فعن الإمام الصادق (ع) أنه قال ما مؤدّاه : إن الختم على الأفواه الذين ماتوا على الكفر ، فألسنتهم تكون معقودة ، ذلك أن لسان الكافر لا يمكن أن يكون مستقيماً ، إن في الدنيا أو في الآخرة . فهو يكذب ، ويُنكر ويدّعي ؛ فلا شيء يقوّم لسان المرء سوى إيمانه القلبي ، وإلاّ ، فتراه يزكّي نفسه ، ويدّعي لنفسه ما ليس فيها ، إنه طبع البشر ، والمثل الفارسي يقول : « ليس من أحد يصف لبنه بالحموضة »[1] ، فاللسان السليم ، من القلب السليم .

فعن خاتم الأنبياء محمَّد المصطفى (ص) أنّه قال : « والذي نفسي بيده لا يستقيم إيمان أحدٍ منكم حتى يستقيم لسانه ، ولا يستقيم لسانه حتى يستقيم قلبه »[2] .

فما دام القلب سقيماً ، سكنه الكبر ، فلم يسكنه الخشوع ، فهو إذاً ، غير سليم ، فإذا لم يسلم القلب ، لم يسلم اللسان معه ، فلا يظهر منه سوى الإدّعاء وتزكية النفس وإظهار حسنها : ﴿ ولتعرفنّهم في لحن القول ﴾[3] فمن كان هنا أعوج ، فهو يوم القيامة أعوجُ ؛ ما أن يرى صحيفة أعماله حتى يقول لا ، هذه ليست لي .

يوم القيامة هو يوم كشف الحق ، يومٌ تبلى فيه السَّرائر ، وتنكشف

---

(١) ويقابله في العربية المثل الذي يقول : « ليس من أحد يقول عن زيته إنه عَكِر » (المترجم) .

(٢) نهج البلاغة .

(٣) سورة محمد : الآية ٣٠ .

البواطن هو يوم الحاقّة ، يوم الحقيقة المطلقة .

لذا يختم الله على اللسان الباطل الأعوج ، وذلك لإقامة العدل وإظهار الحق . ويُنطقُ الأعضاء والجوارح ، فتتكلّم الأيدي عمّا فعَلَت ، وتقول الأرجل أين ذهبت، والعيون إلى أيّ الأشياء نظرت ، والقلوب بماذا انشغلت[١] . إلى حدٍّ تنكشف معه الحقائق ، فيسقط في يد الكاذب ، بعد أن شهدت عليه جوارحه ، حتى لسانه ـ الذي أراد أن يجعل منه أداة للكذب ـ يشهد عليه .

تعدّد الشهود في محكمة العدل الإلهيّ

إنّه يوم ظهور العدل الإلهي التّام الأكمل ، فعمل الخير مهما صغر يراه صاحبه أمامه وكذلك عمل الشر : ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرّة شراً يره** ﴾[٢] . فالأعضاء تنطق وتشهد إظهاراً للعدل وإتماماً للحجة .

قضى الله في الإسلام أن يتمّ إثبات كل أمرٍ بشاهدين عادلين ، وتلك هي البيِّنة ، وهي الحجّة الشرعية ، فإمّا أن يقِرّ المرء بنفسه ، وإمّا أن تتمّ بشهادة شاهدين عدلين ، بعيدين عن الغرض ، مع توفّر الشرائط ، أمّا غداً يوم القيامة ، فبالرّغم من أنّ الإنسان نفسه عارف بما فعل[٣] ، فهو لا يقرّ ولا يعترف ، إلاّ أنّ الشُّهود تتقاطر من كل حَدْبٍ وصوب ، فيسقط في يده ويستسلم .

وأوّل الشهود عليه ، أعضاؤه وجوارحه ، فهل بإمكانه أن يكذِّب أعضاءه وجوارحه ؟! وثاني الشهود الأرض ، فإنّ كلّ زاوية منها تشهد بما ارتكب فيها من ذنب ، كما تشهد بما أدّى فيها من عبادة[٤] .

(١) ﴿ إنّ السمع والبصر والفؤاد كلّ أولئك كان عنه مسؤولاً ﴾ (الإسراء/٣٦) .
(٢) سورة الزلزلة : الآيات ٧ و ٨ .
(٣) ﴿ كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ (الإسراء/١٤) .
(٤) ﴿ يومئذ تحدّث أخبارها * بأنّ ربّك أوحى لها ﴾ (الزلزلة/٤و٥) .

والزّمان ايضاً يشهد ، فعالم القيامة هو عالم الجمع ، وعدد أيام العمر مرحلة من الوجود تظهر وتشهد . في دعاء أيام الأسبوع عن الإمام السجّاد (ع) تقراون : أيُها اليوم ، لقد مضيت ، وسوف تكون شاهداً عليّ بما فعلت .

من جملة الشهود ايضاً ، الكرام الكاتبون ، كما أن إمام كل زمان شاهد على أعمال أهل ذلك الزمان ، والقرآن الكريم يقول : ﴿ وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ﴾[1] .

وفي الزيارة الجامعة تقرأون : « وشهداء دار الفناء » ، فالأئمة بالنسبة لأهل زمانهم هم شهداء على اعمال أهل ذلك الزّمان ؛ ولا بد أن يكون شاهد محكمة العدل الإلهي الحجّة بن الحسن (عج) ، فالشهداء إذاً ، هم الأرض والزمان والملائكة ، وقبل كل أولئك أعضاء المذنب وجوارحه نفسها .

الشهداء لا يشهدون على التائب من ذنبه

الويل لنا إن تقرّر ان نقف أنا وانت أمام هذه المحكمة !

بشارة وردت عن الإمام الصادق (ع) في (أصول الكافي) ، يقول (ع) :

« إذا تاب العبد توبة نصوحاً (يقول البعض : إنّها التوبة الخاصة بالذنب الذي ارتُكب على الخصوص) أحبّه الله ، فستر عليه في الدنيا والأخرة » .

سأله الراوي : وكيف يستر عليه ؟ قال :

« يُنسي ملكيه ما كتبا عليه من الذنوب ، ويوحي إلى جوارحه : اكتمي عليه ذنوبه ، ويوحي إلى بقاع الأرض : اكتمي ما كان يعمل

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٤٣ .

عليك من الذنوب ، فيلقى الله حين يلقاه وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب »[1] .

بل ، أكثر من هذا ، إن سعى العبد وصدق في الإنابة فإن الشهود يؤمرون بالشهادة على طهارته ، فيقولون : إن عبدك طلب العفو والمغفرة ، ويشهدون بما فيه الخير له[2] .

أمّا أهل الإيمان فأفواههم مفتوحة ، والختم على الأفواه إنما يجري لأولئك الذين كانت ألسنتهم تخرس عن قول : يا الله ، أمّا أولئك الذين كانوا طول حياتهم يقولون : يا الله ، « لا إلـه إلاّ الله حقاً حقاً ، تعبّداً ورقّاً ، إيماناً وتصديقاً » ، فأفواههم ها هنا مفتوحة .

وفوق جميع الشهداء ، الذات السرمدية للواحد الأحد جلّ وعلا .

﴿ اليوم نختم على أفواههم ﴾ : أحد وجوهها هو أنه لا محلّ هنا للإقرار أو الإنكار الاختياريين ، فالشهادة هنا ليست كذلك، فالمرء هنا لا يقرُّ أو يُنكر كما يحلو له ، بل يختم على الأفواه ، ولا يُدلي إلاّ بالشهادة الحقّة المطابقة للواقع ، فلا شيء غير الصدق ، والصدق يظهر من الأعضاء والجوارح ، وكذلك من اللسان ذاته ، فقد تمّ الختم على الكذب باللسان .

كيفية شهادة الأعضاء والجوارح

يقول البعض تأويلاً : إنّ المراد هو شهادة الحال ، فكل فردٍ غداً يوم القيامة عندما يَرِدُ المحشر ، تشهد وَجَناتُه وأحواله بما سلف منه[3] ، كأن تخرج النار من لسانه مثلاً ، أو أن يبرز لسانه وهو يلوكه بأسنانه ، أو

(١) أصول الكافي ، باب التوبة ، ح ١ .

(٢) ﴿ فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ﴾ (الفرقان/ ٧٠) .

(٣) ﴿ يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام﴾ (الرحمن/ ٤١) .

يخرج منه الدم والقيح ، فيُعرف أنه كان واعظاً غير متّعظ ، أو عالماً غير عامل بعلمه .

وكذلك قد تكون حاله شاهدة على كذبه ، كأن تنتفخ بطنه إلى حدّ يعيقه عن الحركة ، فيعرف أنه من أكلَة الربا[1] .

كما أن السيماء والمظهر يشهدان بما ارتكب الشخص من ذنب ، كأن تكون الجبهة نورانيّة ، فيعرف أنّها كانت محلاً للسجود « الغُرُّ المحجَّلين » بيض الجباه من أثر السُّجود لله ؛ أو أن يعطى صحيفة أعماله بيده اليمنى ، الأمر الذي يشهد بأن الخير كان الغالب على ما صدر منه .

الخلاصة : فقد اعتبر بعضهم أن معنى : ﴿ تكلِّمنا أيديهم وتشهد أرجلهم ﴾ إنّما هو شهادة الحال بشهادة الآية : ﴿ يُعرف المجرمون بسيماهم ﴾ .

إلاّ أنّ الأمر المحقّق هو أنّ أكثر المفسرين يضيفون إلى شهادة الحال قولهم بأن ظاهر الآية الشريفة هو أنّ الأعضاء تتكلّم : ﴿ وتكلِّمنا أيديهم ﴾ ، ويتّضح الأمر أكثر بما ورد في الآية الشريفة :

﴿ وقالوا لجلودهم : لم شهدتم علينا ؟ قالوا : أنطقنا الله الذي أنطق كلَّ شيء ﴾[2] .

فبعد أن تشهد الأعضاء والجوارح على صاحبها ، يعترض هذا المسكين على أعضائه وشهادتها عليه ، فتجيبه : ﴿ أنطقنا الله ﴾ (وهنا يأتي البرهان على التفسير المشار إليه ، فهذا الجزء من الآية صريح في القول : إنّ الله الذي أنطق كلَّ شيء ، أنطقنا) ، فالأعضاء إذاً ، تنطق وتتكلّم .

---

(١) ﴿ الذين يأكلون الرّبا لا يقومون إلاّ كما يقوم الذي يتخبّطه الشيطان من المسّ ﴾ (البقرة/٢٧٥) .

(٢) سورة فصّلت : الآية ٢١ .

ليس إنطاق اليد والرِّجل أصعب على الله من إنطاق اللسان

العلّة في لجوء بعض المفسّرين إلى التأويل هي استغرابهم أن تتكلم الأيدي والأرجل ، إذ النطق في تصورّهم يختصّ باللسان ، الأمر الذي دعاهم إلى التأويل ، والقول بشهادة الحال .

والجواب هو أنّ نطق اللسان ليس لكونه علّة النطق ، بل لأنّ الله قضى بقدرته القاهرة أن تصدر عن حركة اللسان بمساعدة الهواء أصوات هي مخارج الحروف ، وهذا مجرّد إرادة وتقدير من الله ، وليس في الأمر علة أو معلول ، ولو أنّ الأمر كذلك ، فلسان الحمار والبقر أكبر بكثير .

يتّضح إذاً ، أنّ النُّطق قرار إلهي خصّ به لسان ابن آدم امتيازاً له وتكريماً : ﴿ ولقد كرّمنا بني آدم ﴾[1] ، فمن جملة إكرامات الله للإنسان أن يدرك عظمة الخالق بعقله ، ويترجم إدراكه لها بلسانه ، فيقول : « الله أكبر وسبحان الله » ، أما الحيوان فلا سبيل له إلى إدراك يترجمه بلسانه .

فأيّ عاقل يُدرك أن النطق لا يختص أصلاً باللّسان ، بل قُل : هو هبَةُ الله للإنسان ، فرب العالمين الذي أبدع هذا الإبداع ، قادر غداً يوم القيامة أن يفعل بالإصبع ما فعله باللسان ، فما الفرق بين هذه القطعة من الجسد وبين تلك ؟! تذكّر أنّك بإصبعك هذه كنت تشير إلى فلان ، وتسخر من فلان ! إلى ما كنت تفعله بقلمك كذلك !!

لو جمعت يَدَك ونزلت بها على رأس مؤمن مثلاً ، فيُروى أنّ شعر الجسم أيضاً ينطق ويشهد .

برهانٌ آخر ذكره تعالى في القرآن الكريم ، في تلك الآية المتقدمة التي تشير إلى اعتراض العصاة على أعضائهم وجوارحهم ، فتجيبهم بالقول : ﴿ أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء ﴾ .

---

(١) سورة الإسراء : الآية ٧٠ .

إنّه النطق الملكوتي لجميع الكائنات ، فالمُلْك يعني الظاهر ، والملكوت يعني السِرّ والخفاء ؛ فكلّ أجزاء عالم الوجود التي هي في نظرنا ساكنة وصامتة ، إنّما هي ناطقة في نظر الملكوت(١) .

بعد الموت ، يذهب الشخص إلى عالم الملكوت ، فإذا كان الآن يلاحظ وجود ضوضاء في عالم الوجود ، فلأن كل شيء ، حتى الجمادات ، تسبّح لله ، وأعضاء الجسم أيضاً تسبّح لله ، وذلك بالطبع لا يختص بعالم الحِسّ ، لذا فالإنسان لا يدركه(٢) ؛ ولكونه في عالم المادة ، فهو لا يدرك أنه ﴿ يُسبح لله ما في السموات وما في الأرض ﴾ .

وغداً يوم القيامة ، فالإله الذي جَعَل أجزاء العالم كلّها ناطقة في الملكوت يُنطق أعضاء الجسم أيضاً بحسب الظاهر ، لتقول كلّ ما فعلته .

وأقلّ عمل سيظهر هناك ، وفي مجال الشّهادة أيضاً لن يتخلّف الشهود عن هذه القاعدة ، بل سيدلون بشهاداتهم على أكمل وجه وأتمّه ، إلاّ ما يتعلّق منها بالذنوب التي تاب عنها أصحابها فلا يشهدون بها ، وفقاً للروايات .

عُدُّوا تسبيحاتكم بأناملكم فإنّها تشهد

ذكر صاحب تفسير روح البيان في تفسيره ، رواية ملخّصها أن رسول الله (ص) قال للنساء : « عليكُنّ بالتسبيح » ، وفي رواية أخرى قال : رأيت في ليلة المعراج ملكاً مشغولاً بالبناء ، كان يضع لبنة من ذهب ، وأخرى من فضة ، وأحياناً يتوقف ؛ فسألته : لماذا تتوقف ؟ قال : كلما انشغل المؤمن بالتسبيح ، قمنا نحن بالبناء ، فإذا توقّف ، توقّفنا .

---

(١) ﴿ وإن من شيء إلاّ يسبّح بحمده ﴾ (الإسراء/٤٤) .

(٢) ﴿ ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ (الإسراء/٤٤) .

لذا قال رسول الله (ص) :

« عليكنّ بالتسبيح والتهليل والتقديس ، واعقدن بالأنـامل ، فـإنّهنّ مسؤولات مستنطقات »[1] .

. . . ففي صدر الإسلام لم تكن السّبحة المعروفة في هذه الأيّام ، فكـانوا يَعُـدون بأصـابعهم ، وكلّ إصبـع له ثـلاث عُقَـد ، فيصبـح عـدد التسبيحات ثلاثين ؛ فكانوا يعُدون إذاً ، بعُقد الأصابع .

عُقـدة الإصبع تشهـد أيضاً فتقـول : يا رب ، كـان عبدك يَعُـدّ بي تسبيحك وتحميدك وتهليلك .

السُّبحة المصنوعة من تراب كربلاء قطعة من الجنّة

فيما يتعلّق بالسّبحـة : كان أوّل من صنـع السبحة ، هي الصـديقة الزهراء عليها السلام ، فقد أخذت مِن تراب قبر حمزة سيد الشهـداء في أُحُد ، ثم خلطته بالماء وصنعت منـه حبّات السُّبحـة واستعملتها في ذكـر الله تعالى .

وفي أيـام الإمام الصـادق (ع) أوصى أن يؤخـذ من تـراب كـربـلاء لصناعة السُّبحة . فالسُّبحـة المصنوعـة من تراب الحسين (ع) إذا أُديـرت حبّاتها باليد ، كان لهذا العمل أجر وثواب ، ولو لم يُذكر الله معه .

لأن تراب كربلاء الحسين يسبّح بنفسه ، ولو ظل الشخص ساكتاً ، يقول الشيخ الشوشتري عليه الرحمة : ليس هو التسبيـح المعروف الـذي تسبّحه كلّ الأشياء ، بل إنّ لتراب كربلاء تسبيحاً خاصّاً غير عادي ، فهـو قطعة من الجنّة : « يا جـابر زُرْ قبـر الحسين بكربـلاء ، فإنّهـا قطعـة من الجنّة » .

---

(1) تفسير روح البيان/سورة : يس .

« ٢٧ »

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ولو نشاء لطمسنا على أعينهم ، فاستبقوا الصراط فأنّى يبصرون ۞ ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم ، فما استطاعوا مضيّاً ولا يرجعون ﴾

لو شئنا لسلبناهم أعينهم أو لمسخناهم

الطّمس يعني المَحْوُ بشكلٍ تزول معه آثار الشيء المطموس أيضاً . فأحياناً يزول إبصار العين ، وهذا ما يدعونه بالعمى ؛ وطمس العين يعني أنّها تزال نهائياً فلا يبقى منها شيء ، لا حدقة ولا أيّ شيء آخر .

﴿ فاستبَقوا الصّراط ﴾ : أي تجاوزوا الذي لا عِوَج فيه على الإطلاق ، ولكن : **﴿فأنّى يبصرون ﴾** ؟! فالذي يفقد عينيه كيف بإمكانه أن يجتاز الصراط المستقيم .

﴿ ولو نشاء لمسخناهم ﴾ : المسخ يعني تبديل الخلقة من الشكل الحَسَن إلى الشكل القبيح ، أو بحسب ما هو متعارف : أن تستبدل بالصورة الآدمية الجميلة صورة حيوانيّة قبيحة .

﴿ على مكانتهم ﴾ : أي حيث هم ودون إبطاء .

﴿ فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون ﴾ : قد سُدَّ عليهم طريق التقدّم والرّجوع فلا يستطيعون تقدّماً ولا يستطيعون إياباً .

تهديد الكفّار بما أصاب قوم لوط من عذاب

هاتان الآيتان تحملان أكبر تهديد من جانب الله عزّ وجلّ للكفّار عامّة ، وإن كانتا قد نزلتا في أهل مكة ، فهما لا تختصان بهم بل تشملان جميع الكفّار أينما كانوا وحيثما وجدوا . فمن أنكر الله والآخرة ، وقال ساخراً : ﴿ إنْ هذا إلاّ أساطير الأولين ﴾ ، وتمسّك بمعتقداتٍ باليةٍ ، لو شاء الله لأعْماه بنحوٍ يُسَوّى فيه موضع عينيه ، كما فَعَلَ مع قوم لوط .

حين دخل ملائكة العذاب على لوط في بيته ، هرع قومه إليه يطلبون تسليمه هؤلاء الضيوف ، فراح لوط ينصحهم فلم يُفِدْ نصحه معهم شيئاً ، فتأوَّه وقال : ﴿ لو أنّ لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد ﴾[1] .

فما كان من أحدُ الملائكة إلاّ أن أشار إشارة فقدوا معها أبصارهم وإبصارهم طمساً ، أي لم يبق لمواضع أعينهم أثر .

﴿ لطمسنا على أعينهم ﴾ : لتحذر أنت الذي تخوض في الخطيئة دونما وَجَل ، وتدور بعينيك في كل مكان فالله قادر أن يمحو عينك ولا يبقى لها من أثر !!

عميت عين لا تراك

هنا نقطة مهمّة ، فلماذا ذكر تعالى الطمس على الأعين بين ما ذكره من أنواع البلاء ؟

---

(١) سورة هود : الآية ٨٠ .

لعلّ السِرُّ هو أنّ البلاء يأتي متناسباً مع الذنب ، فالذي يتجاهل الحق مع ظهوره ووضوحه ، لهو أعمى واقعاً !!

إنّك ترى قدرة الله تعالىٰ ، ترى الحياة والموت ، فكيف تُنكر القيامة ؟

هناك رواية في أصول الكافي تقول : إنّ من حِكَم لقمان أنّه يقول : إنّي لأعجب من الذي يُنكر البعث والنشور يوم القيامة ، والحالُ أنه يموت ويَحي كلّ يوم « النوم أخ الموت » إذا نمت فذلك هو الموت الأصغر ، وعندما تستيقظ كان ذلك كأنّك حييت مرّةً أخرى . أنت في كل يوم ترى الحياة والموت ، ثم تتجاهل ذلك كلّه وتقول : أإذا متنا نعود ونحيى مرةٍ أخرى[1] ؟! عندها ، وبَعْدَ أن يُطمس على عينيه ، لا يستطيع تمييز سبيله ﴿ فأنّى يبصرون ﴾ ؟

ما دمت تمتلك هذه النّعمة ، نعمة البصر ، فلم لا تنتفع بها ، فترى آياتِ قدرةِ الله ، وتعرف إلَهك على نحوٍ أفضل ؟ لم لا تفعل شيئاً لحساب آخرتك ؟!

ثم هناك إشارة إلى التعجيل في العقوبة ، فأعمى القلب في الدنيا ، يكون يوم القيامة أعمى العين[2] . ولو شئنا لطمسنا على أعْيُن البعض ها هنا ، كما عميت قلوبهم في الدنيا .

إنّ الشكر على نعمة العين ، لهو أخذ العبرة ، فالإنسان الذي يبصر ويرى ، ليس حماراً أو بقرة ، فلا بد له إذاً أن يعتبر !!

نمسخ صورهم على أشكال سِيَرِهم

﴿لو نشاء لمسخناهم . . . ﴾ : المسخ هو تبديل الشّكل والخلقة

---

(١) ﴿ أإذا متنا وكنّا تراباً ، ذلك رجع بعيد ﴾ (ق/٣) .

(٢) ﴿ ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضلُّ سبيلاً ﴾ (الإسراء/٧٢) .

إلى هيئة قبيحة ومروّعة كما تقدّم ، أما لغة : فهو استبدال القبيح بالحسن ، وجاء في الحديث : « يُحشر الناس على صورٍ تحسن عندها القردة والخنازير » !

صورة الخنزير والقرد ، بل أسوأ منهما بكثير ، هي صورة العصاة يوم الحشر ، ويبلغ قبحها ـ كما تقول الرواية ـ حداً تحسن عنده صور القردة والخنازير !!

فيا من تنكبت الطريق الإنسانية ، طريق التربية الدينية ، وسلكت السّبيل الحيوانية ، سبيل النفس والهوى ، لتعلم أنّنا قادرون ها هنا ، في هذه الدنيا ، وقبل قيام الساعة ، أن نمسَخك على صورتك الباطنيّة .

فالخنزير مَثَلٌ في النّهم وعبادة البطن ، يَلِغُ في كلّ نجاسة ، وكلّ ما يصل إلى متناوله ، ولا نظير له في الهوس الجنسي ، فهو يقطع أحياناً فراسخ عديدة في حال المقارنة مع أنثاه !!

فمن سلك سبيل الخنزير في عبادته للبطن والفرج ، لا يضيره أن يكون ما يريده حلالاً أو حراماً ، فهو في باطنه خنزير ، وستكون صورته غداً صورة خنزير ، ولو شاء الله لعجّل في مسخه في الدنيا !!

يقول تعالى عن خاتم الأنبياء محمد (ص) : ﴿ **وما أرسلناك إلاّ رَحْمَةً للعالمين** ﴾[1] .

يروى أن الأمم السالفة كانت قبائح الباطن عند أفرادها تظهر واضحة ، فكم من أفراد كانت أشكالهم تتبدل تبعاً لأفعالهم ؛ أمّا في هذه الأمّة ، فببركة خاتم الأنبياء (ص) ، ألقى الله ستاراً على عمل الناس ، وتلك إحدى وجوه الرحمة التي أرسل بها (ص) .

---

(١) سورة الأنبياء : الآية ١٠٧ .

عالِمٌ مُحِبٌّ للمال يتحوَّل إلى كَلْب

يُروى أنّ عالماً من أهل التوراة وكان يدرّس التوراة أيضاً ، كان مع موسى ؛ مضت مدّة ولم يَرَه، فسأل جبرائيل عن أحواله فقال : انظر بالقرب من الباب . فنظر فرأى كلباً . فقال : عجيب ،ماذا حدث ؟ الباطن يظهر هكذا ؟ فقال جبرائيل : كان هذا شخصاً طالبَ مال .

إن الإنسان المحب للمال باطنه حيوان ، فالنّملة حريصة على جمع المؤونة ، كل ما كان همّه جمع المال ، فإنّ صورته الملكوتية هي بدورها صورة حيوانية .

التَّلَفُّت أثناء الصلاة وصوت الحمار

في كتاب (أسرار الصلاة) للشهيد الثاني أعلى الله مقامه ، ينقل عن خاتم الأنبياء (ص) قوله : « أما يخاف من يُحوِّل وجهه في الصلاة أن يحوِّل الله وجهه وجه حمار » ؟

يقول الشهيد : المراد بالوجه وجه القلب ، فصورته الملكوتيّة تُصبح صورة حمار ، ذلك أنه لا يدرك أنه يقف بين يدي الله عزّ وجلّ ، كما لا يدرك ماذا يفعل ، فتشبّهوا على الأقل بالأئمة (ع) ، فقد كان أمير المؤمنين ، والحسن المجتبى عليهما السلام ، يرتجفان أثناء الصلاة رهبة وتهيّباً ، لا تكونوا ـ على الأقل ـ بلا أدب ، فمن لا يراعي وقوفه بين يدي الله ، فما الفرق بينه وبين الحيوان ؟!

فلو شئنا لكشفنا صورته الملكوتيّة ها هنا ، غير أن ذلك ـ وفي هذه الأمة ـ مرجأ إلى ما بعد الموت .

« يا من أظهر الجميل وستر القبيح » .

إلهي ، اجعل باطني حسناً كظاهري ، ولا تجعلني ـ بعد أن كنت كآدم طوال عمري ـ كأحد الحيوانات بعد موتي .

وقد ورد في الروايات أن للبعض صوراً آدمية ، وقلوباً شيطانية .

« ٢٨ »

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبَقوا الصراط فأنّى يبصرون ❊ ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم ، فما اسْتطاعوا مُضيّاً ولا يـرجعون ❊ ومن نعمِّرْه ننكِّسْه في الخلق أفلا يعقلون ﴾

التعجيل في العقوبة حذر وهروب المحكوم

بَلَغَ بنا الكلام في هاتين الآيتين الشريفتين إلى أنّ الله تعالى ـ ولبيان استحقاق الكفّار ، والذين ينكرون المبدأ أو المعاد لهذين النوعين من العقاب ـ قد عَبَّر بـ ﴿ لو نشاء ﴾ . إنّه تعالى يقول : لقد وهبكم الله عينين كي تشاهدوا آيات الله وتعتبروا ، وتروا إبداع الله تعالى في نبات الأرض ، ففي كلّ هذا بُرهان على المعاد ، ولكن ، يا للأسف ، فهم يغرقون في ذاتِ النّعمة ، أما المُنْعِم ، فلا يرونه !

. فالإنسان الذي وهبه الله عينين ثم هو مع ذلك لا يلحظ آيات الله ، هذا الإنسان يستحق العمى ، لهذا يقول تعالى : ﴿ ولو نشاء لطمسنا ﴾ .

لو نشاء ، أي إنّ هؤلاء يستحقون أن يطمس على أعينهم ، فإذا فعلنا بهم ذلك ، فأنّى لهم أن يجتازوا الصراط ، وأنّى لهم أن يبصروا طريقهم ؟!

إلّا أنّ رحمة الله تعالى اقتضت إمهالهم رغم استحقاقهم لـذلك . يقوّل الإمام زين العابدين (ع) في دعـاء يوم الجمعـة : « إنّما تـأنّيت بهم (فلم تعجّل في عقابهم) ليفيئوا إلى أمرك » .

الغـرض هو تبيـان إمهال الله تعـالى للإنسـان ، فالـذي يَعْجَـل في العقـاب ، إنما هـو الذي يخشى هـروب المحكـوم : « إنّمـا يعجـل من يخاف الفوت » . أمّا الله الذي كلّ شيء بأمره ، فلا يعجل بالعقوبة .

العذاب الثاني هـو عذاب المسـخ : ﴿ ولو نشـاء لمسخناهم على مكانتهم ﴾ .

سير الكفّار القهقري (إلى حالة الجماد)

من كـان بعيـداً عن الله ،فصورته الملكـوتيـة والبـاطنيّـة من أقبـح الصّور ، فإنْ كان قد غرق في الشهوات ، كـان أقبح من الخنـزير ، وإن كـان مقلّداً لغيره ، كـان باطنـه أقبح من القِـرْد ، وإن كان متكبـراً ، كان باطنه أصْغر من النّملة وأكثر ضعفاً وهواناً .

يقـول تعـالى : لـو شئنـا أن نـظهـر مـا بـطن منهم ، فـذلـك في مقـدورنـا ، ﴿ على مكـانتهم ﴾ ، أي : أينمـا كـانـوا وكيفمـا كـانـوا ، فبمقدورنا أن نُبْـدِيَ قبحهم ، إلّا أنّنا نمهلهم لكي يعتبـروا ويرجعـوا عن ضـلالتهم ، فإن لـم يعتبـروا في الدنيـا فإنّ قبحهم سيـظهر في الآخـرة ، وسنمسخهم على نحوٍ لا يستطيعون معه جيئة ولا ذهاباً .

قيـل في تفسير المسـخ : إن المراد بـه التحجّـر ، أي العـودة إلى الحالة الدنيا، وهي حالة الجماد ، فهم كالحجارة لا يستطيعون حركة يوم ﴿ يقول الكافر يا ليتني كنت تراباً ﴾[1] ، ولم أكن بشراً !!

وقيل : إن المراد بالمسخ قبح الباطن، نُبْديه بحيث لا يستـطيعون ،

---

(١) سورة النبأ : الآية ٤٠ .

وهم على تلك الحال ، « المُضِيّ » ، أي السّعي وراء أيّ شأنٍ من شؤونهم .. و﴿ ولا يرجعون ﴾ ، أي لا يرجعون إلى الحالة الأولى ، بمعنى أنّهم لا يستطيعون ـ إذا تركوا وشأنهم ـ أن يبتعدوا عمّا حلّ بهم .

العمر الطويل والعودة إلى الحال الأولى

ثم ، وللدّلالة على اقتدارنا ، فيما لو شئنا عمل ذلك يقول تعالى :
﴿ ومن نُعَمِّرْه ننكّسه في الخلق ، أفلا يعقلون ﴾ ؟

فالله الذي أعادك ، شيئاً فشيئاً ، إلى حالة القبح الأولى ، قادر أن يفعل بك الشيء نفسه ، دفعة واحدة .

فالإنسان منذ ولادته تأخذ قواه بالإشتداد حتى سِنّ الأربعين كحدّ أعلى والبعض يستمرّون في النموّ والاشتداد حتى الثالثة والثلاثين ، ثم ، من الأربعين فما فوق ، تأخذ قواه بالانتكاس والهبوط حتى يبلغ « أرذل العمر » حيث تنحسر قواه ، فالعين يضعف إبصارها ، والأذن يضعف سمعها ، وتفقد اليد والرجل قوتهما ، والله تعالى يحتفظ بالبعض كنموذج ، حتى يعرف الجميع أنّهم إذا ما امتد بهم العمر ، كيف يعودون إلى الحال الأولى[1] .

فالطّفل عند ولادته ، تكون قواه في الدرجة الدنيا ، من بصر وسمع وإدراك ، تماماً كدودة الأرض التي لا تمتلك سوى حاستَيْ الذّوق واللمس ، ثم شيئاً فشيئاً تنضج الحواسّ لديه ، فإذا طال به العمر عاد سيرته الأولى ، كالطفل عن ولادته ، وتعود حواسّه إلى حالتها من الضعف بصراً وسمعاً وإدراكاً .

فالإله القدير الذي يسلب الإنسان قواه بالتدريج من حين ولادته وحتى شيخوخته ، قادر أن يفعل الشيء نفسه ، فيسلب الإنسان بصره

---

(١) ﴿ ومنكم من يُردُّ إلى أرذل العمر ، لكيلا يعلم بعد علمٍ شيئاً ﴾ (النحل / ٧٠) .

وسمعه وذاكرته ، والدليل هو : ﴿ لو نشاء لطمسنا ﴾ و ﴿ لو نشاء لمسخناهم ﴾ . . . كما نفعل بهم عند الشيخوخة .

وهذه الآية ، إضافة إلى كونها برهاناً لما قبل ، فهي أيضاً موعظة للمسلمين .

استفيدوا من نعمة الشباب

أيُها الشباب : ما دمتم لم تبلغوا حالة النُكس بعد ، فاستفيدوا من عمركم ، من نعمة الشباب . ما دامت أجسادكم صحيحة وقواكم سالمة ، ما دامت آذانكم تسمع ، فاسمعوا المعارف والمواعظ . ما دامت أعينكم ترى ، فانظروا آيات الله واعتبروا ، وإقرأوا الحديث والقرآن ؛ ما دامت أرجلكم تتحرَّك ، فاحضروا مجالس العلم والعلماء ، وأتوا المساجد وتشرّفوا بزيارة الأماكن المقدّسة ؛ استفيدوا من قواكم في كل ركوع وسجود ، وقيام وقعود .

يُروى أن الإمام الصادق (ع) كان يقول في سجوده (كما أحصى الراوي) خمسمئة مرّة : « سبحان الله وبحمده ، استغفر الله » .

وورد في كشف الغمّة أن الإمام السّجاد (ع) قرأ ألف مرّة ـ وكان غلامه يَعُدُّ عليه ذلك ـ : « لا إله إلاّ الله حقاً حقاً ، لا إله إلاّ الله إيماناً وتصديقاً ، لا إله إلاّ الله تعبّداً ورقاً » .

فإذا ما تقدم العمر بالمرء فإن قواه تضعف ، ويصعب عليه قيام الليل ، والوضوء في البرد القارس ، والسجود لساعة من الزّمن .

اغتنم خمساً قبل خمس

في (عين الحياة) للمجلسي ورد عن خاتم الأنبياء محمّد (ص) : « يا أبا ذر ، اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك

قبل سقمك ، وفراغك قبـل شغلك ، وحياتـك قبل مـوتك ، وغنـاك قبل فقرك » .

خمسة أشياء يحسن اغتنامها قبل أن تحلّ أضدادها :

الشباب قبل الهَرَم : ويبدأ من بداية التكليف وحتى الثالثة والثلاثين إلى الأربعين كحدٍّ أقصى ، فمن الأربعين فما فـوق يصبح الشخص في سنِّ الشيخوخة . يا أيُّها الذين لم تبلغوا بعـد سنّ الأربعين ، اعرفـوا قدر شبابكم ، فلا تمضونه في الباطل .

إنْ كـان الإنسان في مـرحلة الطفـولـة قـاصـراً ؛ وكـان في مـرحلة الشباب ثملاً ، وكان في مرحلة الشيخوخة ضعيفـاً ؛ فمتى يكون قـد عبد الله ؟!

اغتنم غناك قبل فقـرك ، قبل أن تصبـح عاجـزاً عن عمل الخيـر ، فكلّ خيرٍ تستطيعه ، قم به على الفور فعلى السليم أن يستفيد من سلامته قبل أن يخسرها ويقع مريضاً .

عرضت لأحد العلماء حادثة ، فقد النطق على أثرها ، فيا أصحاب الألسنـة الناطقـة التي تتحرك بكـل سهولـة ، اعلموا أن زمـاناً ربّمـا يأتي تتمنّون فيه النطق ، ولو بكلمة واحدة ، فـلا تستطيعـون ! وهذا هـو وقت الغنيمة ، فبادروا .

إنّ ابن آدم في هذه الحياة عرضة لمختلف أنـواع المُلِمّات ، فـإذا ما نزلت به ملمّة ، شغلت وقته وتفكيره عن ذكـر الله ، أمّا من كـان فارغ البال ، فإنّه يسارع إلى شدّ أحزمة السّفر بذكر الله تعـالى والآخرة ، قبـل أن تمنعه المشاغل عن فعل ذلك .

والأهمُّ من ذلك كلّه هو أن تغتنم حياتك قبل موتك .

« واستعجلني بما تسألني عنـه غداً واستفـرغ أيّامي لعبـادتك » إنّـه دعاء زين العابدين (ع) فاسأل الله ذلك بإلحاح .

مِن الضّعف جعلكم أقوياء ثم إلى الضّعف أعادكم

منذ بداية استقرار النطفة في الرحم ، منذ بداية التكوين ، تأخذ قوى الإنسان الجسدية بالتكوُّن والاستحكام إلى أن يكتمل خلقه في الشّهر الرابع . وبعد نفخ الرُّوح في الجسد ، يُصبح جاهزاً لوجود القوى الحيوانيه فيه[١] .

السِّنُّ الأعلى ، والذي هو الحدُّ الأقصى لإستحكام القوى ، حسب رواية أُثِرت عن الإمام الصادق (ع) ، هي سِنُّ الثالثة والثلاثين ، وربما يكون (ع) في هذه الرّواية ، ناظراً إلى أكثر الخلق حيث يقول ما مؤدّاه : من بلغ الثالثة والثلاثين من العمر ، فقد « بلَغ أشُدَّه » ، ووصل إلى سنّ الكمال ؛ والسنّ من الثالثة والثلاثين إلى الأربعين ، فترة سكون ، فقواه لا تزيد ولا تنقص ؛ فذلك الحدُّ الذي هو من الأربعين فما بعد هو قوس النزول ، هو بداية النّكس .

النُكس بمعنى الرجوع والتّقهقر ، فالقوى الآن تتّجه إلى الضّعف ، كحالها في بداية الأمر ، إذ كانت في صعود حتى سِنّ الثالثة والثلاثين ، فما أعطي للمخلوق تجري استعادته منه[٢] . فهو مثلاً ، استغرق في طفولته زمناً حتى ظهرت أسنانه ، والآن تستعاد منه أسنانه فتساقط بالتدريج . النُكس في الخلق : أي إن نقصاً يطرأ على الأعضاء والجوارح حتى يبلغ ـ إن طال به العمر ـ حداً هو سن الخَرَف ، فيعود كما كان لا يعرف شيئاً[٣] .

ضعف القوى تزداد وتيرته سنة بعد سنة

في رأي البعض أن سنّ الأربعين تكون بداية التراجع وتناقص

---

(١) ﴿ إنّا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً ﴾ (الإنسان/ ٢) .

(٢) ﴿ الله الذي خلقكم من ضعفٍ ثم جعل من بعد ضعفٍ قوّة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة ﴾ (الروم/ ٥٤) .

(٣) ﴿ لكيلا يعلم بعد علمٍ شيئاً ﴾ (النحل/ ٧٠) .

القوى ، إلاّ أنّ ظهور ذلك التناقص بحيث يدركه الإنسان نفسه ، فإنه يجري سنة بعد سنة ؛ فإذا أخذ لنفسه صورة مثلاً ، وهو في مطلع السّنة الحادية والأربعين من عمره، وقام بمقارنتها مع صورة أخرى يأخذها في الوقت نفسه من السنة التالية ، لأدرك الفرق بينهما في المظهر والملامح ، وما طرأ عليها من ضعف وفتور .

أمّا من سن الخمسين حتى الستين ، فيبدأ ضعفه بالظهور شهراً بعد شهر ، وكل شهر يمضي عليه يُدرك فيه تراجعه ، ومن الستين حتى السبَعين ، يظهر ضعفه أسبوعاً بعد أسبوع ؛ ومن السبعين حتى الثمانين يلحظ ضعفه يوماً بعد يوم ؛ ومن الثمانين حتى التسعين ، ساعة بعد ساعة ؛ ومن التسعين حتى المئة ، يتضح النُكس والتقهقر نَفَساً بعد نَفَس .

فإذا ما طال به العمر أكثر من ذلك ، عاد أخيراً إلى حالته الأولى ، عندما كان في المهد طفلاً ، فإدراكه يزول ، ولا يعود بمقدوره أن يفهم شيئاً ! وهذه بالطبع حال أكثر الناس على العموم ، فالبعض يبدأ ضعفهم قبل الأربعين ، والبعض الآخر كالمعمّرين مثلاً ، يتأخر ظهور الضعف عندهم ، عنه عند الناس العاديين ، ولكن طبقاً للرواية المرويّة عن خاتم الأنبياء (ص) فإن : « أكثر أعمار أمتي بين ستين وسبعين »[1] .

وفي رواية أخرى : « بين الستين والسبعين معترك البلايا » .

في المجلّد الثالث من بحار الأنوار يقول الراوي : كنّا مع الإمام الصادق (ع) خارج المدينة ، فألقى عليه السلام نظرة إلى جبل أحد ثم قال للراوي : أترى ثَغْر الجبل ؟ قال : نعم فقال عليه السلام : أمّا أنا فلا أراه . قال : ما الذي حدَث ؟ قال (ع) : لقد هَرِمْت ، فضعف البصر هو علامة الهَرَم ، والعلامة الثانية هي انحناء الظهر ، والثالثة هي ضعف الساق .

---

(١) البحار/ج ٣ .

اعقلوا إذاً فأنتم مقهورون لله

﴿ أفـلا تعقلون ﴾ : التعقُّـل الأوّل الـواجب على الإنسـان هـو أن يستيقن ، من موضوع النُكس هذا ، أنه مخلوق مقهور لله[1] . إنّك تـرى أمام ناظريك ـ مُذْ كنت في المهد ـ أين أوصلتك قدرته ، ثم كيف أعادك إلى الضعف مرّة أخرى ، فـاعلم إذاً أنّك تحت رعـاية ربّ غيـر نفسك ، وأنّه هو الذي يجعلك شابـاً ثم شيخاً ، وهـو الذي يهب القـوّة ويسلبها ، فالأمر ليس بيدي أو يدك .

طلبات الأمير الثلاثة من الإسكندر

يـروى عن الإسكنـدر أنّـه قـال لـواحـدٍ من أمـراء الممـالـك التي أخضعها لحكمه : الزمني وكن مرافقي ، أعطك ما تريد .

قال الأمير : إنّ لي إليك ثلاث حاجاتٍ فقط ، فـأمِّنها لي ، الأولى أن تحفظ لي شبابي ؛

فقال الإسكندر : أنا لا أستطيع أن أحفظ شبابي !

قال : الثانية : أن تحفظ لي عافيتي ، والثالثة أن تضمن بقائي .

فقال الإسكندر : إن ما تطلبـه يتجاوز قـدرتي ، وهو ليس بمقـدور أحد !

هذه الأعمال مقدورة لمبدأ القـدرة . الأطباء كلُّهم بكـلّ ما لـديهم من وسائل لا يستـطيعون أن يمنعـوا الموت عن أحـد ، إذاً فليعلموا أنّهم عبيد مقهورون ، مملوكون[2] .

---

(١) ﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾ (الأنعام/٦١) .

(٢) ﴿ ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ﴾ (النّحل/٧٥) .

واظبوا على تحصيل الملكات الحسنة حتى الأربعين

لئن عقلتم لعرفتم من هذا الانتكاس في أعماركم أن المعطي والآخذ والحافظ، وواهب القوّة وسالبها هو الله تعالى؛ فدعوا جانباً قولكم أنا، أنا! فأنتم عبيد لله فعلاً، فلتكونوا في مسلككم كذلك.

ومن ناحية أخرى: ألا تعقلون أن هذا النُكس سينتهي بكم إلى الفناء؟فلماذا إذاً لاتبادرون إلى جمع رأس مال لكم قبل ذلك، تعدّونه لعمر آتٍ وباقٍ؟!

فالمصباح الذي قارب الانطفاء، سارعوا إلى تزويده بالنفط، أو جدوا مصباحاً آخر تدّخرونه لوقت الحاجة.

أيها الإنسان، ما دام مصباح العمر لم ينطفىء بعد، فاعمل عملاً فيه خيرك، ولهذا قيل: اجهدوا ـ طالماً لم تبلغوا الأربعين ـ في تحصيل الملكات المرضيّة، لعل مقام العبودية والمعرفة الحقة يكون من نصيبكم، فما حصلتم عليه من الأربعين وما فوق، يبقى في ازدياد، إن خيراً، فازدياد في الخير، وإن شراً، فتفاقم في الشر.

« ٢٩ »

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ولـو نشاء لمسخنـاهم على مكانتهم ، فمـا استطاعـوا مضياً ولا يرجعون * ومن نعمّرْه ننكّسْه في الخلق ؛ أفلا تعقلون ﴾ ؟

بإمكاننا أن نجعل صورتك مماثلة لسيرتك

قـال تعالى : ﴿ ولـو نشاء لـطمسنا ﴾ - إنّهـا إشـارة إلى استحقـاق الكفّـار والمشركين الذين قرىء على مسـامعهم الكثير الكثيـر من الآيات البيِّنـات ، فأعـرضوا عنهـا ؛ لقد عميت قلوبهم بـأيديهم ، ونحن لـذلك سنزيدهم عمىٍ على عماهم ، حتى لا يكون بمقدورهم تمييز مسـارهم ! بل هم يستحقّون أن نـمسَـخَهم أيضــاً حيثما كـانوا ونجعلهم كـالحجارة الجامدة لا يمكلون جيئة ولا ذهاباً ! وقد حقّ عليهم ذلـك ، فمن لم تؤثر فيه المواعظ ، حريّ به أن تكون صورته كباطنـه ! ذلك البـاطن الحيواني الكريه ، شأنه شـأن (أصحاب السبت) ، إذ أصبحـوا وقد مسخـوا قردة وخنازير !!

إنّنا إذا ما أردنـا ذلك قـدرنا عليـه ، غير أنّ حكمـة الله اقتضت أن يمهلهم ، علّهم يعودوا عن غيِّهم[١] .

---

(١) « وإنّما تأنيت بهم ليفيئوا إلى أمرك » (الصحيفة السجادية) .

فلو تقرّر أن يؤخذ المذنب بذنبه فور اقترافه لـه ، لما كـانت الحياة على الأرض ميسورة[1] ، بل يحسن إمهـاله علّه يندم ؛ فإن لم يفعـل ، فهـل بمقدوره الفـرار من ملك الله ؟ فأين يـذهبَ المذنب ليكـون خـارج ملك الله وسلطانه ؟!

الحسين (ع) يفُكّ اليدين الملتحمتين

يروى أن رجلاً كـان عديم الـورع والتقوى ، وكـان لا يخشى مغبّة النـظر إلى الأجنبيّة أو لمسهـا ، حتى أنّـه كـان يـرتكب هـذا المنكـر في المسجـد الحـرام ، وعنـد حجـر إسمـاعيـل ، حيث يـدعـو النـاس ويستغفرون .

اتّفق أن إحدى النّساء تعلّقت بيـديها بـأستار الكعبـة ، فوضـع هذا الرّجل يده فوق يدها ، فالتحمت اليدان ، وكانت الفضيحة !!

ويـروى بناء على مـا ورد في (المناقب) ، أن النـاس ذهبوا بهمـا إلى القاضي في المسجد ، فقال القاضي : لا سبيل إلى فصل اليدين إلاّ بالسّكين ! ووقع الجميع في الحيرة .

اتفق أن الحسين (ع) كـان في مكّة ، ودخـل في هـذه الأثنـاء إلى المسجد ، فجاؤوا بهما إليه ؛ فأخذ عهداً من الرّجل بأن لا يعود إلى مثل هـذا الذنب ، ثم دعـا عليـه السـلام ووضـع يـده المبـاركـة بين اليـدين الملتحمتين ، فانفصلتا .

بقي وجههـا على تلك الحـال التي كانت قـد أدارتـه فيهـا أثنـاء الصلاة

يروى في المجلّد الثاني عشر من البحار أن امرأة كانت لها ضُرّة ،

---

(١) ﴿ ولـو يؤاخذ الله النـاس بظلمهم مـا ترك عليهـا من دابّـة ولكن يؤخـرهم إلى أجـل مسمّى ﴾ (النحل/٦١) .

وكان من عادتها أن تترصّد لضرّتها ، واتفق ذات يوم أن دخل زوجها المنزل بينما كانت تصلّي ، واتّجه إلى زوجته الأخرى ، فأدارت المرأة وجهها ـ وهي في حال الصلاة ـ لترى ما الذي يفعله زوجها ، فبقي وجهها على تلك الحال .

وقد نقل الشهيد الثاني حديثاً يقول : « أما يخاف من يحوّل وجهه في الصلاة أن يحوّل الله وجهه وجه حمار »[1] ؟

يقول الشهيد : ربما يكون ذلك إشارة إلى حال الباطن حيث تُصبح صورة الشخص الباطنيّة صورة حمار .

تعلقت المرأة المسكينة بثوب زوجها ، علّه يأتي لها بطبيب ، غير أنّ من لجأوا إليهم من أهل المعرفة والاطلاع ، أجابوا بأن إعادة الوجه إلى وضعه بالقوة ، كفيل بتحطّم عظام الرُّقبة .

فجاؤوا بها إلى الإمام موسى بن جعفر (ع) ، فأمرها سلام الله عليه بالتوبة ، وبعد أن تابت توبةً صادقة مدّ يده المباركة ، وأعاد لها وجهها إلى ما كان عليه .

أيّها المفطرون ، استتروا

أيُها العاصون والذين لا خشية لهم المتجرئون بإعلان معصيتكم ، سمعنا أن الإفطار العلني انقلب أمراً عادياً ! وأنتم يا من ترون ما يجري فلا تحرّكون ساكناً ، ألستم مسلمين ؟! بل أنتم كما سمّاكم أمير المؤمنين (ع) : « ميّت الأحياء » ؟! فيا أيُها الميّت المتحرّك ، ترى المعصية ترتكب علناً ، فلا تحرّك ساكناً ؟! ألا تتّقي فتنهى عن هذا المنكر ؟! ألا تعلم أنه لا يحقّ حتى للمسافر ، أن يفطر علناً ؟!

الدليل على أنّنا نستطيع أن نبدّل خلقتهم ، هو هذا التبدّل الذي

---

(١) أسرار الصلاة / الشهيد الثاني .

يلحق بالمسنّين : ﴿ ومن نعمّره نُنكِّسه في الخلق ﴾ .

إكرام الشيوخ أمان من الفزع الأكبر

لقد أوصى الإسلام بالشيوخ كثيراً ، فعلى المسلم ان يرعى حقّ ابويه العجوزين ، وأن يحذر إيذاءهما ، وإلاّ فسيرى أثر عمله في نفسه ، علاوة على سوء العاقبة الذي ينتظره .

ويجب إلى ذلك ، على كلّ مسلم إكرام الشيوخ ، فمن ابيّض شعره في الإسلام ، فعلى الجميع إكرامه ، ومدّ يد المساعدة له ، وتأمين حاجاته ؛ لأن « إكرام ذي شيبة في الإسلام » ، أمان من الفزع الأكبر يوم القيامة .

﴿ أفلا يعقلون ﴾ : ألا يعلم الذين يرون (المسخ) التدريجي للإنسان ، أن الله قادر على مسخهم والطمس على أعينهم ؟! انظر إلى صورتك شاباً ، ثم انظر إليها شيخاً ، واحذر أن تتبدل إلى صورة« تحسن عندها القردة والخنازير » !!

المَلَكات تقوى في سنّ الشيخوخة

للإنسان في تكوينه جانبان : جانب الخلق وجانب الأمر : ﴿ ألا له لخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين ﴾[1] .

فهو ذو جسم وروح ؛ ومسألة النُّكس عن طريق الشيخوخة تعود إلى جانب الخلق ، فالقوى الجسدية تتجّه نحو الضّعف والاضمحلال حتى تبلغ أدنى درجاتها ، وهي سِنُّ الخَرَف التي تعود به إلى الطفولة .

أما روح الإنسان : فإذا عمل الإنسان منذ شبابه على تقوية جانب الروح عنده ، وعمل على تزكيته وتنقيته وكماله ، والتزم ذلك حتى سن

---

(1) سورة الأعراف : الآية ٥٤ .

الاربعين ، فقد غدا إنساناً بالفعل . اي يكون قد تحرّر من عبادة المال والنساء والمادّة ، واصبح موحّداً ، لا يعترف بوجود مؤثر سوى الله ، ولا يشوب روحه جشع او بخل او حسد أو نفاق ، يتجنب إيذاء الغير ، فالعضّ والإيذاء من عادات الكلب لا الإنسان ! بعضهم يفعلون بألسنتهم ما يفعل الكلب بأسنانه ، مع فارق أن الكلب يؤذي الجسد ، أما اللسان فيجرح القلب .

والخلاصة : فلو راعى الشخص صلاح نفسه في شبابه ، لظَهَر شيئاً فشيئاً حتى يصبح ذلك ملكةً عنده ، فالملكات تقوى وتكتمل بعد سن الأربعين .

أمّا إنْ كان في شبابه مستهتراً ، مقبلاً على كلّ حرام ، معجباً بنفسه ، عابداً لهواه ، فالويل له إن بلغ الأربعين ، ورسخت هذه الملكات عنده !

يُروى أنّ من بلغ الأربعين ، ولم يَصْلُح يُقبِّل الشيطان جبهته ويقول : نفسي فداء لمن لم يَعُد يُرجى منه أي خير[1] !

وأخيراً : ﴿ ومن نعمّره ننكّسه في الخلق ﴾ وليس في الأمر . فبالرغم من أنّ جسمه إلى اضمحلال وضعف ، إلاّ أنّ روحه تصبح في شيخوخته أكثر قوة مما كانت عليه في شبابه ، فهو إن كان قد حاز الكمالات الإنسانية في شبابه : كالسخاء والكرم والعفو ، قويت هذه الخصال في شيخوخته ، فيسخو حتى بتقديم روحه في سبيل الله ، وعند لقاء مَلَك الموت يُسلِم الروح بكل شوق وسكينة .

الويل لذاك الشّقي الذي يكنز ماله فلا ينفق منه ، فإن بُخْله وحسده يزدادان قوّةً في شيخوخته .

المؤمن إذا بلغ التسعين ، يأتي النّداء : « يا أسير الله في الأرض

---

(١) لآلىء الأخبار .

قد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر »[1] .

والخلاصة : ففي سنّ الشّيخوخة ينصَبُّ العجز على الإنسان من قمّة رأسه إلى قدميه ؛ لذا فالشرع يوصي ويقول : أيُّها المسلمون ، وقّروا الشُّيوخ وارحموهم واكرموهم .

العبادات في سنّ الشباب في صحيفة الأعمال عند الشيخوخة

الشيوخ الذين انحنت منهم الظهور ، يُبعد الله تعالى ببركتهم البلاء عن المعمورة ، لأنّهم موضع رحمة الله[2] . والشخص الذي عرَف قدر شبابه وأصلح حاله ، فإن أعماله التي أتى بها في شبابه ، تثبّت له ثانية حين يعجز عن إتيانها في شيخوخته ، حسب قول الروايات .

مثلاً : كان يتهجّد في شبابه ساعتين كل ليلة ،وقد أسنّ الآن وعجز عن التهجّد ، فتثبّت له ساعتان عن كل ليلة .

فيا أيُّها الذين لم تبلغوا الأربعين بعد ، تحرّكوا وبادروا ، فالحصاد في النتيجة لكم .

بعد أن أوضحنا هذين الجانبين للتعقّل ، نسأل الله التوفيق إليه .

يقول الإمام زين العابدين (ع) : « وعمِّرني ما كان عمري بذله في طاعتك ، وإذا كان عمري مرتعاً للشيطان (أي عصياناً لك ، وانحرافاً عن سبيل عبوديّتك) فاقبضني إليك من قبل أن يسبق مقتك إليّ ، أو يستحكم غضبك عليّ »[3] .

---

(١) بحار الأنوار ، ج : ٣ .

(٢) إرشاد القلوب للديلمي .

(٣) الصحيفة السجادية .

« ٣٠ »

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وما علّمناه الشّعر وما ينبغي لـه ، إن هو إلاّ ذكـر وقرآن مبين * لينذر من كان حيّاً ويحقّ القول على الكافرين ﴾ .

إتّهام النبي والقرآن بالسحر

بعد أن توعّد الله سبحانه وتعالى المنكـرين له ولـلأنبياء والمعـاد ، بـأن لو نشـاء لأعميناهم أو لمسخنـاهم ، ينبري لـردّ التُهمة التي ألصقهـا المشركون بمحمد (ص) . فالباطل في مواجهة الحق، لا شوكة لـه ، لذا يلجـأ إلى التُهمـة ليبـدو على الضـد من حقيقتـه ، وأنّـه هـو الحق بينمـا الطرف الآخر هو الباطل . إنّه يلجأ إلى الاتهام محاولةً منه لإثبات وجوده في أوساط مجموعةٍ ضالّـة من الناس ، لأن أفـرادها ليسـوا مِمَّن يحقّقون ويفحصـون فما أكثـر من ترضيهم كلمـة واحدة ، ويكـون إذ ذاك للتهمـة أثرها .

وقف مشـركـو مكّـة في مـواجهـة خـاتم الأنبيـاء ، إذ راعهم تقـدُّم الإسلام وتوجُّه القلوب نحو القرآن ، فالشباب الذين كـانوا يسخـرون من عبادة الأصنام ، والذين كانـوا يتخذون مـوقفاً مغـايراً لأبـائهم وأمّهاتهم ، تنادوا للاجتماع والتداول فيما يعملونه لمواجهة محمّـد (ص) ؛ الوليـد ،

وكان أكبر من ضمّهم المجلس ، قال : إنّه لا يسعنا أن نفعل شيئاً نواجه به القرآن إلاّ أن نقول إنه سـحـر ، نشيع أنّ محمـداً ساحـر وسحره هـو القرآن ! فلو سئلنا ، علمـاً بأن الناس قلّ ما يحققون ، فلو سئلنا فرضـاً : وأين السّحر فيه ؟ فيكون جوابنا : لأنّه يبث التفرقة بين النـاس ، فكما أنّ السّحرة يفرّقون فإنّ محمّد قد فرّق كذلك بين الآباء والأمهـات وأبنائهم ، وأبعد شبابنا عن معابد الأصنام .

الشّعر وليد خيال الشاعر وهو غير واقعي

مضت مدّة ، وصارت هذه التهمة قديمة ، فحـاكوا تهمـة أخرى ، قالوا ، إنّه شاعـر . وفي هذه الآيـة الشريفـة يَرُدُّ تعـالى هذا الافتـراء عن رسوله .

لذا فإنّ بحثنا يتعلّق بموضوع الشّعر والشُّعراء ، فالشِّعر أصلاً مـاذا يعني ؟ الشّعر ، هو قضيَّة ، أي هو مـوضوع ومحمـول لا واقع لـه ، وهو من جملة القضايا التخيُّليَّة ، مجرَّد تـوهُّم ، دون أن يكون لـه في الخارج أيّ واقـع ، يـأتـون بـه مسَجَّعـاً ومقفًى في أوزانٍ مقـرّرة قـد ذُكِـرَت في محلّها ، والوزن بدوره للشِّدَّة في التأثير،كي يكون التأثير أكبر ، يزخرفونه ويبهرجونه وتلك هي مراعاة الوزن والمصرع والقافية .

مثلاً يقول أحدهم للآخر : هذه كلُّها شِعر ، أي إنّها أمور لا حقيقة لها قد ذُكِرَت ضمن ألفاظ مزخرفة حتى اشتهر الشعر بأنّ أحسنه أكذبـه . مثلاً يقـول الشـاعـر الفـردوسي في الـ « شـاهنـامـه » عن حـرب رُستم وإسفنديار عندما نزل رُستم ساحة المعركة ووقع تحت جوافر الخَيْل :

فـالأرض من هول النـزال تشققت ... طـبقـاتـهـا وتـطـايـرت أشـلاء
فـانضم سـابعهـا إلى ركب السمـا ... فغـدت ثمـانـاً إن تشـأ إحصـاء

أي : إنِ واحـدة من الأرضين السبـع طـارت من عنف الصـراع

وهوله ، فالتحقت بالسماوات السبع ، فأضحى تعداد الأرضين ستاً ، بينما أضحت السماوات ثمانا ، إنه الشعر !!

فالشعر كلما مال إلى المبالغة والكذب ، كلما كان أكثر جمالاً وجاذبيّة ! لهذا فقد كان للشعراء طور غريب في المدح والذّم ، فهم في قصيدة يبرزون ظالماً على أنّه عادلٌ من الدرجة الأولى ، وفي قصيدة أخرى يبرزون العكس تماماً !!

على أي حال ، كانوا يقولون للرسول (ص) : أنت شاعر ! حسناً ، ونحن نقول لهم : هاتوا آيةً واحدة في هذا القرآن بعيدة عن الواقع والحقيقة ، أو أنها حدس وتخمين !!

﴿ وما علّمناه الشّعر ﴾ : نحن لم نعلّمه الشّعر ، وليس هو أهلاً لأن يكون شاعراً **﴿ وما ينبغي له ﴾** .

النبي هو المعلّم السّماويُّ للإنسان ، معلّمٌ هو ، بينما الشاعر مغرقٌ في الخيال ، فأيُّ شاعر يُعطي علماً وكمالاً للمجتمع ؟! .

وقد جاء ذمّ الشّعر والشُّعراء في القرآن ، قال تعالى :

﴿ والشعراء يتّبعهم الغاوون * ألم تر أنّهم في كلّ وادٍ يهيمون * وأنّهم يقولون ما لا يفعلون ﴾(١) ؟

الوعظ بالشّعر ومدح أهل البيت ورثاؤهم به أمر حَسَن

اتضح مما تقدم ما هو المراد بالشاعر وبالشعر المذمومين، كما تقدم أنه الشاعر الذي يتوسل الكذب والخيال في شعر مسجوع مقفّى موزون، أما الشاعر الذي يأتي ـ ضمن هذه الموازين والمقاييس ـ بأمور حقيقية واقعية ، فلا غبار عليه . إن الوعظ بالشّعر أو مدحَ أهل البيت أو رثاءهم أمرٌ مطلوب ، لأن تأثيره يكون أكثر بدرجات . لذا فقد استثنى تعالى بلا

---

(١) سورة الشعراء : الآيات ٢٢٤ ـ ٢٢٦ .

فصل في القرآن الكريم حيث قال : ﴿ إلاّ الذين آمنوا ﴾ . استثنى من الشعراء المذمومين أصحاب الإيمان والعمل الصالح منهم . . استثنى الشاعر الذي يمتنع عن الكذب في شعره ويمتنع عن مدح من لا يستحق المدح أو ذمّ من لا يستحق الذّم .

كان الشعراء ينشدون قصيدةً في مدح ظالمٍ ما ، قصيدة كلّها كذب ونفاق ومديح في غير محلّه ، ثم يتقاضون على ذلك مبلغاً كبيراً من المال من بيت مال الناس المساكين ، فإن كان ما قدّم لهم قليلاً ، راحوا يدبّجون قصيدةً في هجاء ممدوحهم! كالبعض من كُتّاب الصحف في زماننا. كانت ملايين الدولارات ترسل إلى الصحف والمجلاّت في الخارج ، تشترى بها ذمم أصحابها ، كي يخفوا الحقائق ويقلبوها !

على أي حال ، فكُتّاب الصحف لا يختلفون في هذا عن الشعراء ، فهم يستطيعون بأقلامهم أن ينصروا الحق ، ويخدموا العالم الإسلامي والمسلمين ، وفي الوقت عينه يستطيعون أن يسحقوا الحقّ وينصروا (إسرائيل) وغيرها من الظالمين .

التكسّب بالشّعر أمرٌ غير مستحسن

لا يعد شعر سعدي ـ وخاصة في مواعظه ـ من الشّعر المذموم والمُعاب في الإسلام . إنّه يقول : إن البطن التي تمتلىء بالقيح والدّم ، لهي أفضل من البطن التي تمتلىء عن طريق الشّعر وإنشاده . إن الشّعر الذي يُكره إنشاده في المسجد وأيّام الجمعة ، ليس ذلك الذي يشتمل على الموعظة والحقيقة ، ويتضمنّ فضائل أهل البيت ومراثيهم ، وتذكر فيه قبائح أعداء أهل البيت والمشركين ؛ ففي صدر الإسلام كان للمشركين شعراء يُسيئون القول في رسول الله (ص) والإسلام ، وكم من الشعراء المسلمين كانوا ينشدون في المقابل أشعاراً تضرم النار في قلوب الأعداء ، وتسحق تقولاتهم ضد الإسلام .

ورد في تفسير (المجمع) أن النبي (ص) في مسجده كان يأمر حسّان بن ثابت بأن يرتقي المنبر ويُنشد أشعاره في هجاء المشركين .

ذات مرة ، وبعد أن أنشد حسّان أشعاره ، قال له النبي (ص) : إنّ تأثير شعرك على المشركين لهو أكثر من تأثير السّهام المسمومة ، وهكذا كان فعلاً .

وفي غدير خُم أيضاً أنشد أشعاراً في موضوع خلافة ووصاية علي (ع) . وفي هذا الموقع بالذّات حدَث أن قال النبيُّ (ص) لحسّان : طالما كنت بعوننا فروح القدس معك ، وهي إشارة إلى انحراف حسّان بعد النبيّ ، وانحيازه إلى معاوية ، وهي بحق من معجزات النبيّ ، فدعاؤه لحسان لم يكن مطلقاً ، بل مقيّداً بثباته على خط النبي (ص) .

انحاز حسان في أواخر عمره إلى جانب معاوية ، وأنشد أشعاراً في مدحه وذمّ عليّ ، وهكذا فقد كانت نهايته سيِّئة ، لهذا قال النبيُّ : ما دُمْتَ (يا حسان) في جادة الحقّ ، ما دُمْتَ تعين الحقَّ ، فأنت مؤيَّد بروح القدس .

فمن قال الحق إذاً ، ووعظ بالحق ، فهو مورد للمديح ولطف الله تعالى .

أشعار الحسين بن الحجّاج في محضر السيِّد المرتضى وابن بُوَيْه

سأتحدَّثُ إليكم عن عليّ(ع) بمناسبة اليوم التاسع عشر من رمضان ففي سنة ٣٠٠ للهجرة ، جاء مسعود ابن بويه إلى النجف الأشرف ، مرسلاً من قبل عضد الدولة ، وكان عضد الدّولة قد وجد كنزاً ، فأراد أن يبني قبر عليّ (ع) ، لذا أرسل مسعود إلى النجف ليُشرف على بناء القبر وعمارته ووضع أساساته . في ذلك الوقت ، كان شاعر العصر الحسين بن الحجاج في النجف ، وهو من الشُعراء الفصحاء العرب ،

وكان في أشعاره يصرّح علناً بفضائل علي (ع) ؛ فنظم قصيدة بمناسبة عمارة القبر في مجلس رسمي بحضور ابن بويه والسيِّد المرتضى نقيب السادة وأنْشَدها ، وكان مطلعها :

« يا صاحب القبّة البيضاء في النجف »

كانت قصيدته رائعة حقاً ، فقد جمعت فضائل علي (ع) ، وكان كلُّ بيت منها يُكَحِّل أبصار المحبين ، ويُعمي أبصار المبغضين ، وبينما كان مسترسلاً ينشد ، وصل إلى موضع فيه طَعْن شديد على بعضهم ، الأمر الذي دعا السيِّد المرتضى لأن ينهره قائلاً : كفى !

الحسين الشاعر ، ترك المجلس وهو في ضيق شديد ، فهو بدلاً أن ينال الاستحسان ، وبَدَل أن يَصِلوه ويخلعوا عليه ، نهروه ، فعاد إلى بيته حزيناً كاسف البال ، وفي الليل رأى علياً (ع) في نومه ، فقال له : يابن الحجّاج لا تحزنْ ، إنّي أمرت السيِّد أن يأتي إليك غداً ليُصلح ما أفسد ، أمّا أنت فالزم مكانك ليكون احترامُك محفوظاً .

كان السيِّد المرتضى جليل القدر جداً ، وكان بحسب الظاهر نقيب السادة وكبير العلويين . ليلاً رأى جدّه علياً (ع) في المنام ، يلوح عليه الغضب ، فقال : يا مولاي ، أنا ابنكم وأنا مخلص لكم فما الذي حدث حتى بتُّ موضع غضبكم ؟

قال (ع) : لماذا كَسَرْتَ قلب شاعرنا ؟ (كان شعراء أهل البيت يحملون أرواحهم على أكفّهم . كانت أرواحهم حقاً في خطر ، لهذا كانوا محبوبين كثيراً من قبل أهل البيت) غداً تذهب وتعتذر منه ، وعلاوة على ذلك توصي به ابن بُوَيْه (حتى يكرمه) .

وقام السيِّد بنفسه ، مع جلال قدره ، وذهب فوقف على باب ابن الحجّاج ، فصاح ابن الحجاج من داخل البيت : إن الذي أرسلك أمرني كذلك أن لا أقوم مِنْ مكاني ؛ فأجاب السيِّد قائلاً : سمعاً وطاعة ، ودخل عليه واعتذر منه ، وأخذه معه إلى ابن بويه وقدّمه لهم على أنه

موضع عناية عليٍّ (ع) فَخُلِعَ عليه وتقرّرَ له عطاءٌ دائم[1] .

لنعد الآن إلى حديثنا عن الشعر ، فهو كما قلنا كذب واختلاق ، أما القرآن المجيد فهو الفيصل بين الحق والباطل[2] ، وهو الصدق المحض .

القرآن يُذكِّر بالله والآخرة

ليس في الشِّعْر من شيء سوى الغفلة عن الله ، في حين أن القرآن يذكّرنا بالله وصفاته وأفعاله ، وبالآخرة .

الشِّعر يثير الشهوات ، أما القرآن فهو يقودنا نحو الله ، فأين المعلّم السماويُّ من الشِّعر وإنشاده ؟ ﴿ وما ينبغي له ﴾ ، إنه يتذكّر قرآنه تماماً .

القرآن هو الذكر المبين ، فهو يذكّر الفرد بما تستقيم به حياته ، ويحيي المجتمع الميت المتخلف ، فهو واهب الحياة للمجتمع إذاً ، وما مات مجتمع جعل من القرآن مناراً له وهادياً .

لقد تحرر مجتمعنا ببركة القرآن ـ والحمد لله ـ من أيدي المستعمرين والطواغيت ، وعاد مرفوع الرأس مستقلاً ، عاد مجتمعاً حيّاً في حمى القرآن .

﴿ لينذر من كان حياً ﴾ : لئن كنتم أحياء فاتّخذوا من القرآن منهجاً لعملكم ، فلا تُخْدعون بعد ذلك . إن القرآن يهزُّ كيان الإنسان ، الإنسان الحي ، ويدفعه إلى الحركة والأمل .

---

(١) (وقائع الأيام) للخياباني .

(٢) ﴿ إنّه لقول فصل * وما هو بالهزل ﴾ (الطارق/١٣و١٤) .

الحياة الإنسانية توجب التأثر بالقرآن

﴿ من كان حياً ﴾ : أيُّ نوع من الحياة ؟ ليس المراد بالطبع الحياة النباتيّة أو الحياة الحيوانيّة ؛ فالحياة النباتيّة هي ذلك النضج والنُّمو ؛ والحياة الحيوانيّة يتبدّى أثرها بالحركة ، بإرادة وشعور نسبيين ؛ إنّما المراد هو الحياة الإنسانيّة ، ومن آثارها الأمل بالله ، فغير الإنسان لا يملك هذا الأثر . الإنسان هو الذي بإمكانه أن يُدرك أنّ الأفعال كلّها بيد الله . لذا فهو يتوكّل على الله ، ورجاؤه فقط بالله ، وخوفه أيضاً منه ؛ فالقرآن يصلح لأحياء كهؤلاء .

﴿ ويَحِقُّ القولُ على الكافرين ﴾ : المقصود من « قول » ربما يكون القول الذي ورد في أوائل هذه السُّورة الشريفة ﴿ لقد حقّ القول على أكثرهم ﴾ أي : وجب الوعيد واستحقاق العقاب على أكثرهم حقاً إن الكافرين يستحقون الوعيد بجهنّم ، بعد أن ماتت فيهم روح الإنسانيّة ، فلم تبقَ لهم قلوب تفقه ، ولا أعين تبصر ، ولا آذان تسمع وتدرك[1] .

(1) ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ؛ أولئك كالأنعام ، بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون ﴾ (الأعراف/ ١٧٩) .

« ٣١ »

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أولم يـرَوا أنّـا خلقنـا لهم ممّـا عملت أيـدينـا أنعـامـاً فهم لهـا مالكون * وذلّلناها لهم فمنها رَكوبهم ومنهـا يأكلون * ولهم فيهـا منافـع ومشارب أفلا يشكرون * واتّخذوا من دون الله آلهة لعلّهم ينصرون * لا يستـطيعون نصـرهم وهم لهم جند محضـرون * فلا يحـزنك قـولهم إنّا نعلم ما يسرّون وما يعلنون ﴾ .

خلق لكم الأنعام:

تدبّروا في هـذه الآيات الشـريفة ﴿ أولم يـروا أنا . . . ﴾ أوَلَم يـرَ هذا الإنسان الذي وهبه الله العقل ، أنّا خلقنا له بأيدي قدرتنا ، الملائكة التي تنتشر في جميـع أجـزاء العـالم أيـاديَ رحمـةٍ لله ، خلقنـا أنعـامـاً يمتلكونها ، أولاً : كيف خلقناها ؟ ثم كيف جعلنـا الإنسان مـالكاً لهـا ، كيف جعلنـاها بتصـرّفه ؟ الله قضى بـذلك ، وإلاّ فمن يستـطيع أن يخلق حيـواناً ؟! المـالك الحقيقي خـالقهـا نفسـه ، ولـو لم يجعلهـا الله ملكـاً للإنسان لما كان باستطاعته أن ينتفع منها ، أن يأكل من لحمها الطّري ، أن ينتفع من حليبها وصـوفها ، ليس من عضـوٍ في هذا الحيـوان إلاّ وفيه فائدة للإنسان ، حتى العظام والحوافر ، فهي مورد نفع للإنسان .

نعمة الرُّكوب والإفادة من الحليب واللّحم والصوف

﴿ ولكم فيها منافع ومشارب ﴾ : أيُّ شرابٍ أعذب من ألبان هذه الأنعام ! أيُّ منافع أسمى من الرُّكوب عليها ، والإفادة من لحمها وصوفها ؟!

﴿ أفلا يشكرون ﴾ : ما دام الإنسان لا يعرف قدر النِّعمة والمنعم ، ولا يكون له شاكراً ، فما الفرق بينه وبين الحيوان ؟ فهما في النواحي الحيوانية : كالأكل والنوم وإشباع الغرائز والغضب مشتركان ؛ وفي الصناعة وغيرها كذلك ؛ فبعض الحيوانات تجيد الصنع بمهارة ، ولو أنها قابلة للزوال بالموت، وليست لها قيمة باقية، إلاّ أن يكون هناك حقّاً هدف إلهي وأُخروي ، مثلاً فالإنسان يجتهد كي يُصبح طبيباً يخدم النّاس ، فإن كان هدفه الحصول على المادة ، حصل عليها ، وكان أجره هو هذا فحسب ، على أي حال إنّ ما يرتبط بالإنسانية، وله قيمة باقية بتمام المعنى ، إنّما هو معرفة قدر النّعمة والمنعم وشُكره .

الطواغيت يدَّعون الألوهية مُتَستِّرين بالأصنام

﴿ واتخذوا من دون الله آلهة لعلّهم ينصرون ﴾ : الإنسان الذي أعطيناه هذه النِّعم ، فوضعنا الجمل والبقرة والشاة بتصرّفه ، ولتكون مركباً له كذلك ، فالجمل، أيُّ مركبٍ هو ؟ إنّه سفينة الصحراء ، والإنسان، بدل أن يكون أكثر تقديراً لله وأكثر شُكراً له ، بدل أن يذكر فلا ينسى ، يختلق لنفسه آلهة وهميّة عوضاً عن ربّ العالمين ! وفي مقدّمة آلهة الباطل ، يأتي طواغيت العصر ؛ وما أن يقال : عبادة الأصنام ، حتى تنصرف الأذهان إلى الصّنم الحجري أو الخشبي ، والحقيقة هي أنّ هذه الأصنام إنّما هي دروع للطّواغيت . كان الطواغيت يدّعون الألوهيّة متسترين وراء الأصنام ، بينما الأصنام ومعابدها مجرّد أوهام يتذرعون بها لخدمة مآربهم واحتيالهم على الناس البسطاء .

في زمن فرعون كانت الأصنام كثيرة، وكانت عبادتها منتشرة ؛ وكاد فرعون يستغفل الناس ويدّعي أنه إله الآلهة !

كلُّ الجبابرة هم هكذا ، الشِّرك كلُّه في مواجهة الله ، فما يطلبه الله من الناس ، يطلبه الطواغيت منهم ؛ يريد الله من الإنسان أن يطيع أوامره ، ويرضى بكل ما يشاؤه له ، والسلاطين يفرضون طاعة أوامرهم ؛ أوامر ملكية مقابل أوامر الله !

الجند المحضرون لا يملكون القدرة على المساعدة

﴿ لعلّهم ينصرون ؛ لا يستطيعون نصرهم ، وهم لهم جند محضرون ﴾ : إن الذين اتخذوا آلهة من دون الله على أمل أن يكونوا عوناً لهم ، فأملهم إلى خيبة، ذلك أنهم لا يملكون القدرة على مساعدتهم ، هم جند لديهم ، غير أنهم لا يملكون فعل شيء ، فالله عزّ وجلّ هو القادر على كلّ شيء ، وهو وحده القادر على نصرة المؤمنين ، مهما حشد الطواغيت من جند مجندة .

﴿ فلا يحزنك قولهم إنّا نعلم ما يُسرُّون وما يعلنون ﴾ : لا تحزن يا محمد مما يقولون ويدّعون ، فنحن نعلم ما يدبّرون في الخفاء ، وما يعملون في العلن ، إنهم يبثّون السموم لتمزيق وحدة المؤمنين ،فعلى المؤمنين أن يكون أملهم قوياً بربّهم ، فهو القادر على نصرتهم ، وتسفيه أحلام الأعداء .

« اللهم انصر الإسلام والمسلمين واخذل الكفّار والمنافقين واشغل الظالمين بالظالمين واجعلنا بينهم سالمين غانمين » .

« ٣٢ »

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أولم ير الإنسان أنّا خلقناه من نطفة ، فإذا هو خصيم مبين ﴾ !

فوائد التدبّر في خلق الإنسان

عشرات المواضع في القرآن تذكّر الإنسان بمبدأ خلقه وتكوينه ، المبدأ الذي هو النطفة ؛ كما ورد الأمر صريحاً بأنّه يَتَحَتَّم على الإنسان أن يأخذ هذا المعنى بنظر الاعتبار ، يقول تعالى :

﴿ فلينظر الإنسان ممّ خُلق * خلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والترائب ﴾(١) .

يجب أن يتدبّر الإنسان ، المراد بالنّظر التفكّر والتدقيق ، فَلْيَرَ أنه خُلق من ماء يتدفّق من بين صلب أبيه وصدر أمّه .

ويقول عزّ وجلّ في مكان آخر :

﴿ أوَلا يذكر الإنسان أنّا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً ﴾(٢) ؟! .

---

(١) سورة الطارق : الآيات ٥ ـ ٧ .

(٢) سورة مريم : الآية ٦٧ .

إنّ من فوائد التدبُّر في أصل الخلق ، أوّلاً : الاستدلال على المبدأ عزّ وجلّ ، وثانياً : الاستدلال على المعاد ، والفائدة الثالثة : إصلاح حال الشخص ذاته ، فهذا التدبّر يدفع الإنسان إلى تطهير نفسه من أدران الحيوانية والجهالة والغرور والكِبْر .

الاستدلال بالنطفة على المبدأ تعالى

أمّا فيما يتعلّق بالاستدلال على المبدأ تعالى ، فإذا تدبّر العاقل ، رأى النطفة ، تلك القطرة النّتنة ، وقد إنعقدت ثم راح (المصوّر) يبدع منها أجهزة كالقلب والكبد والمخ وسائر أجزاء الجسم الرئيسيّة ، ثم العظام ومفاصلها وأربطتها ، إلى آخر ما هنالك من أجهزة ؛ وأين تمّ ذلك كلّه ؟ في مكان مظلم يملأه سائل ، وبتعبير القرآن ﴿ في ظلمات ثلاث ﴾ : ظلمة البطن ، والرحم ، والمشيمة .

هل يمكن أن يحدث هذا كلّه من تلقاء نفسه ودون قدرة فوقية ؟ أن يكون هناك حادث من غير محدث ، وموجود من غير موجد ، لا ، فهذا ما لا يقبله العقل والفهم خاصة إذا كان الأمر يتعلّق بحادث عجيب من هذا النوع ! وكلّما ازداد الإنسان تدبّراً في أصل خلقه ، كلّما ازداد معرفةً بعلم الله وقدرته .

فالمعاد إذاً ، لا بدّ كائن

كذلك فالتدبر في خلق الإنسان يعطينا الدليل والبرهان على المعاد أيضاً ،فبعد أن يلتفت الإنسان إلى مسار النطفة يكتشف أنها كانت في البدء موزّعة ثم جُمعت ، فالنطفة التي تخرج من مجرى البول إنّما هي مجموعة من السوائل الموزّعة في أنحاء جسم الإنسان ، وبقدرة الله تجتمع ذرات السوائل هذه في الأوعية المنويّة ، ولهذا يشمل الفتور والكسل الجسم كلّه بعد خروج النطفة منه .

سأل أحدهم الإمام (ع) : لماذا يكفي بعد البول تطهير الموضع والوضوء ، بينما يجب غسل الجسم كلّه بعد خروج المني ؟

فأجابه (ع) : لأن قطرات المني تُجمع من الجسم كلّه .

وهذا الانتشار والجمع للنطفة ليس العملية الأولى من نوعها ، فقد كانت النطفة قبل ذلك موزّعة أيضاً ، وذلك لأنّها ناتجة عن التغذّي بالطعام الذي يتناوله الإنسان ، فيتحول مقدارٌ منه إلى مادة منويّة يدفعها الإنسان إلى خارج الجسم . وهذا الطعام الذي هو أصل النطفة كان أرزاً وقمحاً وخضاراً موزّعة في الأرض ، ومكوّنة من ذرّات منتشرة جُمعت وخرجت بصورة أرز وقمح ، ثم دخلت جسم الأب وانتشرت فيه ، ثم عادت واجتمعت في الحويصلات المنوية .

فبعد أن تدقق إذاً في هذا المسار الطويل يتبين لك أنك طويت في مسيرة وجودك مرحلتين من الانتشار والاجتماع ، وبعد الموت أيضاً يتحوّل جسدك مرةً أخرى ، إلى ذرّات متناثرة منتشرة ، فأين العجب إذاً ، في أن الله عز وجل سيجمعك للمرة الثالثة ؟!

﴿ أولم ير الإنسان أنّا خلقناه من نطفة ﴾ ؟!

في الآية التالية يقول تعالى أيضاً ﴿ وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه ﴾ لقد نسي خلقه لذا فهو يقول متعجباً : كيف يجمع الله هذه العظام بعد أن أضحت رميماً ؟!

تذكّر البداية والنهاية يقضي على الكِبْر

الفائدة الثالثة للتدبر في مبدأ الخلقة ، إصلاح حال الشخص ذاته ، بعد أن يلتفت إلى أنه قد خُلِقَ من نطفة نتنة ينفر منها الجميع ، أجل فبداية كلّ منا قطرة قذرة ، ونهايته جيفة قذرة ! وما بين البداية والنهاية ، يحمل الإنسان القذارة في داخله ، إذاً فلماذا التكبُّر بعد هذا كلّه ؟!

ومن الإصلاحات التي تطرأ على الإنسان نتيجة للتدبّر بمبدأ خلقته ، التسليم لله ولِكُلِّ حق . فهو إذا ما فكّر أنه كان في البَدْء قطرة نتنة ، وأن الله حوّل هذه القطرة بقدرته إلى عين وأذن[1] ، ولسان ويد وقدم ، لذكر أنعم الله العظيمة ، ولشكر المُنْعِمَ عليه . فأنت ما لم تصب بالصمم ، لن تدرك نعمة السمع حقّ الإدراك ، وقس على ذلك سائر النعم !

إنّ الله الذي مَنَّ عليك بكلِّ هذه النِّعم ، كم هو جدير بالخضوع والتسليم لمشيئه جرّاء هذه العناية منه ؟ إنّ من يغفل عن هذه الحقيقة كان الله خصمه الأوّل ، بل هو يكون بمثابة المنكر لله !! ﴿ فإذا هو خصيم مبين ﴾ ، فإذا هو عدوّ معلن لعدائه ، هذا الغافل عن أصله الأوّل ، إنّه يقول : أنا موجود والله ليس موجوداً ! كم هو غبيّ إذ يخاصم ويجادل عوضاً عن أن يتفكّر ، وإلاّ لتحوّل إلى شكور حميد . إنّ على الإنسان أن لا ينسى على الإطلاق عجزه الأوّل لئلا تسيطر عليه حالة كهذه « فإذا . . . » فالتجبُّر نتيجة للجهل والغفلة !

ورد في (روح البيان) مثل عن الجحود والنكران ، يقول :

أعلّمه الرماية كلّ يوم فلما اشتدّ ساعده رماني
أعلمه القوافي كلّ حين فلما قال قافيةً هجاني

ويضرب مثالاً آخر فيقول :

لقد ربّيت جرواً طول عمري فلما صار كلباً عضّ رجلي

إنّ حال الإنسان هي هكذا ، الإنسان الذي لم يكن شيئاً مذكوراً ، فوهبه الله كلّ شيء ، فإذا به ينكر خالقه ، ويجحد المنعم عليه ! بينما هو يصدّق نفسه ، ويتحلّل من مسؤوليته ، يقول : لا شأن لي بالخالق

---

(١) ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً * إنّا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج ، نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً ﴾ (الدهر/١و٢) .

والمنعم ، ولا يعترف بمسؤوليّته ، إنّه ينسى ارتباطه بالله ، أي قيُّوميّة الله ؛ ويقول بالاستقلال لنفسه وهذا هو الكفر بحدّ ذاته ، ثم هو لا يخضع للحقّ !

« ٣٣ »

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أولم يـر الإنسان أنّـا خلقناه من نـطفـة فـإذا هـو خصيم مبين * وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه ! قـال : من يحيي العظام وهي رميم * قـل يحييها الذي أنشأها أوّل مـرّة ، وهو بكـل خلقٍ عليم * الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ﴾ .

الرؤية بالعقل والقلب هي الأهم

﴿ أولم يـر الإنسان أنّـا خلقناه من نـطفة ﴾ : يـرى من الـرؤيـة ، ورغم أنّ ظاهر « يرى » هو بمعنى الرؤية ، إلاّ أنّ المـراد هنا هـو الرؤيـة بعين العقـل ، التي هي أهم وأقـوى من الـرؤيـة بـالعين الـظاهـرة . إنّ الحواس قد تخطىء فيما تدرك ، فمثلاً كثيراً ما يحدث ويُخطىء البصر ، غير أنّ المهم هو العِلْم . فإذا ما صـادفت العين شيئاً مـا وأدّى ذلـك إلى العلم بـذلك الشيء ، كـان ذلك صحيحـاً ؛ وكثيراً مـا يحدث أن تكـون هناك أشياء كثيـرة أمام نـاظري الشخص ، إلاّ أنـه في الوقت عينـه يكون وكأنّه لا يرى شيئاً ، وذلك يحدث حينمـا يكون الشخص مشغـول الذهن بأمر آخر . إذاً فالرؤية بـالعين لا تكون ذات قيمـة تذكـر إلاّ عندمـا تؤدي الى فهم وعِلْمٍ . ومع هذا فكثيراً ما يحـدث أن تخطىء الـرؤية ، فـأنتم

مثلاً ترون دائرة من نار عندما يدار جسم ملتهب مع العلم أنه لا وجود في واقع الأمر إلّا لذلك الجسم الملتهب أمّا الدائرة التي شاهدتموها فليست إلّا دائرة ظاهرية نتيجة لتحريك الجسم الملتهب بسرعة .

إذاً فالمهم هو الإدراك بالعقل ﴿ أولم يرَ الإنسان . . . ﴾ أي : أولم يعلم ، أولم يحصل لدية علمٌ قطعي ـ وهو إدراك أرقى من الإدراك بالحواس ـ أنّا خلقناه من نطفة ثم هو يجادلنا ويخاصمنا ، ويضرب لنا مثلاً ، فيفتّت عظماً نخراً ثم يقول : من الذي يحيي هذا العظم الرّميم مرّة أخرى ؟!

جزيئات الجسم ليست خارجة عن علم الله

﴿ قل يحييها الذي أنشأها أوّل مرّة ﴾ : قل إنّ الذي أوجدها بدايةً من العدم ، هو الذي يوجدها للمرّة الثانية ، وهل الثانية أصعب ؟! في المرّة الأولى لم تكن الجزيئات موجودة في الأصل . وإن قيل : إن هذه الجزيئات متفرّقة هذه المرّة في مواضع متعدّدة ، فإنّه تعالى يجيب على ذلك بقوله : ﴿ وهو بكلّ خلق عليم ﴾ ، كلّ شيء محفوظ في علم الله .

في الآية التالية ، ولبيان سَعَةِ قدرته تعالى ، يذكر جلّ شأنه ذلك بأسلوب رقيق . ففي كلّ أمر يدعو لعجبه يسهل عليه كثيراً إذا ما تذكّر قدرة الحق اللامتناهية ، لأنّه إنما يحاول قياس قدرة الله تعالى بالنظر إلى نفسه وعلمه وقدرته المحدودين ، وهذا خطأ ، فأن تقيس إعادة إحياء التراب المتحلّل بقدراتٍ جزئية محدودة ، فلا بد أن تقول نتيجة لذلك : هذا محال . أما أن تقيس ذلك بالنسبة إلى قدرة الله فيظهر لك أنّه ليس شيئاً يُذكر ، فمن خلق بداية ، يخلق ثانية .

وقودٌ من الشجر الأخضر الرّطب !

﴿ الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً ﴾ : الشجرة الخضراء

الرّطبة نوقد منها ناراً بقدرة الله ! فالماء والنار متضادّان ، غير أن يد القدرة قد جمعتهما دون أن يؤثّر أحدهما على الآخر .

يقول المفسرون عموماً : إنّها إشارة إلى الشجرتين الموجودتين في الجزيرة العربية ، وهما شجرة الزخ وشجرة العفا ، وهما شجرتان تتميزان بميزة خاصّة ، فإذا ما حككنا غصناً من أولاهما مع غصن من الثانية ، تولدت عن احتكاكهما النار ، رغم خضرتهما ورطوبتهما ، وكان الناس يستعيضون بهما عن الكبريت .

﴿ فإذا أنتم منه توقدون ﴾ : أي فإذا بالشجر الأخضر يتحوّل إلى وقودٍ لاستعمالكم . فالكبريت لم يكن معروفاً فيما مضى ، وكان الناس يستعملون حجر الصُّوّان وهاتين الشجرتين بدلاً عنه .

إنّ الأشجار كلّها بشكلٍ عام ، قلّت أم كثرت ، تشتمل على النّار والماء في آن ، ففيها جميعها مواد مولّدة للنّار ، ولكن ظهور النار فيها يتم بالطبع بعد التغلّب على الرُّطوبة الموجودة فيها ، وذلك عندما تجفّ هذه الرُّطوبة ، إمّا بواسطة أشعة الشمس أو بمجاورتها للنار .

يبدو إذاً أن الذي حمل المفسّرين على تفسير هذه الآية بشجرتي الزخ والعفا ، هو أنهم أخذوا بظوهر الأمور على اعتبار أنّ هاتين الشجرتين كانتا بمثابة كبريت ذلك الزّمان ، وإلاّ فإن هذه الخاصيّة موجودة في كل النباتات .

بعد ذلك يأتي تعالى على ذكر نظام السماوات والأرض على نحو الإجمال ، فيقول :

﴿ أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ بلى ، وهو الخلاق العليم ﴾ .

أليس الذي أوجد نظام الخلقة العظيم ، فخلق الكواكب التي لا حصر لها ، بقادر على أن يخلق مثلهم (أي مثل أفراد البشر) ؟! وهو

الذي خلق آلاف المجرات ، وفي كلّ واحدة منها آلاف الكواكب التي لا يمكن تحديد المسافات فيما بينها إلاّ بالسنين الضوئية ؟!

يا من في السماء عظمته

في رواية عن الإمام الرِّضا (ع) أنّه يقول ما مؤدّاه : إن ما خلقه الله في الأرض هو قطرة بالنِّسبة إلى السماء الأولى ، وما في السماء الأولى بالنسبة إلى السماء الثانية هو كقطرة بالنِّسبة إلى البحر ، وفي جنب السماء الثالثة كذلك حتى السماء السابعة في مقابل العرش و . . . أوَيستطيع الإنسان أن يحدِّد عدد النمل في أحد الأحياء ؟

فيما يتعلق بالبيت المعمور يُذكر أن الله يخلق كلّ يومٍ سبعين ألف مَلك يدخلون البيت المعمور ثم يخرجون منه ولا يدخلونه ثانية أي : إن دورهم في الدخول ثانية لا يحلّ حتى يوم القيامة ! إنّ الله عليم بخلقه .

في نهج البلاغة يقول : فوجٌ من الملائكة قائمون على الدّوام وفوج راكعون وفوج ساجدون ، مجموعة يبكون من خشية الله ﴿ وهو الخلاق العليم ﴾ كثير الخلق ، مخلوقاته لا يعلمها إلاّ هو وأولياؤه الكبار ، وإلاّ فهي بالنسبة للآخرين لا تقبل الإحصاء .

« ٣٤ »

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه ، قال : من يحيي العظام وهي رميم * قل : يحييها الذي أنشأها أوّل مرّة ، وهو بكل خلق عليم * الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً ، فإذا أنتم منه توقدون * أوَليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ بلى ، وهو الخلّاق العليم ﴾ .

قضاء الإنسان بتفكيره القاصر

كان الكلام في جواب منكري المعاد ويوم الجزاء ، أن الإنسان ينظر إلى نظام الخلق بفكره القاصر ويَحْكُم على هذا الأساس ، فيقول : الإنسان إذا مات تحوّل إلى تراب ، ثم يتناثر ويتبدّل إلى أشياء أخرى ، فكيف يمكن لهذه الأتربة أن تُجمع فينتظم الجسم من جديد ، وتعود إليه الحياة ، ثم بعد ذلك يلقى جزاءه ؟! إنّه (أي الإنسان) يعجب لسَعَة الجنّة ، فعدد سكان الأرض أربعة مليارات من البشر ، فأنّى للجنة أو لجهنم أن تتّسع للبشر منذ بدء الخليقة وحتى نهايتها ؟!

هذه الأوهام الواهية تدفعهم إلى الإنكار . قلنا : إنّ أبي بن خلف أو أبا جهل فتّت العظم النّخر بيده ثم نثره ، وقال : مَنْ يُحيي هذا وهو رميم ؟

مستويات الإنسان وبديل ما يتحلّل منه

الوجه الآخر الذي قال به بعض أهل التحقيق لـ « مثلهم » ، يحتاج إلى مقدّمة قصيرة ، هي أن للإنسان مستويات ، فمستواه الأول الجسد المادي ، اللحم والجلد والعظم ، والمستوى الثاني : الجسم المثالي المجرّد عن المادة ؛ والمستوى الثالث : النّفس ، والرابع : الروح والعقل .

من هذه المستويات العديدة هناك فقط مستواه الأوّل في تغيُّر دائم . والثابت هو سائر المستويات .

فمنذ بداية خلق الإنسان تبدأ عمليّة التحلّل ، والتعويض عمّا تحلّل ، فالطعام الذي يأكله هو بدَل عما تحلّل، البدن يتحلّل ، والطعام يعوّض ما تحلّل من البدن ، فإذا مرض الإنسان امتنع عن تناول الطعام لأنه لا يشتهيه ، فيهزل جسمه ، ذلك أن ما تحلل من البدن خلال فترة المرض لم يعوّض ، فأصيب الجسم بالهزال .

والخلاصة : فالطعام يتحوّل إلى دم يحمل المواد الغذائية إلى كل جزءٍ من أجزاء الجسم .

بعبارة أخرى الجسم يتبدَّل باستمرار ، يتحلَّل ثم يعوِّض ما تحلل منه . إذاً هذا الجسم المؤلّف من لحم وجلد وغير ذلك هو في تغيُّر وتبدُّل ، والشيء الذي يمنحه الوحدة أي يجعل منه هذا الجسد ، هو الروح ، والنفس والعقل والجسد المثالي ، فهذه لا تتحول بل تتجّه نحو الاكتمال ؛ إن جسمنا الآن ليس ذلك الجسم الذي كان لنا منذ ثلاثين أو أربعين سنة خَلَت .

ليس الجسد هو الذي يُحشر بل ما هو على شاكلته

عندما يموت الإنسان ، يتحوّل الجسد المؤلَّف من لحم وجلد إلى تراب ، أما الجسم المثالي والنفس والروح فتبقى على حالها ، وعند قيام

الساعة ، يُحشر الجسد المؤلف من لحم وجلد وقد طرأت عليه تغييرات ، إنّ الجسم (القيامتي) هو جسم لا تلازمه مستلزمات الدنيا وقذاراتها ، فهذا الجسد إن بقي أسبوعين أو ثلاثة دون اغتسال وتنظيف ، إن لم ينم ، إن لم يطرح ما فيه من فضلات ، مرض صاحبه واعتلّ ، أما في الأخرة فلا أثر لكل هذا ، إذ يتحوّل إلى جسم لطيف .

إيضاح لطافة الجسد يوم القيامة رواه الإمام الصادق (ع) على هذا النحو : يقول (ع) ما مؤداه : إن جسد الروحانيين مثله كمثل التبر المختلط بالتراب ، فإذا بُعث، هطلَ المطر فاتصلت الجزيئات لجسد ذلك المؤمن ببعضها ثم يحشر بعد ذلك .

إنّ الجسد الأخروي يشبه الجسد الدنيوي ولكنه ليس نفسه تماماً ، إنّ جسدي وجسدك الحاليين يُشبهان جسدينا منذ ثلاثين أو أربعين سنة خلَت ، دون أن يكونا هما نفسَيْهما ، وذلك وِفْقَ ما سبق تفصيله ، ومن هنا يقول تعالى ﴿ يخلق مثلهم ﴾ ، لأن الأجساد في الآخرة هي مثلها في الدنيا وإن تكن الروح والعقل هما نفسيهما في الدنيا والآخرة .

موضع العين ، والزائدة الدودية

﴿ بلى وهو الخلّاق العليم ﴾ : أجل ، فالله هو كذلك ، خلّاق كثير الخلق، باعتبار أن خلقه كثير، وفعله كذلك غير محدود، ونظام الخلقة لا حدَّ له ، عليم هو ، بعلمه وُجد هذا النِّظام ، تَنْظر إلى الساعة ، فتدرك أنّ صانعها لا بُدّ أن يكون إنساناً عليماً ، فهل من صنع جسدي وجسدُك ، عليم أم لا ؟! لو أن العين كانت في الصدر ، فعلاوة على قبح المنظر ، فالغرض المرجو من العين لا يتحقّق .

لو أن جميع العقلاء اجتمعوا يريدون ترتيب أعضاء جسم الإنسان على نحوٍ غير الذي هو عليه ، لما استطاعوا ، بل لاستحال عليهم ذلك ؛ فجميع الحكماء يقولون بأنه لا يوجد أيُّ نقص على الإطلاق في

بنـاء جسم الإنسـان ، كمـا أنـه ليس هنـاك من شيء زائـد فيـه ، حتى المصران الأعور الذي كان يُتصوَّر أنّه عضو زائد وسمّوه بالزائدة الدودية ، تبيَّن فيما بعد أنّه بمثابة جرس إنذار ، وأنّ وجوده ضـروري للحؤول دون الإصابة بالتهابات خطرة ، فهو إذاً ليس عضواً زائداً ، بل هو من الأعضاء المفيدة .

أفـلا يستطيـع إلهٌ عليم بهـذا النحو من العلم أن يعيـد الخلق مـرَّة أخرى ؟! ﴿ بلى ، وهو الخلّاق العظيم ﴾ .

« ٣٥ »

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول لـه كن فيكون * فسبحـان الذي بيده ملكوت كلّ شيء ، وإليه ترجعون ﴾ .

قدرة الإنسان المحدودة هي في التركيب لا في الإيجاد

في الآيات المتقدمة يردّ ربّ العالمين على منكري المعاد لرفـع ما أثـاروه من استبعادهم لإمكـانية عـودة جسـد ـ تحلّل وتنـاثـر وتحـوّل إلى تراب ـ إلى الحياة مرة أخرى بقوله : كيف لا يكون ذلـك بمقدور إلـه هو الذي خلق السماوات والأرض ؟!

وفي هذه الآية يبيّن الله تعالى كيفيّة قدرته ، كي يعـرف الإنسان أنّ قدرة الله هي فوق كلّ شيء .

إنّ كلّ فرد موجود ضمن حدود ، وهو يُدرك العالم الخارجي ، من خلال تصور محدود بهذه الحدود أيضاً، ولا يمكنـه أن يحيط بقدرة تفـوق هذا الحدّ، إلّا أن يناله اللطف ، فيتجاوز الماء والتـراب لتمكن من تصوّر القدرة المطلقة، فالإنسان في عملية الإنتاج الزراعي مثلاً، يحتاج إلى آلات وأدوات وبذور وماء وحراثة وعناية ، وتلاحظون أن قـدرة الإنسان في كـل صنعة يقوم بهـا محدودة ، رغم أن عمله يقتصـر على التركيب ، ولا يبلغ

حدّ الإيجاد ؛ فهو لكي يصنع سريراً يحتاج بالضرورة إلىٰ مستلزمات أوّلية ووسائل متعدّدة حتى يحقّق قدرته في صنع سرير . إذاً فقدرة الإنسان محدودة تماماً ، وهو لا يمكنه أن يوجد ما ليس موجوداً ، بل هو يركّب ما هو موجود ، وذلك أيضاً لا يتم إلاّ ضمن شروط .

فعل الله ليس بحاجة إلى زمان

أمّا قدرة الله فهي قدرة الإيجاد من العدم ، إيجاد من وما لم يكن موجوداً في الأصل : ﴿ إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ .

﴿ كُنْ ﴾ هذه وردت في عدة مواضع من القرآن ، وهي أمر بالكينونة ، و« الفاء » هي للاتصال ، فما أن يقول للشيء كُنْ فيكون فوراً دون أي فاصل .

وما من شكٍ طبعاً في أنه ليس المقصود هنا « كُنْ » اللفظيّة كأن ينطق تعالى بكلمة كُن ، لا ، فهذا ليس المقصود ، ذلك أنه لو كان هذا هو المقصود للزم وجود مخاطَب يوجّه إليه الأمر ، وبديهيّ أن المخاطب هنا لا وجود له فهو معدوم أصلاً .

يقول أمير المؤمنين (ع) ما مؤدّاه : و« كُنْ » بمعنى فِعله . فهو تعالى ما أن يشاء حدوث شيء حتى يقع هذا الشيء في الحال ، فما أن يقول : تعني ما أن يشاء ؛ وكذلك الحال فيما يتعلّق بالمعاد ، فهو تعالى بمجرّد أن يشاء إحياء الموتى ، فتتحقّق مشيئته فوراً دون حاجةٍ إلى فترة زمنية أو إلى أسباب ، وليست هذه هي الحال بالنِّسبة إلى قدرة الإنسان .

في عالم الخَلق التدرُّج هو في المفعول لا في الفعل

هنا يجب التذكير بأن الفعل الإلهي في التكوين قسمان : في عالم المادّة ، وفي عالم ما وراء المادّة ؛ فما كان في عالم الطبيعة والمادة

والمُلْك ، فالتدرُّج فيه واقع ، تدرُّج في المفعول لا في الفعل ، ففعل الله ليس فيه تدرُّج ، بل إنّ مشيئته تعالى فيما يتعلَّق بعالم الأجسام قد استقرَّت على هذا الأمر ، وهو وجود فواصل زمنية محدَّدة ؛ فالبِذْرة ، مثلاً ، تحتاج إلى زمن معين حتى تنمو بعد غرسها ، ويبقى نصفها تحت التراب ويتحول من ثم إلى جذر ، ونصفها الأخر يرتفع فوق التراب ويتحول إلى ساق ، ثم تبقى فترة أخرى حتى تثمر .

كذلك الحال بالنِّسبة إلى النُّطفة فهي تحتاج إلى عدَّة أشهر حتى تخرج على صورة جسد ، وهذا ليس من باب التخلُّف في المشيئة ، بل من باب أن المشيئة أرادت لهذا الأمر أن يكون على هذا النَّحو ، وليس على نحو : ﴿ كن فيكون ﴾ ، بل إنّ مشيئة الله تعالى استقرَّت منذ البداية على أن توجد الموجودات الطبيعية بالتدريج[1] ، كما أن خلق السماوات والأرض في الأصل كان على ست مراحل[2] ، إنّ مشيئة الله قد استقرَّت على هذا النَّحو ، وهو أن تتحقق الأشياء بالتدريج ، ولكن بالنسبة إلى عالم الأمر فأن الأشياء تتحقق على الفور ، أريد قصر في الجنّة للمؤمن فيتحقَّق على الفور ، لا يحتاج إلى بناء ، الملائكة توجده بمجرّد مشيئة الله ، والأرواح هي كذلك ، فمشيئة الله فيما يتعلَّق بموجودات ما وراء الطبيعة هي كذلك[3] .

﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ . القيامة هي الأخرى كذلك ، ما أن يشاء حتى يُبعث الجميع وتنشر الأجساد كلُّها .

السلطان على الموجودات هو لله فقط

﴿ فسبحان الذي بيده ملكوت كلِّ شيء ﴾ : بيده : أي بقدرته ،

---

(١) ﴿ إنّا كلّ شيء خلقناه بقدر ﴾ (القمر/ ٤٩) .

(٢) ﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيّام ، وما مسّنا من لغوب ﴾ (ق/ ٣٨) .

(٣) ﴿ وما أمرنا إلّا واحدة كلمح بالبصر ﴾ (القمر/ ٥٠) .

فقد عُبِّر عن القدرة باليد ، لأنه كما هو معروف ، ظهور القدرة يكون باليد وهي تستعمل كناية عن القدرة. إنّ الحكم والسلطة على كلّ ذرّة من الذرّات هي لله ، فـ « ملك » بإضافة « وت » إليها ، أصبحت « ملكوت » فسلطان الله وحكمه على كلّ أجزاء العالم ثابتان : ﴿ إنّ ربّي آخذ بناصيتها ﴾ قد أخذ بناصية وزمام أمور جميع الموجودات .

بعضهم قالوا : إن الملكوت هو عبارة عن الباطن ، والمُلْك عبارة عن الظاهر ، أي إنّ حقيقة وروح كلّ موجود هما بيد الله القادرة ، والحياة الحقيقيّة إن وجدت فهي ذلك الملكوت ، وغيب ذلك الشيء الذي هو تحت نفوذ ومعيَّة قيومية الله : « يا من كلّ شيء قائم به » ، فقيام كلّ موجود هو بالله ، والملكوت يبقى إن شاء الله له البقاء ، وإلاّ فلو شاء زواله ، فإن كلّ شيء يُصبح عدماً .

أفضل بشارة للمؤمن الرجوع إلى الله

﴿ وإليه ترجعون ﴾ المرجع إلى الله ﴿ إليه يُرجع الأمر كلّه ـ إليه المصير ﴾ لقد ذُكِرَ ذلك في مواضع عديدة من القرآن المجيد . بالنسبة للمؤمن هذه الحقيقة هي أفضل البشارات كما أنّها بالنسبة للكافر هي أسوأ خبر وأكرهه .

أيُّها المؤمن إنّ مرجعك إلى الله الشكور الرَّحيم ، أيُّها الظالم إنّ مرجعك أنت أيضاً إلى الله القهّار المنتقم .

إذاً ، أيُّها المؤمنون افرحوا ، قوموا بأعمالكم لله ، فإليه مرجعكم . أيُّها الظالمون والفاسقون أنتم أيضاً تنبّهوا ، توبوا عن معاصيكم ، أصلحوا ما سبق من أفعالكم لأنّ مرجعكم أيضاً إلى الله فإيّاكم أن تنسوا الله .

لكنّ هذه الإنذارات لا تدخل عادة رأس الإنسان المغرور ، فالغرور قد أهلكه ، وهو لا يخشى شيئاً على الإطلاق .

المحتويات

« ١١ »

« ١٢ »

« ١٣ »

« ١٤ »

« ١٨ »

« ١٩ »